الإمام الصادق
والمذاهب الأربعة

تأليف

أسد حيدر

الجزء الثاني

مطبعة النجف - النجف

١٣٧٦ هـ — ١٩٥٧ م



الإمام الصادق

والمذاهب الأربعة

تأليف

أسد حيدر

الجزء الثاني

مطبعة النجف - النجف

١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا * واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آيته لعلكم تهتدون * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينت وأولئك لهم عذاب عظيم .

القرآن الكريم

---

* سورة آل عمران آية ١٠٢ و١٠٣ و١٠٤ و١٠٥ .

الامام الصادق

عصره ومشاكله

مدرسته وتعاليمه

تلامذته ورواة حديثه

— ١ —

اشرنا في ما مضى من القول فى الجزء الاول الى نشأة المذاهب وتطورها وذكر المراحل التي اجتازتها لتصل الى ساحة الخلود والاعتبار ، وذكرنا طرفاً من حياة الامام الصادق (ع) ، وحياة أبي حنيفة ، موجزين فى القول ولم نستوف الغرض لنستخلص النتائج .

وسنعود بعون الله فى هذا الجزء الى ذكر ما لابد من ذكره من حياة أئمة المسلمين ورؤساء المذاهب وآرائهم وفقههم ، وقد ذكرنا هناك مدرسة الامام الصادق (ع) واشرنا الى عدد قليل من تلامذته ورواة حديثه ورأينا كيف نشأت مدرسة الامام ؟ وكيف تكونت فى تلك الفترة ؟ حتى قصدها الوفود من أقصى المشرق والمغرب ، يتزودون من تعاليمها الكمال الديني ، وينتهلون من ذلك الفيض المتدفق بالافكار والتعاليم الروحية القيمة ، فمدرسته خصب ممرع ، وجد الناس فيها ضالتهم المنشودة ، فتهافتوا عليها من كل حدب وصوب ، ونرى من الخير أن نعود لذكرها بصورة واسعة ، بعد دراستنا لحوادث عصره دراسة موجزة ، لنقف على الأسباب التي أدت إلى إنهيار الدولة الاموية ، وقيام سلطان بني العباس مقامه ، ولنعرف موقف الامام الصادق من ذلك الحادث الخطر ، وكيف واجه تلك المشاكل ؟ في ذلك العصر الذي اندلعت فيه نيران الفتن ، وساد فيه الخوف والقلق والاضطراب الذي أدى الى حدوث ثورات متتالية ، ومشاغبات صاخبة ، واتساع دائرة المؤاخذات على الدولة بشكل لا مجال الى انفجار ثورة تطوح بانهيارها وتنذر بانقلاب عام ، فكان

الخوف يسود ذلك المجتمع ، ولم يأمنه الطفل الراقد في مهده ، ولا الشيخ القابع في داره .

وكان الامام الصادق (ع) محط آمال الأمة ، ومعقد امانيها ، وسيد الهاشميين في عصره ، وهو الشخصية الدينية التي بلغت بمواهبها وسمو معناها الى ارفع درجة من الكمال ، واعلى ذروة من الفضل ، ولم تكن منزلته في المجتمع يعلوها الخفاء ، أو يحوطها شيء من الغموض ، بل كان فى طليعة زعماء الامة ، ولم يغب عن الدولة التفاف الناس حوله ، وانتهالهم من فيض تعاليمه ، واشادتهم بذكره ، ولم يجهلوا زعامته ومكانته في المجتمع وان بيته له النشاط السياسي في ذلك الدور المهم ، فهو عرضة للخطر ، وان عرفوا ابتعاده عن السياسة وقيامه بتوجيه الامة الى التعاليم الروحية ، ومعرفة قيمها المعنوية ، وايقاظ الفكر الراقد ، ولم يثر أي ناحية سياسية مع شدة انكاره على الساسة الذين ساروا بالامة على غير هدىً ، وقد ابتعد عنهم وأعلن سخطه عليهم ولم يرض للناس أن يركنوا اليهم ، وحرّم معاونتهم من كل وجه ، وجعل ذلك من الكبائر فلا شك أنه يواجه فى هذا الدور أعظم المشاكل ، وامر المصائب ، فحياته لم تكن هادئة ولا وادعة بل حياة ألم لما يراه من اضطراب ذلك العصر الذي تموج فيه الفتن ، ويحتدم فيه النزاع بين الامويين وخصومهم ، ويرى المتعطشين الى السيادة وقد تطلعت رؤسهم ، ولا يهمهم إزهاق النفوس وحصد الرقاب في سبيل غاياتهم وهو يسمع ويسمع كل أحـــد هتافات الثوار الى (الرضا من آل محمد) وقيام الدعوى فى خراسان ضد الأمويين انتصاراً للعلويين ، وهو يعلم النتائج وما يؤل اليه الأمر ، وينظر الحوادث عن كثب ، نظر الحكيم البصير ، والسياسي الخبير ، بعواقب الامور وكثيراً ما أعلن حقائق تلك الاوضاع ، ومصير ذلك

الانقلاب ، فكان يهمه أمر الامة أكثر مما تهمه نفسه ، ويتألم لما يحوطها من خطر وفزع ، وقد توجـــه فى تلك الفترة باخلاص الى الدعوة الى الله ، وبث التعاليم ، وأفاض على النفوس روح الاصلاح باتباع نظم الاسلام وتطبيقه كما يأتي بيانه .

يمتد عصر الامام الصادق من آخر خلافة عبدالملك بن مروان الى وسط خلافة المنصور الدوانيقي . اي من سنة ٨٣ الى سنة ١٤٨ فقد أدرك طرفاً كبيراً من العصر الاموي ، وعاشر كثيراً من ملوكهم ، وشاهد من حكمهم أعنف اشكاله ، وقضى حياته الأولى حتى الحادية عشر من عمره مع جده زين العابدين ، وحتى الثانية والثلاثين مع ابيه الباقر ، ونشأ في ظلها يتغذى تعاليمه ، وتنمو مواهبه ، وتربى تربيته الدينية ، وتخرّج من تلك المدرسة الجامعة ، فاختص بعد وفاة أبيه بالزعامة الدينية ، سنة ١١٤ واتسعت مدرسته بنشاط الحركة العلمية ، في المدينة ، ومكة ، والكوفة ، وغيرها من الأقطار الاسلاميـة وهذا هو الدور الخاص الذي يهمنا العرض له وتلزمنا دراسته .

— ٢ —

كان العصر الذي اختص به الامام الصادق (ع) عصر فتن واضطراب في جميع البلاد الاسلاميـة ، وحروب طاحنة ، ونزاع بين رجال الدولة ، واصطدمت بمؤاخذات تهدد كيانها ، وتجاوبت البلاد بلغة الانكار على الامويين والمؤامرات السرية قد قاربت النجاح فى تدبيرها الخفي ، وهم فى غفلة عن معالجة تلك المشاكل التي حلّت بالامة ، ولم ينظروا الى المصالح التي تحتاجها سلامة البلاد كاهتمامهم بمصالح انفسهم ، فعم الاستياء جميع الطبقات لسوء المعاملة الاقتصادية والسياسية . وكان وضع الدولة يبعث على ايجاد عوامل لحل تلك المشاكل من قبل المتألمين لتلك الاوضاع التي فتحت عليهم باب المؤاخذات من جميع الطبقات. والمسلمون بصورة عامة قد ساءهم ذلك الوضع ، لأن سيرة الدولة تخالف نظم الاسلام بصورة لا مجال الى السكوت عنها . وتتابعت الحوادث ، واشتدت الامور . وكلما ولي الحكم واحد منهم تزداد قائمة المؤاخذات ، وتظهر فى عهده امور تبعث في نفوسهم الكراهة لعهدهم والاستياء منهم .

وقد كان الوضع الاقتصادي قد ضاعف ذلك الاستياء في الطبقة العامة ، من زيادة الخراج واتباع الطرق السيئة فى الجباية ، وإجحافهم فى تقديره ، كما فعلوا فى فارس . فقد كان عمال بني امية يخرصون الثمار على أهلها ، ثم يقوّمونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون فيه ، فيأخذونها على قيمتهم التي قدروها (١) وأخذوا الجزية ممن لم تجب عليهم كما فعلوا بمصر ، فان عبدالعزيز بن مروان أمر باحصاء الرهبان فاحصوا ، وأُخذت منهم الجزية ، وهي أول جزية أخذت

(١) العصر العباسي الأول .

من الرهبان ، وضرب الأمويون ضرائب إضافية ، كالرسوم على الصناعات والحرف ، وعلى من يتزوج أو يكتب عرضاً ، وأرجعوا الضرائب الساسانية التي تسمى هـدايا النوروز ، وأول من طالب بها معاوية ، وأمر أهل السواد أن يهدوا له فى النوروز والمهرجان ، ففعلوا ذلك ، وبلغ ثلاثة عشر الف الف درهم (١) .

وقدم دهقان هرات واسمه خراسان ، الى أسد بن عبدالله القسري عامل هشام سنة ١١٩ بهدايا المهرجان بما قيمته الف الف (٢) . ويقول الطبري : قدم والي هرات ، ومعه دهقان سنة ١٢٠ بهدايا كان بها قصران : قصر من فضة وقصر من ذهب ، وأباريق من ذهب ، وأباريق من فضة ، وصحاف من ذهب وصحاف من فضة ، والديباج الهروي والقوهي والمروي (٣) .

وبعث عبدالملك بن مروان الى عامله فى الجزيرة يأمره أن يحصي الجماجم ويعتبر الناس كلهم عمالاً بأيديهم ، ويحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ، ثم يطرح من ذلك نفقته فى طعامه وأدمه وكسوته ، وطرح أيام الأعياد كلها ، ففعل العامل ، ووجد الذي يحصل من ذلك فى السنة لكل فرد أربعة دنانير فالزمهم ذلك جميعاً (٤) .

وكان عامل اليمن : محمد بن يوسف أخو الحجاج قـــد ارتكب أنواع العسف والجور ، فكان يصادر أملاك الأهالي وأموالهم ، وضرب عليهم ضريبة معينة عدا الخراج الذي ضربه الاسلام (٥) .

وقدم اسامة بن زيد على سليمان بن عبدالملك بما اجتمع عنده من الخراج

---

(١) الجهشيارى ١٥ . (٢) الكامل ج ٥ ص ١٠١ (٣) الطبري ٤٦٥ ج ٥ سنة ١٢٠ (٤) الخراج ٢٧ (٥) السيادة العربية ٢٨ .

- وكان والياً عليه فى مصر - وقال له : يا أمير المؤمنين إني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت ، فان رأيت أن ترفق بها وترفه عليها ، وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها ، فافعل ، فانه يستدرك ذلك في العام المقبل . فقال له سليمان : هبلتك امك ، احلب الدر ، فاذا انقطع فاحلب الدم ، فالنجا (١) .

وبهذا جهدت الرعية ، وفقدت الرفاهة ، فكان الكل متأثراً من تأدية تلك الضرائب الثقيلة التي تتمتع بها اقلية مستهترة ، ولا يهم ولاة الأمر بما ينجم من وراء ذلك من خراب البلاد ، واغتنم العمال رغبة ولاة الامر فى تحصيل المال وجبايته ، فكانوا يعبثون في جبايتها للحصول على الثروة من وراء ذلك . وربما كان الخلفاء من الامويين يخولون عمالهم ما يحصل تحت أيديهم من جباية الضرائب .

فقد خُول والي خراسان ما حصل له ، وهو عشرون الف الف درهماً من تلك الضرائب .

وسوّغ يزيد بن معاوية لعبدالرحمن بن زياد والي خراسان بما اعترف له من المال ، وهو عشرون الف درهماً ، وكان عنده من العروض اكثر منها ، فقال عبدالرحمن يوماً لكاتبه : إني لأعجب كيف يجيئني النوم وهذا المال عندي ! فقال له : وكم مبلغه ؟ قال : إني قدرت ما عندي لمائة سنة في كل يوم الف درهم لا أحتاج منه الى شراء رقيق ولا كراع ولا عرض من العروض ، فقال له كاتبه : أنام الله عينك أيها الأمير ، لا تعجب من نومك وهذا المال عندك ، ولكن اعجب من نومك إذا ذهب ثم نمت !

(١) الجهشيارى ٣٢ .

فذهب ذلك المال كله ، اودع بعضه فذهب ، وجحد بعضه ، وسرق بعضه .

فآل امره الى أن باع فضة مصحفه ، وكان يركب حماراً صغيراً تنال رجله الارض ، فلقيه مالك بن دينار ، فقال له : ما فعل المال الذي قلت فيه ما قلت ؟ قال : كل شيء هالك إلا وجهه ! (١) .

ولما ولي عمر بن عبدالعزيز ، عالج مشكلة الخراج والجزية والضرائب الاضافية التي هي أعظم من الخراج ، إذ لم تكن محدودة أو مقررة ، بل يعود أمرها الى العمال أنفسهم . فكتب الى عامل الكوفة : أما بعد فان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة فى أحكام الله ، وسُنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء ، وإن قوام الدين العدل والاحسان ، فلا يكن شيء أهم اليك من نفسك ، فلا تحملها قليلا من الاثم . ولا تحمل خراباً على عامر ، وخذ منه ما أطاق واصلحه حتى يعمر . ولا يؤخذن من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لاهل الارض ، ولا تأخذن اجور الضرابين ، ولا هدية النوروز والمهرجان ، ولا ثمن المصحف . ولا اجور الفتوح ، ولا اجور البيوت ، ولا درهم النكاح . ولا خراج على من أسلم من أهل الارض ، فاتبع فى ذلك أمري ، فاني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله . ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه ، وانظر من أراد من الذرية أن يحج ، فعجل له مائة ليحج بها والسلام (٢) .

وانتهى ذلك الاصلاح الذي سار فيه عمر بوفاته ، لان يزيد بن عبدالملك

(١) الجهشيارى ١٨ . (٢) الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٢٩ والطبرى ج ٥ ص ٢٢١ .

- عند ما ولي الخلافة - أمر باعادة تلك الضرائب التي أمر عمر بابطالها ، فكتب الى عماله :

أما بعد فان عمر كان مغروراً ، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده . وأعيدوا الناس الى طبقتهم الأولى ، اخصبوا أم اجدبوا ، احبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا (١) .

فزاد الضغط وعظمت المحنة ، وأصبحت هذه الضرائب عبءً ثقيلا أثقلت كاهل الأمة ، وبالأخص البلاد المغلوبة « واسراف العمال فى تحصيل الاموال وجبايتها ، وعبثهم بما تحت ايديهم منها ، وانفاقها فى مصالحهم الشخصية . وقد كانت تتخذ أمرة احدى الولايات وسيلة للحصول على الثروة وجمع المال » (٢)

ومما يدلنا — على عظيم الاهتمام في تحصيل الولاية للحصول على الثروة — قضية بلال بن ابي بردة عندما وفد على عمر بن عبد العزيز فلزم المسجد يصلي ويديم الصلاة ، فأعجب به عمر . فقال عمر لعلاء بن ابي بندار : إن يكن سر هذا كعلانيته ، فهو رجل العراق غير مدافع . فقال العلاء : أنا آتيك بخبره . فجاء اليه وهو في المسجد وقل له : قد عرفت حالي من أمير المؤمنين ، فان أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعلي ؟ قال : لك عمالتي سنة وهي عشرين الف الف ، قال : فأكتب بذلك ، فكتب له ورجع العلاء الى عمر بن عبد العزيز ، فكتب الى عامله بالكوفة : أن بلالاً غرنا بالله ، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله والسلام (٣) .

فترى بلالاً يبذل عشرين الف الف للحصول على إمرة العراق ، فلا بد

(١) الطبرى والكامل لابن الأثير .
(٢) السيادة العربية ص ٣٠ .
(٣) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٥٨ ط (١) .

أن يتعوض بأضعافها في أقل من سنة ، كما تقتضيه سيرة الولاة وجشع الجباة في ذلك الدور .

وكانت جباية العراق قد أسندت الى الدهاقين — رؤساء القبائل — فساروا فيهم سيرة غير مرضية ، وفي خراسان كانت الضرائب توزع على رؤوس الأهلين لا على مساحة الأرض ، إذ لو فرض على مساحة الأرض ، لوقع أكثره على الدهاقين . وقد فرض الامويون الضريبة على من أسلم . وكان ذلك سبباً في تأخر خطى انتشار الاسلام ، لأن الضريبة تؤخذ من غير المسلم ، وهي الجزية والخراج ، وعند إسلام الذمي يعفى من الاثنين . فلما دخل كثير من الذميين في الاسلام عن عقيدة ، أو رغبة في الخلاص من الضرائب ، عرف النقص في ميزانية الدولة ، ففرض الامويون الجزية والخراج على من أسلم ، فوقف انتشار الاسلام ، لمعارضته لمصالح الدولة المادية . ولم يكن اسقاط تلك الضرائب في الواقع مضراً في مصلحتها أو مخلا في ميزانيتها ، بل كان معارضاً لجشع الولاة ، وطمع الجباة ومصلحة الدهاقين ، فكانت تلك الاعمال القاسية — التي سار عليها العمال — تفسح للناقمين مجالا واسعاً ، وتملأ القلوب على الامويين غيظاً ، لأن سيرة العمال مستمدة من سلطان لا يهمه تذمر الرعية ، ولا يصغي لشكاية مظلوم ، ويعظم على المسلمين أن تسودهم أمة تتجاهر بالظلم وتخالف الاحكام . وقد هجرت السنن ونبذت تعاليم الكتاب وراء الظهور ، حتى أصبح ذلك من شعار الدولة ، فكانوا يتألمون من تلك الاوضاع السيئة ، وما حل بالامة الاسلامية من الجور والعسف بالحكم ، وإراقة الدماء وغصب الاموال وهتك الحرمات . وقد قام دعاة الاصلاح وصلحاء الصحابة بالمعارضة والانكار منذ عهد الدولة الاول ، وأنكر المسلمون أشد الانكار معاملة الامويين

لأهل بيت النبي — تلك المعاملة القاسية والخصومة العنيفة — حتى أراقوا دماء زعماء أهل البيت من غير أن تراعى حرمة لقرابة الرسول ، وجعلوا شتم علي سنة لازمة متبعة في جميع الأقطار ، وهي بدعة ابتدعها معاوية بن ابي سفيان . ولا يسعنا في هذا العرض الموجز استقصاء تلك الاعمال المنكرة . فلنترك ذلك . فالتاريخ أفصح عن تلك المآسي بأوضح صورة لا مجال الى التكتم فيها .

والشيء المهم الذي نريد أن نقوله : هو التنبيه على بطلان أقوال من ذهب الى اسناد إنهيار الدولة ، وإزالة تلك الامبراطورية الى الموالي فحسب ، أو الى العجم خاصة . وتلك أقوال لا يقرها التتبع ولا شاهد عليها وجداناً .

— ٣ —

لقد كانت سياسة الامويين تثير الشعور وتوقد نار الثورة . وفكرة الانقلاب قديمة بدأت فى عصر معاوية بعد صلح الامام الحسن بن علي عليه السلام ثم في عصر يزيد بعد مقتل الامام الحسين عليه السلام ، وسرت فى الحجاز واليمن والعراق ثم انتقلت الى خراسان ، وأول طلائعها ثورة المدينة واقعة الحرّة تلك الواقعة الكبرى (١) ، وأنهم وإن قضوا على حركات الثائرين بصورة مؤقتة ولكنها اسباب امتدت الى انتشار تلك الفكرة ، وقد تفاقمت الحركة وسرت صيحة الانكار وهزّ صداها الرأي العام الى أن حان الزمن ، فهبت عاصفة الثورة واندلعت نيران الحرب وانطلقت قوات المعارضين بتلك الحركة الماحقة ، فكانت ثورة فى الأردن وفي مصر وقـــد قتلوا أميرهم حفص بن الوليد الحضرمي ، وكذلك أهل حمص قتلوا عاملهم عبدالله بن شجرة الكندي ، وأخرج أهل المدينة عاملهم عبد العزيز ، ووقع الخلاف بين الامويين أنفسهم ، ودارت فى الشام معركة حامية قتل فيها ثمانية عشر ألفاً (٢) . وثار سليمان بفلسطين والتقى بجيش مروان الجعدي بأرض قنسرين وقتل نيف وثلاثون الفاً من الفريقين (٣) الى غير ذلك من الثورات فى العراق والري . أما فى خراسان فقـد تكاملت القوة وكثر العدد وعظم أمر أبي مسلم وظهرت الدعوة الهاشمية ، ولا يفوتنا أن

---

(١) كانت واقعة الحرة سنة ٦٣ فى ذى الحجة ، ويعرف المكان بحرة واقم ، سميت باسم رجل من العماليق اسمه واقم ، وقيل غير ذلك . وقتل فى تلك الواقعة سبعمائة رجل من حملة القرآن وألف وسبعمائة من بقايا المهاجرين والأنصار ، وعشرة آلاف من أوساط الناس سوى النساء والصبيان .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٢ .

(٣) الكامل ج ٥ ص ١٤٣ .

نشير الى عامل قوي فى انهيار الدولة وهو ظهور العصبية بين القبائل ، وإيقاد نيران الحرب بين اليمانية والمضرية في الأندلس وخراسان وغيرها . فمن مجموع هذه العوامل كانت خاتمة مطاف الدولة الى ذلك الانهيار الشنيع .

والثورة بصورتها العامة إنما هي ضد الحكم الاموي . فقد أنكر المسلمون تلك المعاملة القاسية التي عاملوا بها الأمة ، واتخاذهم تلك الاجراءات ضد أهل البيت وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ويأملون من ورائها تخليد سلطانهم مع الزمن ولم يلتفتوا الى حراجة الموقف وسوء العاقبة حتى أدى الأمر الى تبادل الرأي بين المسلمين في اتخاذ أقرب الوسائل وانجح الخطط لحدوث ثورة تكون نتائجها من صالح المجتمع الاسلامي . فالخلافة الاسلامية تدور عليها سعادة الامة وقوة الاسلام ، وقد عظم على المسلمين أن تتحول من أوج العظمة الى حضيض الاستهتار ، وأصبحت الأوضاع مقلوبة فوليها بعد الخلافة الراشدة من لا عهد له بالدين ولا معرفة له بالهدى ، وهم أولو غلظة لا ينفذ الى قلوبهم شعاع الرحمة ، فلا يسمعون لمتظلم شكوى ولا يدفعون عن الأمة ما يسوؤها من تلك المعاملات القاسية ، ففرق الله شملهم وأباد جمعهم وأصبحوا عبرة وعظة .

فكانت عاقبة أمرهم أن مزقوا كل ممزق ، وخرج بقية السيف منهم من رجال ونساء هائمين على وجوههم خوفاً على انفسهم وطلباً للنجاة ، ولجأوا لبلاد النوبة ، فأخرجهم عظيمها فكانوا عرضة للخطر حتى صاروا الى مجاوة فقاتلهم عظيمها وانصرفوا يريدون اليمن ، ومروا فى البلاد هائمين ، وكان عبيدالله وعبدالله ولدا مروان هما قادة تلك الفرقة الهائمة ، فعرض لهما طريقان بينهما جبل فأخذ كل واحد منهما في طريق وهما يريان انهما يلتقيان بعد ساعة فسارا يومهما ذلك ثم راما الرجوع فلم يقدرا وسارا أياماً ، ثم لقي عبدالله منسراً من مناسر

الحبشة فقاتلهم فزرقه رجل منهم بمزراق فقتل عبدالله واستأسر اصحابه ، فأخذت الحبشة كل ما معهم وتركوهم ، فمروا في البراري عراة حفاة حتى أهلكهم العطش فكان الرجل يبول فى يده ويشرب به حتى لحقوا عبيدالله بن مروان وقد ناله من العرى والشدة أكثر مما نالهم ومعه عدة من حرمه عراة حفاة ، قد تقطعت أقدامهم من المشي وشربوا البول حتى تقطعت شفاههم ، ووافوا المندب فأقاموا بها شهراً ، وجمع الناس لهم شيئاً ثم خرجوا يريدون مكة فى زي الحمالين (١) . ولما سبيت نساء مروان ومررن على منازله رفعن أصواتهن بالبكاء . وهذا من أعظم العظات والعبر .

ويروى أن عامر بن صالح الخراساني صاحب مقدمة صالح بن علي عم السفاح لما قتل مروان الجعدي آخر ملوك بني امية دخل دار مروان وجلس على سريره ودعا بعشائه وجعل رأس مروان فى حجر ابنته وأقبل يوبخها فقالت له : يا عامر إن دهراً أنزل مروان وأقعدك على سريره حتى تعشيت عشاءه ، لقد أبلغ فى موعظتك وعمل في إيقاظك وتنبيهك إن عقلت وفكرت ، ثم قالت : يا أبتاه ويا أمير المؤمنيناه ، فأخذ عامر الرعب ، ولما بلغ السفاح ذلك كتب اليه يوبخه (٢) .

وكان عبيدالله بن مروان ولي العهد قد ظفر به المنصور واودع في السجن ، وأخرجه المنصور يوماً من سجنه وكان مقيداً بقيد ثقيل ، فقال له المنصور : بلغني أن لك قصة عجيبة مع ملك النوبة فما هي ؟ فقال : ياأمير المؤمنين والذي أكرمك بالخلافة ما أقدر على النفس من ثقل الحديد ، ولقد صدأ قيدي من رشاش البول وأصب عليه الماء فى أوقات الصلاة ، ثم قص عليه القصة وأعاده الى السجن ،

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ٨٤ — ٨٥ وابن عبد ربه ج ٣ ص ١٩٨ — ١٩٩ .
(٢) الشذرات ج ١ ص ١٨٤ .

واودع فيه الى ايام الرشيد فهلك (١) .

ولما دخل عبدالله بن علي دمشق أمر بنبش قبور بني امية ، فنبش قبر معاوية ابن ابي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الرماد ، ونبش قبرعبد الملك بن مروان فوجدوا فيه جمجمة ، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد ، وأخرج جسد هشام بن عبد الملك فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه فى الهواء (٢) .

وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بني امية وأمر بهم فجروا بأرجلهم والقوا فى الطريق فأكلتهم الكلاب ، واختفى كثير منهم كعمر بن معاوية بن عمر بن سفيان بن عتبة فضاقت عليه الأرض ، والتجأ الى سليمان بن علي متخفياً ووقف على رأسه ، فقال : لفظتني البلاد اليك ، ودلني فضلك عليك . فأما قتلتني فاسترحت وأما رددتني سالماً فأمنت . فقال : ومن أنت ؟ فعرفه نفسه . فقال : مرحباً بك ما حاجتك ؟ فقال : ان الحرم اللواتي انت أولى الناس بهن واقربهم اليهن قد خفن لخوفنا ، ومن أخاف خيف عليه ، فقال : حقن الله دمك ووفر مالك ، وكتب بذلك الى السفاح فأمنه (٣) .

وطويت صفحة الدولة الاموية بقتل مروان الجعدي وهو مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم . بويع له بالخلافة سنة ١٢٦ وقتل يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ١٣٢ .

---

(١) انظر قصته فى الشذرات ج ١ : ١٨٦ .

(٢) الكامل ج ٥ : ٢٠٥ .

(٣) الكامل ج ٥ : ٢٠٦ .

— ٤ —

انتهت الدولة الاموية وانهار بناؤها الشامخ بتلك الثورة المشتركة من جميع العناصر ، لسوء تصرف العمال وجور الولاة وخرق الامويين وسوء سيرتهم ، مما بعثت الشحناء في قلوب اكثر الناس بما يطول شرحه ، ولم يكن السبب في انهيار الدولة هو حقد الموالي على الامويين وبغضهم للعرب والكيد بهم ، أو الى بعث المجد الساساني البائد ، وإن النزاع بين الدولتين إنما هو نزاع بين الفرس والعرب ، وان الموالي حاولوا في تأييدهم الدعوة الهاشمية استرداد مجدهم القديم ، وأن يكونوا اصحاب الكلمة العليا والسلطان في الدولة الجديدة ، الى امثال ذلك من أقوال واهية ومزاعم مردودة (١) . فان اكثر زعماء الثورة من العرب كسليمان بن كثير الخزاعي وقحطبة بن شبيب الطائي وابو داود الشيباني وغيرهم من رؤساء قبائل العرب في خراسان وهم من المقاتلة أيام الفتوح الاولى من النزارية واليمانية ، وكان رجال نشر الدعوة من العرب ايضاً كنصر بن صبيح التميمي وعبد الرحمن بن سلم والجهم بن عطية ، وكان النقباء جلهم من العرب والمنتسبين الى أشهر القبائل فمنهم خمسة من خزاعة وثلاثة من تميم وبعضهم من طي وربيعة وغيرها من القبائل المشهورة في خراسان (٢) .

وليس من الصحيح أن يسند انهيار تلك الدولة العظيمة الى الموالي فحسب لحقدهم على الامويين وما نالهم في عصرهم من الاهانة وابعادهم عن الوظائف ، فقد رأينا الموالي يشغلون أهم وظائف الدولة كرئاسة الديوان ، وجباية الخراج

---

(١) انظر مؤرخ العراق ابن الفوطي لمعالي العلامة الشبيبي .

(٢) الطبري ج ٥ : ٣١٧ .

وأمانة السر ، وقيادة الجيوش وامارة بعض البلدان ، واليك انموذجاً من ذلك :

سرجون بن منصور مولى معاوية كان يتولى رئاسة ديوان الرسائل والخراج لمعاوية وابنه يزيد ولمعاوية بن يزيد ولمروان بن الحكم .

عبد الرحمن بن دراج تولى الرسائل لمعاوية ، وكان اخوه على خراج العراق فى أيامه .

مرداس مولى زياد بن أبيه كان على رئاسة ديوان الرسائل لزياد ، وكان على الخراج في العراق مولاه زاذا نفروخ .

ابو الزعيزعة مولى عبد الملك كان يتولى ديوان الرسائل في عهده وكان أمين سره عمر بن الحارث مولى بني عامر .

جناح مولى عبد الملك : يترأس ديوان الخاتم .

ابوالعلاء يزيد بن ابي مسلم مولى ثقيف : يتقلد للحجاج رسائله ويقتل الناس بأمره ، وولي خراج العراق بعد موت الحجاج .

سعيد الصابي : على ديوان الخاتم للوليد بن عبد الملك ، وكاتبه شعيب العماني مولاه .

الليث بن ابي فروة : مولى ام الحكم كان يكتب لعمر بن عبد العزيز ، وجعل خراج العراق بيد عبدالله بن ذكوان مولى رملة بنت شيبة .

محمد بن يزيد مولى الأنصار : كان والياً على مصر من قبل عمر بن عبد العزيز ، وبعد وفاة عمر عزله يزيد بن عبد الملك وولى مكانه يزيد بن مسلم مولى ثقيف .

سالم مولى سعيد بن عبد الملك كان على ديوان الرسائل للوليد بن يزيد .

عبد الحميد بن يحيي مولى العلاء : كان يتولى رئاسة ديوان الرسائل لمروان

الحمار ، وكذلك عثمان بن قيس مولى خالد القسري .

نيزك بن صالح مولى عمر بن عبد العزيز : كان على إمارة الشاش .

اسامة مولى معاوية على إمارة مصر .

طارق بن عمر مولى عثمان بن عفان ولي المدينة وكان من ولاة الجور .

وكان الكثير منهم يتولى السلطة التشرعية كعطاء بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين المتوفى سنة ١٠٢ .

وعلى قضاء مصر سمنان مولى عبدالله بن عمر بن العاص المتوفى سنة ١٢٧ .

وكان مفتي مصر وشيخها ابو رجاء بن حبيب المتوفى سنة ١٢٨ وغيرهم .

وكان الامويون يكرمون علماء الموالي ويشيدون بذكرهم . فقد نادى منادي الدولة أن لا يفتي إلا عطاء بن رباح ، وأرسلوا نافع الديلمي مولى ابن عمر المتوفى سنة ١١٧ الى مصر يعلّم الناس السنن .

وكانت الفتيا بدمشق لسليمان بن ابي موسى المتوفى سنة ١١٧ مولى الامويين ولزيد بن أسلم العدوي — المتوفى سنة ١٣٦ — حلقة في المسجد النبوي .

ويطول بنا الحديث ويتسع البحث إن أردنا الاستقصاء لذكر من أشغل وظائف الدولة الهامة من الموالي من ولاة وقواد وقضاة وامناء سر وامراء خراج وجباة أموال . ولا ننكر أثر الموالي في تلك الحركة وقيامهم بتلك الثورة وكان ابو مسلم الخراساني هو قائد الحملة ، وقتل مئات الآلاف من النفوس في سبيل تركيز الدولة العباسية ، ولكننا نقول إن العوامل متعددة والأسباب كثيرة كما مرت الاشارة اليها .

— ٥ —

لم تعبأ الدولة الاموية بتلك المعارضات التي قام بها رجال الامة ، ولم تصغ لتلك الأصوات المنبعثة من أفواه المتظلمين من ثقل الخراج وسوء معاملة العمال والدهاقين ، وهم بين ظلمات السجن وتحت ثقل الحديد ، لأنهم كانوا يعتمدون على بطشهم ونفوذهم واستعمال عمال عرفوا بالقسوة وعدم المبالاة . قال عمر بن عبد العزيز — لما ولي الوليد بن عبد الملك — الوليد فى الشام ، والحجاج بالعراق وعثمان بن حيان بالحجاز ، ومحمد بن يوسف باليمن امتلأت الأرض والله جوراً .

ولم يعتمد الامويون على الامور الدينية فى تركيز دولتهم . نعم حاول انصارهم أن يبرروا أعمالهم المنكرة وما كانوا يرتكبونه من الكبائر المخالفة للاسلام بوضع أحاديث على رسول الله (ص) تبيح له ارتكاب المنكر ، وتجعلهم فى حصانة عن المؤاخذة فلا عقاب ولا حساب تمويهاً على الناس ، وجرأة على الله وعلى رسوله ، وكانوا يظهرون ذلك أمام الملأ .

يحدثنا ابن الأثير أن معاوية بن ابي سفيان قال لولده يزيد : اطلب مني فلست بسائل شيئاً إلا أجبتك اليه ، فقال : حاجتي أن تعتقني من النار لأن من ولي أمر امة محمد ثلاثة أيام اعتقه الله من النار ، فتعقد لي البيعة بعدك (١) . وساروا على هذا يفهمون الناس ويركزون العقيدة ويتحلون بالقداسة ، مع عظيم تلك المنكرات حتى تسربت الى عمالهم وقواد الجيوش .

هذا مسلم بن عقبة لما فعل بالمدينة ما فعل وانصرف ثم نزل به الموت فى الطريق فقال : إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده

(١) الكامل ج ٤ ص ٦٢ .

ورسوله أحب إليّ من قتل اهل المدينة ، ولا أرجى عندي منه في الآخرة (١) .

وشهد عند الوليد أربعون شيخاً منهم أن الخليفة لا يُعاقب ، وأن من ولي أمر الامة ثلاثة ايام اعتق من النار .

وهم يحاولون بذلك رد تلك الأحاديث الواردة عن الرسول الأعظم فى التشديد على الولاة ، والزامهم بالعدل وهم لا يستطيعون ذلك ويخشون الانكار . فقد صح عنه صلى الله عليه وآله أنه قال لجابر بن عبدالله : أعاذك الله من إمارة السفهاء ، قال : وما امارة السفهاء ؟ قال : امراء يكونون بعدي لا يقتدون بهديي ، ولا يستنون بسنتي ، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فاولئك ليسوا مني ولست منهم ، ولا يردوا حوضي ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم ، وسيردوا علي حوضي (٢) .

وقال عليه السلام : إن هلاك امتي أو فساد امتي رؤوس امراء أغيلمة سفهاء من قريش (٣) .

وعن كعب بن عجرد مرفوعاً : سيكون امراء يكذبون ويظلمون ، فمن صدقهم بكذبهم ومن أعانهم على ظلمهم فليس مني ولا أنا منه ، ولا يرد علي الحوض يوم القيامة ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه ، ويرد علي الحوض يوم القيامة (٤) .

وقال (ص) : « سيكون عليكم امراء تشغلهم أشياء عن الصلاة حتى يؤخروها فصلّوها لوقتها » (٥) .

(١) الكامل ج ٤ ص ٦١ .
(٢) مسند احمد ج ٣ ص ٣٢١ .
(٣) مسند احمد ج ٢ ص ٢٥٥ .
(٤) تأريخ الخطيب ص ٣٦٣ .
(٥) مسند احمد ج ٥ ص ٣١٥ .

وعن عوف بن مالك عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : إن شئتم أنبأتكم عن الامارة وما هي : أولها ملامة وثانيها ندامة وثالثها عذاب يوم القيامة ، إلا من عدل وكيف يعدل مع قريبه (١) .

وعن بشر بن عاصم عنه (ص) : من ولي شيئاً من أمر المسلمين اتي به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم ، فان كان محسناً نجا ، وإن كان مسيئاً انخرق به الجسر فهوى به سبعين خريفاً (٢) .

وعن ابي ذر مثله ، وعن عمر بن الخطاب عن النبي (ص) أنه قال : أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة امام عادل رفيق ، وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة امام جائر خرق(*) . أخرجه الترمذي والطبراني فى الأوسط .

وعن أنس عنه صلى الله عليه وآله يجاء بالامام الجائر يوم القيامة فتخاصمه الرعية فيفلحوا عليه فيقال له : سد ركناً من أركان جهنم ، رواه البزار .

وعن ابي هريرة عن النبي (ص) : ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل . رواه احمد باسناد جيد رجاله رجال الصحيح ، ومثله عن سعد بن عبادة . وعن ابي هريرة بزيادة (وإن كان مسيئاً زيد غلاً الى غله) رواه البزار والطبراني .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ص) : من ولي من امور المسلمين شيئاً فغشهم فهو فى النار .

وقد وضعوا في فضائل معاوية من الأكاذيب التي يتبرأ منها الاسلام

(١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٣٢ .

(٢) رواه الطبراني .

(*) الخرق بالضم : الجهل والحمق ومنه الحديث الرفق يمن والخرق شؤم .

فانكر المسلمون عليها ، ولـكن أنى يجدي ذلك الانكار فى وقت ألجمت فيـه الأفواه ، وكبتت الشعور ، وحكم على اهل الصـدق منهم بالتنكيل الشديد ، والطرد والتبعيد ، وقد حقق الحفاظ تلك الأكاذيب وأظهروا حقائقها ، ونصوا على وضعها ، واليك بعضاً منها :

أخرج ابو نعيم فى الحلية بسند عن ابن عمر قال : قال رسول الله (ص) : يطلع عليكم رجل من اهل الجنة فطلع معاوية ، ثم قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية ، ثم قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية (١) .

وعن هشام بن عروة عن عائشة في حديث طويل فيه أن النبي دعا لمعاوية فقال : اللهم اهده بالهدى وجنبه الردى ، واغفر له في الآخرة والأولى ، الى غير ذلك من الأكاذيب والموضوعات التي يتحرج القلم عن ذكرها ، وقد وضع جزء من تلك الأكاذيب فى فضل معاوية بعض المشهورين بالـكذب ، وهو محمد بن عبد الواحد وأمره مشهور فى ذلك (٢) .

وألف الهيثمي كتاباً في فضل معاوية وما أبعده عن الفضائل ، ولا يسع الوقت لمناقشته (٣) بعد أن كفانا ذلك حفاظ الحديث ورجال العلم (٤) ، ولم يكتفوا بالأكاذيب على رسول الله بوضع الأحاديث حتى جرتهم أطماعهم وساقتهم جرأتهم على الله وعلى رسوله بوضع الأحاديث في مدح عاصمة ملـكهم ومقر دولتهم

---

(١) الحلية ج ١٠ ص ٣٩٣ .

(٢) انظر الخطيب ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٣) انظر الغدير ج ١٠ و ١١ فهناك تعرف معاوية فقد أبرز صورته البجانة الأمينى فى اطار الواقع وهناك تعرف تلك الأحاديث وقيمتها فقد ناقشها من الطرق العلمية بما لا مجال الى انكاره .

(٤) انظر لسان الميزان ، والفوائد المجموعة .

كما يروى عن ابي هريرة مرفوعاً : أربع مدائن من مدن الجنة مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق ، وكما ورد عن ابن عمر أن الشام هي الأرض المقدسة ولا يدخلها الشيطان . وعنه أيضاً مرفوعاً : أهل مقبرة عسقلان — بلد بساحل الشام — يزفون الى الجنة كما تزف العروس ، وعن نافع مولى ابن عمر عنه أن رسول الله (ص) صلى على مقبرة فقيل يا رسول الله أي مقبرة هذه ؟ فقال : هي مقبرة عسقلان يفتحها ناس من امتي يبعث الله منها سبعين الف شهيد ، يشفع الرجل في مثل ربيعة ومضر . وفي حديث آخر : عسقلان أحد العروسين يبعث الله منها سبعين الفاً لاحساب عليهم ويبعث منها خمسون الفاً شهداء وفودا (١).

وقد نص الحفاظ على كذب هذه الأحاديث بل المفتريات ، ولكن الامويون حاولوا بهذا وأمثاله تعزيز ملكهم وتعظيم دولتهم ، واعطائها لوناً من القدسية والعظمة ويأبى الحق ذلك ، وقد حاولوا أن يجعلوا مدينتهم أفضل من مدينة الرسول ، حتى فضلوا الشام عليها .

وهذا من عوامل الدعاية السياسية في بسط نفوذ الدولة وقيام سلطانها في الأقطار وانبعاث هيبتها في النفوس ، وقد اتخذوا دعاة يبثون في الناس تلك الأحاديث الكاذبة ، فالدولة الاموية مدينة لهم في مناصرتهم إياها ، وقد قربتهم ورفعت من قدرهم وبذلك ابتعدوا عن الحق ، واشتروا الضلالة بالهدى . ولا يسعنا ذكرهم وتعداد ما وضعوه فله محل آخر يأتي إن شاء الله . وخلاصة القول إن الدولة الاموية كانت حجراً ثقيلا على قلب كل مسلم وحلماً رهيباً في مخيلة كل انسان ، لذلك نجحت الخطط في ازالتها بسرعة وتم انتقال الدولة من الامويين الى الهاشميين .

---

(١) اللآلي المصنوعة ج ١ ص ٢٣٨ و٢٤٢ .

— ٦ —

توقع الناس في هذا الدور عهداً سعيداً وانتقالاً مباركا ، ونتيجة صالحة بعد خوض غمرات الحروب ومشاهدة المحن والتضحية في سبيل تحقيق تلك الامنية وهي اقامة دولة عادلة تحكم بكتاب الله وسنة نبيه ، التي لم يظفر بها المسلمون في العهد الاموي إلا ببعضها في أيام عمر بن عبد العزيز (فهو أعور بين عميان) .

فتطلعوا لجر ذلك العهد الميمون ، وشخصوا بأبصارهم الى معرفة المتربع على دست الحكم ، وهو (الرضا من آل محمد) وأصبح المجتمع يزخر بآمال عظيمة ، لأنهم أعدل الناس في الحكم وأعلمهم بالدين ، فانكشف الأمر بظهور بني العباس واختصاصهم بمنصب الخلافة ، بعد أن خابت آمال بعض زعماء الثورة وقواد الجيش باسناد الحكم لآل علي وفي طليعتهم جعفر بن محمد وقد رفض ذلك الطلب كما سيأتي بيانه .

والدعوة لم تكن للعباسيين خاصة ، ولم تكن دولتهم هي المتوقعة ، إنها الى الرضا من آل محمد فحسب ، وهم دعاة هذه النهضة انتصاراً للعلويين وطلباً بدمائهم الزكية ، وبذلك استطاعوا أن ينظّموا حزبهم ويجمعوا انصارهم ، وهم ينضمون الى جانب العلويين في جميع الدور الاموي ، ويخفون ما أبدته الأيام وأظهره الزمن عندما حان الوقت لاقتطاف ثمار تلك الاتعاب ، إذاً لا بد ان يستنكر الناس لهذا الأمر ، ويؤاخذونهم بهذا الاختصاص . وشعر العباسيون بتلك المؤاخذة ، كما شعروا بعدم ثقة اكثر العرب بدولتهم فلايستطيعون أن يشيدوا كيان دولتهم على اكتافهم ، فرأوا من الضرورة تقوية الجيش والاعتماد على القوة بالاكثرية الساحقة ، فاختصوا بالخراسانيين من بين عناصر الدولة وأطلقوا عليهم

اسم الشيعة والأنصار ، لأنهم عرفوا نفسياتهم من قبل ، فجعلوا بلادهم مهداً للدعوة ومحلاً لبذر تلك الفكرة كما جاء في وصية ابراهيم الامام ، فأظهروا العطف على ابناء عمهم فى دورهم الجديد واهتمامهم بتتبع قتلة الحسين ، اظهاراً لنصرة آل محمد واقناعاً للرأي العام .

لما دخلن نساء مروان الحمار على صالح بن علي تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت : يا عم أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ما تحب ، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من عفوك ما وسعك من جورنا ، قال : والله لاأستبقي منكن أحداً . . . الى أن قال لها : ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين وأهل بيته ؟ ألم يخرج اليه بحرم رسول الله سبايا فوقفهن موقف السبي ؟ ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه ؟ فما الذي يحملني على الاستبقاء عليكن ؟ قالت : فليسعنا عفوك (١) .

ولما قتل مروان وجيء برأسه الى السفاح فلما رآه سجد ورفع رأسه فقال : الحمد لله الذي أظهرني عليك وأظفرني بك ، ولم يبق ثاري قبلك وقبل رهطك اعداء الدين ، وتمثل بقول الشاعر :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني (٢)

حتى عرف الناس منهم ذلك وأنشد الشعراء في تلك الغاية التي كانت تقوم بها الدولة في دورها الجديد عندما قتل السفاح بقية الامويين ، ثم أمر بالقائهم بالصحراء فى الأنبار فجروا بأرجلهم وعليهم سراويلات الوشي فوقف عليهم سديف وأنشد :

---

(١) الكامل ج ٥ ص ٢٠٤ .
(٢) » ج ٥ ص ٢٠٣ .

طمعت امية أن سيرضى هاشم عنها ويذهب زيدها وحسينها
كلا ورب محمد (ص) وإلهه حتى يبيد كفورها وخؤونها (١)

الى غير ذلك من الامور التي اتخـــذوها في تهدئة الرأي العام ، وقام السفاح بالأمر وأظهر في خطبته الافتتاحية ما تميل اليه النفوس من المواعيد من اعادة العدل والمساواة والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، بقوله : أيها الناس لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله وذمة العباس علينا أن نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله «ص» (٢) ثم ذكر اعمال بني امية وما ارتكبوه في الامة .

فأخذ الناس بنود هذه الخطبة بعين الاعتبار وتوقعوا تحقيق تلك الوعود ، ولكنها كانت وهماً من الأوهام وأقوال حملتها الريح .

افتتحت صحيفة الدولة العباسية مصبوغة بالدم القاني ، وورثوا سلطان الاُمويين بعد ذلك الانقلاب ، وكانت الأسباب التي أدت الى فوزهم بالخلافة بعضها امور غير متوقعة وبعضها ساعدهم الحظ فيها ، فكان نصيبهم النجاح . وأهم تلك الأسباب التي اعتمدوا عليها هي الانتصار لآل محمد من بني امية ، لأنهم اضطهدوا آل رسول الله فكانت هذه المشكلة من أعظم المشاكل التي تقف أمامهم في سبيل توطيد ملكهم وامتداد سلطانهم ، لأنهم يعرفون العلويين ونفسياتهم ومنزلتهم في المجتمع الاسلامي ، لذلك كان أهم شيء عندهم هو أمر العلويين والوقوف أمام نفوذهم ، فاتخذوا تلك الطرق في اقناع الناس وأظهروا لهم الحب المصطنع والعطف الذي ينطوي من ورائه غيظ يحرق القلوب ، فكانت

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٧ .
(٢) الكامل ج ٥ ص ١٩٧ .

أيام السفاح وشطراً من خلافة المنصور على تلك السياسة الهادئة ريثما يتم لهم النفوذ وتحكم أسس الدولة .

ولما آن وقت اظهار ما كانوا يكتمونه نفذوا تلك الخطط الانتقامية من آل علي ، فلم يدخر المنصور — بعد أن عظمت شوكته وامتد سلطانه — وسعاً لسحق العلويين وحزبهم ، لأنه يرى أن فى بقائهم تحطيم نفوذه وتمزيق ملكه الذي ناله باسمهم بعد املاق وبؤس واضطهاد وعذاب ، فهو يتوقع فى كل آونة قيام ثورة دموية يترأسها علوي يحوط به عدد كثير من الامة ، فتوجه بكل ما فى وسعه من جد وحزم وأذلهم شر انواع العذاب ، وصب عليهم كؤوس غضبه وعاملهم بقسوة وشدة ، حتى قال احد مخضرمي الدولتين شعراً :

يا ليت جور بني مروان دام لنا   وليت عدل بني العباس فى النار

وسنشير الى تلك المعاملة التي سار عليها العباسيون مع ابناء عمهم فى بحثنا لعصر الامام مالك بن أنس .

موقف الامام الصادق
وسط ذلك المعترك

— ١ —

قضى الامام الصادق عليه السلام خمسين عاماً من عمره في العهد الاموي أي من سنة ٨٣ وهي سنة ولادته الى سنة ١٣٣ وهي سنة زوال الدولة الاموية ، منها ٣١ سنة كان فى أيام عظمتها وقوة سلطانها وامتداد نفوذها ، ثم دب الضعف فى جسمها من سنة ١١٤ وهي السنة التي تفرّد فيها للزعامة ، والدولة في طريقها الى الشيخوخة والفناء ، وكان يعتريها الضعف وتُهدد بالزوال الى سنة ١٣٣ وهو ابتداء الدور العباسي . فكانت مدرسته تواصل نشاطها العلمي فى الفترة السعيدة ، وتمهد الطريق امامها الى التقدم والشهرة ، وسارت في طريق كفاحها المتواصل بقية العهد الاموي وطرفاً من العهد العباسي ، لأن الدولة الجديدة في طفولتها ولم تتركز دعائمها بعد الى سنة ١٤٣ عند قوة سلطان المنصور واتساع نفوذه . فأظهر الغضب على العلويين وحاول الانتقام منهم ، فضيق دائرتها ووقف في طريق تقدمها بعد أن اصبحت جامعة اسلامية كبرى يقصدها المسلمون من اطراف البلاد النائية ، واتخذ الطرق المختلفة في معارضتها منذ ولي الخلافة سنة ١٣٦ ، ولم تنجح محاولاته إلا فى ذلك الوقت .

استغل الامام الصادق تلك الفترة فتوجه باخلاص لتوجيه الامة وقلع

جـذور الأخلاق الشاذة والغرائز الملتوية ، ليوجه الانسانية بتعديل النزعات توجيهاً صحيحاً صالحاً لقبول التعاليم الاسلامية ، وأفاض على نفوس المسلمين تعاليمه القيّمة . لأنه يرى أن اصلاح الطبائع البشرية اصلاح العالم ، وكان يعرف عاقبة تلك الفتن التي ثارت براكين شرها فى ربوع الاسلام .

كما انه ابتعد عن السياسة وويلاتها ولم تحرّك عاطفته نحو تولي الأمر تلك الهتافات التي يعج بها الثوار من الدعوة الى آل محمد ، إذ لا يعزب عن باله عدم التجانس فى زعماء الثورة واختلاف الدوافع فى إيقاد نار الحرب . فاتجه الى الدعوة الى الله وتلقى تلك المصائب التي شاهدها بالصبر طمعاً بما وعد الله الصابرين .

— ٢ —

لقد شاهد الامام الصادق حكم الامويين فى أقسى مظاهره وأعنف صوره فكان يطرق سمعه بين آونة واخرى قتل جماعة ممن عرفوا بالولاء لهم ومطاردة آخرين ، وتهبط عليه أنباء الفجيعة بزعماء اهل بيته ، قد أراق الامويون دماءهم من غير أن تراعى فيهم حرمة لرسول الله ، ولم يرتكبوا جرماً ، إلا انهم دعاة الى الحق وأعداء للباطل ، فقد قتل زيد بن علي بالكوفة سنة ١٢٢ وصلب جسده واجساد خواصه ، ثم احرق و نسف في اليم ، ثم أردفوه بولده يحيي بن زيد ، وقد شاهد نصب عينه ما كابده جده زين العابدين من جور الامويين حتى قضى بالسم على ايديهم ، وكذلك ابوه الباقر . وشاهد ولاة المدينة يجمعون العلويين قريباً من المنبر ليسمعوهم شتم علي وتنقيصه ، وكانت تؤلمه أنباء جور الولاة وعسفهم بالحكم ، وما يوقعونه في الامة الاسلامية . وإذا رجع الى ذلك الماضي المحزن وما يبلغه من حديث تلك الحوادث المؤلمة كواقعة الطف التي هي نصب عينيه كأنه قد شاهدها ، وكان يعقد المجالس فينشد الشعراء رثاء جده الحسين فيها فيبكي ، فهي تمثل له في كل آونة .

وحديث الحرة وحديثها شجون ، فلا تزال آثار تلك الفاجعة باقية وإن طال العهد ، وشاهد اولئك الحكام الذين يحكمون باسم الخلافة الاسلامية وحكمها ملك عضوض ، فلا عدل في حكم ، ولا مساواة في حق ، ولا نظام يضمن للناس حرياتهم ، والامور الى الفوضى أقرب منها الى النظام .

عاش الامام وسط ذلك الجو المضطرب بالفوضى والعبث والفساد ،

والتلاعب بمقدرات الامة ، وهو يحس بآلام الناس اكثر من غيره ، وينظر للمصلحة العامة قبل مصلحته ، فماذا يصنع وهو قليل الناصر والمغلوب على أمره ؟

فآثر العزلة واغتنم فرصة انشغال الدولة بأنفسهم عن مناوأته ، فاتجه الى اداء رسالته ليعالج اصلاح الوضع بالموعظة الحسنة ، ودعا الناس من طريق الهداية والارشاد الى تعاليم الاسلام وتطبيق تلك النظم التي أهملها حكام عصره وجعلوها وراء ظهورهم وحكموا بلغة السيف ، وساسوا الامة بالارهاب والقسوة ، ولم تحرك مشاعره كثرة الدعاة له بالثورة على الدولة ، لأنه عرف الامور فكان يرفض تلك الطلبات الموجهة اليه لعلمه بما وراء الاكمة من الخطر . وقد كان الثائرون يطلبون وده ، ويحاولون انضمامه اليهم وتأييدهم من قبله لأن الزمن قد حان ، ومُهد الطريق وتعبد لاقامة حكومة عادلة ، وهو أحد المرشحين لها كما تنطق بذلك رسل الدعاة التي تترى اليه وكتبهم التي تهبط عليه ، فلم يرشح نفسه أو يتنازل لتلك الطلبات لعلمه بالنتائج وما يؤل اليه الأمر بعد ذلك .

فقد عرف اغراض بني العباس ونواياهم فى تركيز دعائم دعوتهم في مهد التشيع لهم فى خراسان وغيرها ، فهو يرى أن الأمر صائر لغير آل محمد وإن سرت الدعوة ضد الامويين باسمهم ، ثم نظر أن الاشتغال بالسياسة الايجابية والمغامرة فيها عبث ، وان التعرض للدولة لا يجدي نفعاً ، بل بالعكس يؤدي الى اتساع شقة الخلاف والفرقة ، وهو يعرف نوايا العباسيين وما يطلبونه من وراء انضمامهم الى جانب العلويين .

ولما سبر ابو سلمة الخلال احوال بني العباس وعرف نواياهم عزم على العدول عنهم الى بني علي ، فكاتب ثلاثة من أعيانهم : جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام وعبدالله المحض وعمرو الأشرف ، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم وقال

له : اقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق ، فان أجاب فابطل الكتابين الآخرين وإن لم يجب فالقِ عبدالله المحض ، فان أجاب فابطل كتاب عمرو ، وإن لم يجب فالق عمرو . فذهب الرسول الى جعفر بن محمد أولاً ، ودفع اليه كتاب ابي سلمة فقال : ما لي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري ، فقال له الرسول : اقرأ الكتاب . فقال الصادق لخادمه : أدنِ السراج ، فأدناه ، فوضع الكتاب على النار حتى احترق ، فقال الرسول : ألا تجيبه ؟ قال : قد رأيت الجواب ، ثم مضى الرسول الى عبدالله المحض ، ودفع اليه الكتاب ، فقرأه وقبله ، وركب في الحال الى الصادق عليه السلام وقال : هذا كتاب ابي سلمة يدعوني فيه الى الخلافة ، قد وصل إلي على يد بعض شيعتنا من اهل خراسان ، فقال الصادق : ومتى صار اهل خراسان شيعتك ؟ أ أنت وجهت اليه أبا مسلم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبدالله : كان هذا الكلام منك لشيء ، فقال الصادق : قد علم الله اني اوجب النصح على نفسي لكل مسلم ، فكيف ادخره عنك ! فلا تمنّ نفسك ، فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء (١) — يعني بني العباس — .

ودخل عليه سدير الصيرفي فقال : يا ابا عبدالله ما يسعك القعود . فقال : ولِم يا سدير ؟ قال : لكثرة مواليك وشيعتك وانصارك . فقال : يا سدير وكم عسى أن يكونوا ؟ قال : مائة الف . قال : مائة الف ؟ قال : نعم ، ومائتي الف . فكان الجواب من الامام بما حاصله عدم الركون لهذه الكثرة لقلة المخلصين منهم وعلمه بالعواقب (٢) .

---

(١) الآداب السلطانية ص ١١١ لإبن الطقطقي .

(٢) اصول الكافي ج ٢ ص ٢٤٣ .

ولما بايع الهاشميون محمد بن عبدالله بن الحسن قال لهم الامام الصادق : لا تفعلوا فان الامر لم يأت بعد ، وضرب بيده على ظهر ابي العباس السفاح ، ثم ضرب بيده على كتف عبدالله بن الحسن وقال : والله انها ما هي اليك — أي الخلافة — ولا الى ابنيك ، ولكنها لهم — أي لبني العباس — وان ولديك لمقتولان . ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال : أرأيت صاحب الرداء الأصفر ؟ « يعني المنصور » قال : نعم ، قال : فانا والله نجده يقتله . فقال عبدالعزيز : أيقتل محمداً ؟ قال : نعم ، قال : فقلت في نفسي حسده ورب الكعبة . قال عبدالعزيز : فوالله ما خرجت من الدنيا حتى رأيت المنصور قتلهما (١) .

ولا زال الامام الصادق يخبر بصيرورة الأمر لغير آل محمد ، ولا زال يقول إنه صائر لبني العباس .

روى علي بن عمرو عن ابن داحة أن جعفر بن محمد قال لعبدالله بن الحسن — وكان السفاح والمنصور معهما — : إن هذا الأمر والله ليس اليك ولا الى ابنيك وإنما هو لهذا — يعني السفاح — ثم لهذا — يعني المنصور — ثم لولده من بعده لايزال فيهم حتى يؤمروا الصبيان ويشاوروا النساء ، وإن هذا — يعني المنصور — يقتله على أحجار الزيت (٢) ثم يقتل أخاه بعده ، ثم قام مغضباً يجر رداءه فتبعه المنصور ، فقال : أتدري ما قلت يا أبا عبدالله ؟ قال : أي والله أدريه وإنه لكائن ، وكثيراً ما كان يخبر بذلك وقد وقع الأمر فكان الامام

---

(١) انظر مقاتل الطالبيين ص ١١٧ ، والطبري ج ٩ ص ٢٣٣ ط ١ .

(٢) أحجار الزيت موضع بالمدينة المشرفة وهو خارجها ، استشهد به محمد بن عبدالله بن الحسن سنة ١٤٥ وقتل أخوه ابراهيم بالعراق لخمس ليال بقين من ذي القعدة منها — وكان عمره ٤٨ سنة .

الصادق مع ابتعاده عن التدخل السياسي قد ناله من المنصور ما يكره ، وعامله معاملة سيئة .

ولما قتل محمد قبض عيسى بن موسى — وهو قائد الجيش لقتل محمد — أموال بني الحسن كلها وأموال الامام جعفر الصادق ، فلقي المنصور وقال له : رد علي قطعتي من ابي زياد ، فأجابه المنصور بالرد . وبقيت اموال الامام الصادق بيد المنصور الى أن مات فردها المهدي الى الامام موسى بن جعفر عليه السلام ، ولا زال يثقل على المنصور مقام الامام الصادق وشهرته العلمية ، فكان يتحين الفرص للقضاء عليه حتى نال ما أراده ونفذ خطته التي دبرها فى معارضته .

وخلاصة القول ان الامام الصادق كان على علم من تلك الحوادث . فكانت سياسته هي عدم التدخل فى شؤون تلك المنازعات ، واثر الاعتزال ، وعاش وسط ذلك الجو مغتنما فرصة انشغال خصومه بأنفسهم ومعالجة مشاكلهم ، وكان بايثاره تلك العزلة وعدم معاونته الثائرين دليلٌ على نظره السديد ورأيه الصائب فى استكشاف الحقائق ومعرفة العواقب ، بما يؤل اليه أمر تلك المنازعات ونتائج ذلك التطاحن ، وقد اتضح ذلك بانتقال الدولة من الامويين الى العباسيين بعد تلك الثورات في سبيل طلب العدل ونصرة الحق . فقد كان ذلك الانتقال من الأضعف الى الأقوى ومن الأقل الى الأكثر أو (كالمستجير من الرمضاء بالنار) لذلك اتجه الى دعوة الاصلاح ليمد المجتمع الاسلامي بالصالح ان استقاموا وساروا على الجادة (والله بكل شيء محيط) .

— ٣ —

استقبل الامام الصادق عصره المظلم وأيامه التي مرّت عليه بأخطار هائلة وفجائع مؤلمة ومآسي موجعة ، بقلب مؤمن بالله ملتجئاً اليه سبحانه وتعالى في جميع اموره ، موحداً دعوته اليه لا تأخذه في الحق لومة لائم ، وخاض غمار تلك الأخطار بثبات رأي سديد وحكمة بالغة .

هذا من ناحية الموقف السياسي . أما ما يتصل بالحياة الاجتماعية والعقائد الدينية فكان الأمر أدهى وأمر ، فقد صحبت تلك العاصفة السياسية تيارات فكرية جارفة ، وهزات إلحادية قوية ، وتطور غريب في النزعات والاتجاهات أقلق بال حماة الشريعة والذائدين عن حوضها ، وحدثت عصبيات جاهلية ذميمة وقد نهض الامام الصادق لمقارعة اهل الباطل ، وباحث الفلاسفة والدهريين واهل الـكلام الجدليين ، الذين تصـدوا لافساد معتقدات الناس فأبطل بنور حكمته مقالاتهم الفاسدة وسفسطتهم الفارغة (١) ، فنبههم عن غفلتهم وأيقظهم من رقدتهم وأوضح لهم اعوجاج مذاهبهم والتواء سبلهم ، ودعاهم الى كلمة الحق ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، وناقشهم بالبرهان الساطع ، وقد احتفظ التاريخ بكثير من تلك المناظرات ، كمناظرته في التوحيد مع الزنديق الذي قدم من مصر واسمه عبد الملك ليناظر الامام فناظره حتى آمن قلبه واطمأنت نفسه بعد الزيغ والارتياب ، وطلب من الامام تعليمه وارشاده ، وقال : اجعلني من تلامذتك . فقال الصادق لهشام : خذه اليك فعلمه (٢) .

---

(١) انظر الرسالة الاولى في الإمام الصادق للاستاذ الفكيكي .

(٢) انظر الصادق للمظفر ج ١ ص ٢١٢ تجد المناظرة تفصيلا .

وجاء اليه زنديق آخر وسأله عن اشياء منها أنه قال له : كيف يُعبد الله ولم يُر ؟ فقال ابو عبدالله : رأته القلوب بنور الايمان ، وأثبتته العقول بيقظتها اثبات العيان ، وابصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف ، ثم الرسل وآياتها ، والكتب ومحكماتها ، واقتصرت العلماء على ما رأت من عظمته دون رؤيته الى آخر المناظرة (١) .

وله مناظرات مع عبد الكريم بن ابي العوجاء (٢) واصحابه وغيرهم من الزنادقة ، فكان جوابه الفصل والحكم العدل ، وستأتي الاشارة الى تلك المناظرات في باب احتجاجاته .

وإن من اعظم المشاكل على الامام الصادق وأهمها عنده هي حركة الغلاة الهدامة الذين تطلعت رؤوسهم فى تلك العاصفة الهوجاء الى بث روح التفرقة بين المسلمين ، وترعرعت بنات افكارهم فى ذلك العصر ليقوموا بمهمة الانتصار لمبادئهم وأديانهم التي قضى عليها الاسلام . فقد اغتنموا الفرصة فى بث تلك الآراء الفاسدة فى المجتمع الاسلامي ، فكانوا يبثون الأحاديث الكاذبة ويسندونها الى حملة العلم من آل محمد ليلبسوا مبدأهم الصحيح ثوباً لا يليق به ، ويسندوا اليه ما ليس منه ، فكان المغيرة بن سعيد (٣) يدعي الاتصال بأبي جعفر الباقر ويروي عنه الأحاديث المكذوبة ، فأعلن الامام الصادق كذبه والبراءة منه ، وأعطى لأصحابه قاعدة فى الأحاديث التي تروى عنه فقال : لا تقبلوا علينا حديثاً إلا

---

(١) انظر احتجاج الطبرسي والبحار ج ٤ والكافي في باب احتجاجات الصادق .

(٢) عبد الكريم بن ابي العوجاء هو خال معن بن زائدة قتل على الزندقة سنة ١٦١ ولما اخذ لتضرب عنقه قال : لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث احرم فيها الحلال واحلل الحرام .

(٣) المغيرة بن سعيد مولى بجيلة كذاب قال ابن عدى : لم يكن بالكوفة ألعن من المغيرة بن سعيد كان يكذب على اهل البيت . قتله خالد القسرى سنة ١١٩ مع عدد من اصحابه .

ما وافق القرآن والسنة ، أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة فان المغيرة ابن سعيد لعنه الله دسّ في كتب اصحاب ابي احاديث لم يحدّث بها فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وآله .

وقال عليه السلام : « لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن يهودية كان يختلف اليها . . . الخ » . فكان يعظم على الامام الصادق ظهور تلك الفئة الباغية وروايات الأحاديث الكاذبة عنه للوصول لغاياتهم الدنية التي يحاولون تحصيلها من وراء ذلك ، فكان عليه السلام يهتم أشد الاهتمام بأمر الغلاة ، لأن بعضهم(١) ادعى أن جعفر بن محمد آله — تعالى الله عن قوله — واستحل المحارم ، فعظم ذلك على الامام جعفر بن محمد وحاول أن يقدر عليه فلم يقدر ، فأعلن لعنه والبراءة منه ، وجمع اصحابه واعلمهم بذلك وكتب الى جميع البلدان بكفره ولعنه والبراءة منه (٢) .

فكان الامام الصادق يعلن للناس براءته من الغلاة ويقول لأصحابه : لا تقاعدوهم ولا تواكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ولا توارثوهم ، ولما قتلوا بالكوفة قال عليه السلام : لعن الله أبا الخطاب ولعن الله من قتل معه ولعن الله من دخل قلبه رحمة لهم ، وكان يقول : على ابي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس اجمعين .

وقال لأبي بصير : يا أبا محمد ابرأ ممن يرى اننا ارباب . قلت : انا بريء الى الله منه ، قال : ابرأ ممن يزعم أننا انبياء . قلت : بريء منه الى الله ، وقال عليه السلام : من قال بأننا انبياء فعليه لعنة الله ، ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله

---

(١) هو محمد بن مقلاص السكوني المعروف بأبي الخطاب .

(٢) دعائم الإسلام ص ٦٢ — ٦٣ .

وكثير من هذه الأقوال التي أظهرها ابو عبدالله الصادق للملأ ووقف لمحاربتهم وحث الناس على مقاومتهم ، وكان يقول : ليس لهؤلاء شيء خير من القتل . ولم يكد يعلن على الملأ براءته حتى أحدث ذلك صدعاً في صفوفهم وفرق كلمتهم وعرف الناس نواياهم وما يقصدون في تلك العقائد الفاسدة ، ففرق الله شملهم وأباد جمعهم ولم يبق لهم أثراً في الوجود .

ومهما يكن من أمر فان مشاكل عصر الامام من أهم العصور وقد قام بما يراه الأصلح للامة ولا يسعنا التفصيل لجميع تلك المشاكل وسيأتي بيان مناظرته مع اهل الرأي وسائر الفرق الاسلامية وجميع اهل الأهواء والآراء الفاسدة يدعوهم لكلمة الحق واتباع الصدق ، فكان لكلامه أثر في تفنيد آرائهم وإبطال أقوالهم .

ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلي الكبير (١) .

---

(١) سورة الحج آية ٦٢ .

مدرسته وتعاليمه

كانت المدينة المنورة مأهولة بالصحابة والتابعين زاخرة برجال الامة ، تنتظم فيها حلقات الفقه وتكثر عليها وفود اطراف البلاد من مختلف الأقطار ، ويتخرج منها حفاظ الحديث والفقهاء ، لأنها دار هجرة الرسول وموطن الشرع ومبعث النور وعاصمة الحكم الاسلامي الأول ، وهي مهد السنن والمرجع للامة ومعدن العلم والفقه ، ولها المكانة السامية ، وفيها اهل بيت النبي وعترته « الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » فهم حملة العلم « واعلام الأنام وحكام الاسلام » (١) « قوم بنور الخلافة يشرقون وبلسان النبوة ينطقون » (٢) .

وفى هـــذا البلد الطيب والبيت الطاهر ولد ابو عبدالله ونشأ تلك النشأة الصالحة ، وأسس مدرسته فى دار الهجرة ومهبط الوحي ومعدن الرسالة .

كانت مدرسة الامام الصادق عليه السلام ثابتة المبدأ متصلة الكفاح وجد الناس فيها ثروة علمية ، وكانوا يحيون فيها حياة فكرية بعيدة عن المنازعات السياسية والعصبيات الدينية .

وكان غرضه المباشر توجيه الناس الى أسمى درجة من التفكير ، وإفهام الامة نظم الاسلام على الوجه الصحيح ، وتطبيقه بين افراد الامة من طريق العلم وحرية التفكير ، ليعالج مشاكل ذلك المجتمع بالموعظة الحسنة ، ويدعو الناس من

(١) الكلمة لسعيد بن المسيب وهو أحد التابعين .
(٢) القول لمسلم بن هلال العبدى .

طريق الهداية والارشاد الى التمسك بتعاليم الدين ، وتطبيق تلك النظم التي أهملها الحكام وجعلوها وراء ظهورهم .

وازدهرت المدينة المنورة في عصر الامام وزخرت بطلاب العلم ووفود الأقطار الاسلامية ، وانتظمت فيها حلقات الدرس ، وكان بيته كجامعة اسلامية يزدحم فيه رجال العلم وحملة الحديث من مختلف الطبقات ينتهلون موارد علمه ويقتبسون من ضياء معرفته ، وقد اغتنموا تلك الفرصة فازدحموا عليه يسألونه ايضاح ما اشكل عليهم « فحمل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر ذكره في جميع البلدان » (١) .

وازدحم على بابه العلماء واقتبس من مشكاة انواره الأصفياء ، وكان متجهاً الى العمل بما يرضي الله لا يفتر عن ذكره ولا ينفك عن طاعته .

يحدثنا مالك بن أنس ، وهو تلميذ الامام تردد عليه زماناً طويلاً قبل أن تفصل بينهما عوامل الدولة وتحول وجهة نظر مالك عن الامام عند ما رفعت من مقامه وأعات من شأنه ، ووجهة الأنظار اليه طوعا أو كرهاً رهبة أو رغبة يقول : ولقـــد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير التبسم ، فاذا ذكر عنده النبي (ص) اصفرّ لونه . وما رأيته يحدث عن رسول الله (ص) إلا على طهارة . ولقد اختلفت اليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاثة خصال : إما مصلياً ، وإما صامتاً ، وإما يقرأ القرآن . ولا يتكلم بما لا يعنيه . وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله (٢) .

وفي رواية الحافظ النيسابوري : وكان كثير الحديث طيب المجالسة كثير

---

(١) انظر الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٢٠ .

(٢) ابن تيمية في كتاب التوسل والوسيلة ص ٥٢ ط ٢ .

الفوائد ، فاذا قال : قال رسول الله اخضر مرة واصفر اخرى حتى ينكره من يعرفه . ولقد حججت معه فلما استوت به راحلته عند الاحرام انقطع الصوت فى حلقه و كاد يخر من راحلته . . . الخ (١) .

نبذ من تعاليمه

لم تعقد حلقته العلمية يوماً إلا وزودها بالهداية والارشاد بتعاليمه القيمة ورواية أحاديث جده وتلاوة آيات من كتاب الله الحكيم حرصاً على هدايتهم ، كما يكون الحريص على الدنيا . وجعل هدفه الأسمى في توجيه الناس الى الورع عن محارم الله والخوف منه والامتثال لأوامره والشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى وجعل يوم الحساب ماثلاً أمام أعينهم ، مع حثهم على التكسب وطلب الرزق ، ليرفع من مستوى اخلاقهم والمحافظة على القيم الروحية ، فكان يسمي التجارة ودخول السوق بالعز ، كما يحدثنا المعلى بن خنيس قال : رآني ابو عبدالله وقد تأخرت عن السوق فقال لي : اغدُ الى عزك . وقال لآخر وقد ترك غدوه الى السوق : ما لي أراك تركت غدوك الى عزك ؟ قال : جنازة أردت أحضرها . قال : فلا تدع الرواح الى عزك . وقال لمعاذ بياع الاكسية عند ما ترك التجارة : لا تتركها فان تركها مذهبة للعقل اسع على عيالك وإياك أن يكونوا هم السعاة عليك . وسأل عن رجل من اصحابه فقال : ما حبسه عن الحج ؟ فقيل : ترك التجارة وقل شيئه ، فاستوى الامام جالساً وكان متكئاً ثم قال : لا تدعوا التجارة فتهونوا اتجروا بارك الله لكم . وقال معاذ قلت لأبي عبدالله : اني هممت أن أدع السوق ، فقال : إذاً يسقط رأيك ولا يستعان بك على شيء .

(١) الروضة للحافظ ابو الحسن النيسابوري .

فهو بهذه التعاليم القيمة يبعث فى نفوس اصحابه الى طلب المعاش ليوجد منهم ذوي نفوس لا تخضع لذي ثروة ، ويحتفظون بكرامتهم عن الخضوع له والاستغناء عنه ، وليكونوا ذوي قدرة على الانفاق عن سعة لمساعدة ذوي العسرة واهل الضنك من المؤمنين . ولما كان حب المال يؤدي الى الانصراف عن قيم الحياة الرفيعة ، ويدعو صاحبه الى العناء والاستغراق فى جمعه والانشغال به ، نبه على ذلك بقوله : ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيّع ، ودون طلب الحريص الراضي بدنياه المطمئن اليها ، ازل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف وترفع بنفسك عن منزلة الواهن الضعيف ، وتكسب ما لا بد منه للمؤمن ، ثم يحدثهم عن النبي (ص) بما يرويه عن آبائه فى الاجمال بالطلب وعدم الاستغراق في حب المال .

ولما كان الاقتصاد فى المعيشة اقوى عامل للتوفير وزيادة الثروة ، فلم يهمل هذه الناحية بل نبه عليها بقوله :

« إن السرف يورث الفقر ، وإن القصد يورث الغنى » .

العمل

١ — وكان يحث على العمل ويعمل بنفسه ولا يحتقر ذلك ، لأن تكريم الانسان في عمله ، فهو قد حث قولاً وفعلاً . وقد تضافرت الأخبار بأنه كان يعمل بيده ويتجر بماله .

يحدثنا ابو عمر الشيباني ، قال : رأيت ابا عبدالله الصادق وبيده مسحاة يعمل فى حائط له والعرق يتصبب ، فقلت : جعلت فداك أعطني اكفك ، فقال لي : إني أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس فى طلب المعيشة .

ويقول اسماعيل بن جابر : أتيت ابا عبدالله وإذا هو فى حائط له ، وبيده مسحاة وهو يفتح بها الماء . . . الخ .

وعن الفضل بن قرة قال : دخلنا على ابي عبدالله فى حائط له ، وبيده مسحاة يفتح بها الماء وعليه قميص . . وكان يقول إني لأعمل فى بعض ضياعي ، وإن لي من يكفيني ليعلم الله عز وجل أني أطلب الرزق الحلال .

وكان عليه السلام يشجع على العمل ويحث عليه ، لأنه يرى أن الكسالة تؤدي الى الحط من كرامة المرء ، وتقذف به فى حضيض الهوان . فإن الاسلام يرشد بتعاليمه الى الجد وطلب المعيشة في الدنيا ، كما أرشد الى العمل وطلب الجزاء في الآخرة .

ولقد وهب الله للانسان فى عقله وجسمه قدرة يطرق بها ابواب الخير فى رزقه ، فلايصح له أن يذر إعمال تلك القوة ويسأل الرزق بلسان العاجزالكسلان

وقد قال النبي (ص) : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » فالعمل في الاسلام فى ضمن قواعده المهمة ، ولم يرض للمسلم البطالة والكسل ، حتى ورد فى الحديث ملعون ملعون من ألقى كله على الناس ، ملعون ملعون من ترك من يعول به .

وقال امير المؤمنين عليه السلام : ما غدوة أحدكم للجهاد فى سبيل الله بأعظم من غدوة من يطلب لولده وعياله ما يصلحهم . وقال عليه السلام : الشاخص فى طلب الحلال كالمجاهد في سبيل الله الى غير ذلك من شدة الاهتمام بطلب الحلال . فكان الامام الصادق كثيراً ما يلقي على تلامذته تلك الدروس القيمة ويحثهم على العمل والجد ، وينهاهم عن البطالة التي تخمد جذوة الفكر وتعوّد الجسم الى العجز ، وتميل به عن الاعتدال ، وتسقطه في المجتمع من عين الاعتبار .

ولقد قال امير المؤمنين عليه السلام : « إني لأرى الرجل فيعجبني ، فأقول : أله حرفة ؟ فان قالوا لا سقط من عيني .

ولذلك قال الامام الصادق لمعاذ عند ما أراد ترك العمل والتجارة : إذاً يسقط رأيك ولا يستعان بك على شيء .

رأينا كيف كان يحث على العمل وطلب الرزق . ولا يسعنا الآن ذكر تلك التعاليم القيمة .

وبعد أن دعاهم الى العمل قولاً وفعلاً بين قواعـــد مشروعة لما يصح الاكتساب به وما لا يصح ، وفصل لهم أهم ما يتعلق بنظام الحياة الاجتماعية من حيث الكسب المال وكيفية تملكه وانفاقه ، لأن المال وسيلة فعالة في حياة البشرية ، فلابد من نظام يكفل بيان ذلك ونقتصر على بعض مارواه الحسن بن علي ابن شعبة فى تحف العقول : ان سائلاً سأل الامام الصادق : كم جهات معاش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل بينهم ووجوه النفقات ؟ فقال عليه السلام :

جميع المعايش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات ويكون منها حلال من جهة وحرام من جهة ، فأول هذه الجهات اربعة : الولاية ثم التجارة ، ثم الصناعات ، ثم الاجارة . والفرض من الله تعالى على العباد فى هـذه المعاملات الدخول في جهات الحلال ، والعمل بذلك الحلال منها ، واجتناب جهات الحرام . فاحدى الجهتين من الولاية ولاة العدل الذين أمر الله بولايتهم على الناس . والجهة الاخرى ولاية ولاة الجور ، فوجه الحلال من الولاية ولاية الوالي العادل ؛ وولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالي العادل بلا زيادة ولا نقصان ، فالولاية له والعمل معه ، ومعونته وتقويته حلال محلل . وأما وجـه الحرام من الولاية فولاية الوالي الجائر . وولاية ولاته فالعمل لهم

والكسب معهم بجهة الولاية لهم حرام محرم معذب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير ، لأن كل شيء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر . وذلك ان في ولاية الوالي الجائر دروس الحق كله ، فلذلك حرم العمل معهم ومعونتهم والكسب معهم إلا بجهة الضرورة ، نظير الضرورة الى الدم والميتة . ثم بين بقية المعاملات والمكاسب (١) .

الاخوة

٢ — وكان يدعو الى الاحتفاظ بالاخوة الاسلامية ويدعو الى الالفة والتقارب وينهى عن التباغض ويحاول تأليف القلوب بمختلف الطرق ، لأن الحب أقوى عامل لسعادة بني الانسان ، وبالحب ينتظم العالم . وهو القانون الطبيعي لكيان الحياة ، كما ان الكراهة تبعث الشقاء وتثير الشحناء ، فلذلك نهى الشارع المقدس عن الامور التي تثير العداء بين المسلمين ، وتذهب الى أبعد حدود القلق ، فكان من اسس نظام الدين الاسلامي هي الاخوة ، فلذا آخى النبي بين اصحابه وأمر المسلمين بالمؤاخات . وقال تعالى : « إنما المؤمنون اخوة » وجعل النبي (ص) عنوان الاخوة : أن تحب لاخيك ما تحب لنفسك . فاذا كنت تحب لاخيك الخير أحبه لك ، فكانت راحة نفسك من عاملين قويين . وهكذا إذا كثرت الاسباب والدواعي واتسع ميدان الاخاء ، فاذا كان المسلم يحب نفع اخيه كما يحبه لنفسه ، فبالطبع إنه لا يأتي منه ضرر ، فاذا أمن الانسان ضرر أبناء جنسه ، فتلك هي السعادة . وهل ترى مظهراً للمدنية الصحيحة أجلى من هذا المظهر ؟ فالله سبحانه وتعالى ـ رحمة بعباده ـ جعل

(١) انظر تحف العقول والوسائل في باب التجارة .

الاخوة الاسلامية ، ليتم لهم نظام الحياة ويتعاونوا على البر والتقوى ولا يتعاونوا على الاثم والعدوان لذلك كان الامام الصادق يدعو بتعاليمه الى الاخوة الاسلامية .

ويحث على مساعدة الاخوان وقضاء حوائجهم . قال صفوان الجمال : دخلت على ابي عبدالله الصادق (ع) ، إذ دخل عليه رجل من أهل مكة ـ يقال له ميمون ـ فشكى اليه تعذر الكراء عليه ، فقال لي : قم فاعن أخاك ، فقمت معه فيسر الله كراه ، فرجعت الى مجلسي ، فقال ابو عبدالله : ما صنعت فى حاجة اخيك ؟ فقلت : قضاها الله بابي أنت وامي ، فقال : أما إنك إن تعين أخاك المسلم أحب الي من طواف اسبوع فى البيت .

لان مساعدة الاخوان توجب المحبة والالفة ، وبهما تحصل المنافع العامة . وقد عالج الاسلام مشكلة الحب والكراهة ، وهما من أعظم المشاكل الاجتماعية، فان الحب إذا حصل في المجتمع فلا تجد هناك مشكلة من مشاكل الحياة الاجتماعية . والمحبة تخمد جذوة الرذائل . ومعنى هذا أن رذائل الشخص قلما تصيب من أحبه ، ومن ثم قيل: « العدالة خليفة المحبة » قال سقراطيس : لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة ، وان مالت اليه الدنيا ، فان ظن أحد أن أمر المودة صغير ، فالصغير من ظن ذلك .

ولنا فى تعاليم الامام الصادق وحكمياته ـ التي كان يلقيها على تلك المجموعة الوافرة في مدرسته ـ كفاية على إيضاح فوائد الحب ومضار الكراهة . فكان ينصح المسلمين ويحذرهم عاقبة التباعد والبغضاء ، ولم يقتصر على القول فى هدم عوامل الفرقة ، بل يسعى لذلك من طرق مختلفة ، حتى أنه أقام بعض أصحابه وأمرهم أن يصلحوا المتخاصمين ـ على شيء من حطام الدنيا ـ من ماله الخاص .

يحدثنا أبو حنيفة سابق الحاج ـ واسمه سعيد بن بيان ـ قال : مر بنا المفضل

ابن عمر ـ وأنا وختن لي نتشاجر فى ميراث ـ فوقف علينا ساعة ، ثم قال لنا : تعالوا الى المنزل ، فاتيناه ، فأصلح بيننا باربعمائة درهم ، فدفعها الينا من عنده حتى إذا استوثق كل واحد منا من صاحبه ، قال : أما إنها ليست من مالي ، ولـكن أبا عبدالله الصادق أمرني ـ إذا تنازع رجلان من اصحابنا في شيء ـ أن اصلح بينهما وافتديها من ماله ، فهذا مال ابي عبدالله (١) .

الظلم

٣ — لقد تسالمت العقول واتفقت آراء العقلاء على قبح الظلم ، فهو من أعظم الرذائل ، كما أنهم لم يجمعوا على تقدير فضيلة كاجماعهم على فضيلة العدل الذي هو أصل كل خير والقلب النابض لجميع الفضائل ، ولا يخرج شيء من الفضائل عنه . فهو اسمى هدف يسعى الاسلام لتحقيقه ، ويأبى ان تهدمه رذيلة حب السلطة والتغلب . وللامام الصادق فى ذلك أقوال كثيرة فى محاربة الظلم يتردد ذكرها على ألسنة العلماء من أقدم العصور . وجاء ذكرها في امهات الـكتب ، فهي نور ساطع فى جو العقلية البشرية ، وسنٌ قواعد مشروعة لمقاومة الظالمين .

وكان أهل البيت يعظمون على الانسان ارتكاب العدوان على الغير والظلم للناس ، فقد جاء عن إمام أهل العدل امير المؤمنين عليه السلام : « والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهدا أو اجر فى الاغلال مصفدا أحب الي من أن القى الله ورسوله ظالما لبعض عباده ، وغاصبا لشيء من الحطام » ويقول : « والله

(١) الـكافي ج ٢ ص ٢٠٩ ط ٢ دار الـكتب الاسلامية طهران .

لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن اعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ، ما فعلت » الى غير ذلك من تعاليمه وأحكامه . وقد قام كل من أهل البيت بما يجب عليه في نصرة الحق ومحاربة الظلم ، وبذلوا انفسهم لتحقيق ما دعا اليه الاسلام بما يكفل للأمة السعادة ، لذلك كانوا طعمة لسيوف الظالمين ، لان سياسة أهل البيت تقضي بحرمة معاونة الظالمين وعدم الركون اليهم ، كما امر الله بذلك ورسوله .

يحدثنا صفوان الجمال قال : دخلت على الامام موسى بن جعفر فقال لي: يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ، خلا شيئاً واحداً .

ـ قلت : جعلت فداك اي شيء ؟

ـ قال : كراك جمالك من هذا الرجل ـ يعني هارون ـ .

ـ قلت : والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ، ولا للصيد ، ولا للهو ، ولكن أكريته لهذا الطريق ـ يعني طريق مكة ـ ، ولا أتولاه بنفسي ، ولكن أبعث معه غلماني .

ـ قال : يا صفوان أيقع كراك عليهم ؟

ـ قلت : نعم جعلت فداك .

ـ قال : أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك ؟

ـ قلت : نعم .

ـ قال : فمن أحب بقاءهم فهو منهم ، ومن كان منهم فهو كان ورد النار

قال صفوان : فذهبت وبعت جمالي عن آخرها .

وقد قام الامام الصادق بدوره في عصره فأعلن للملأ أضرار الظلم ،

لان كل فساد في الأرض وشق لعصى الطاعة واضطراب فى نظام العمران إنما يعود الى الجور بين الناس ، بل ان كل قحط وجدب وضيق وضنك ، وجوع وخوف وبلاء وانتقام إنما هو من ظلم العباد بعضهم بعضاً ، لذلك أمر الامام الصادق بالابتعاد عنهم ، وأبعد عنه المتقرب منهم وحرم الولاية لهم ، لانه يرى « أن في ولاية الجائر دروس الحق كله واحياء الباطل كله واظهار الظلم والجور » كما ورد عنه ذلك ، وكان يقول : العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء .

ودخل عليه عذافر فقال : بلغني أنك تعامل أبا ايوب والربيع ، فما حالك إذا نودي بك فى أعوان الظلمة ؟ ونهى يونس بن يعقوب عن معاونتهم حتى على بناء المساجد . وسأله رجل من اصحابه عن البناء لهم وكراية النهر . فاجابه عليه السلام :

« ما أحب أن أعقد لهم عقدة او وكيت لهم وكاء ولا مدة بقلم ، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد »

وجاءه مولى من موالي علي بن الحسين فقال له : جعلت فداك لو كلمت داود بن علي أو بعض هؤلاء فادخل في بعض هذه الولايات ، فقال له : ما كنت لافعل ، فانصرف الرجل الى منزله متفكراً ، وقال : ما أحسبه منعني الا مخافة أن أظلم أو أجور ، والله لآتينه ولأعطينه الطلاق والعتاق والأيمان المغلظة أن لا أظلم أحداً ولأعدلن ، فاتيته فقلت : جعلت فداك إني فكرت فى إبآئك علي ، فظننت أنك إنما كرهت ذلك أن أجور أو أظلم ، وإن كل امرأة لي طالق وكل مملوك لي حر وعلي وعلي .. إن ظلمت أحداً أو جرت عليه ولم أعدل ، فقال (ع) : كيف قلت ؟ فأعدت عليه الايمان ، فرفع رأسه الى السماء فقال :

تناول السماء أيسر عليك من ذلك (١) .

وقد وردت عن أهل البيت احاديث بجواز الولاية إذا كان فيها صيانة العدل وإقامة حدود الله ، والاحسان الى المؤمنين ، والسعي فى الاصلاح ، ومناصرة المظلومين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . فهناك احاديث عن الأئمة عليهم السلام توضح النهج الذي ينبغي أن يجري عليه الولاة والموظفون، كما ورد فى رسالة الامام الصادق الى النجاشي امير الاهواز (٢) .

وقوله عليه السلام : « ان لله في ابواب الظلمة من نوَّر الله به البرهان، ومكّن له فى البلاد ، فيدفع به عن اوليائه ، ويصلح به امور المسلمين » .

فقد اوقفناك على برنامجه الذي وضعه في سياسته التي سار عليها مدة حياته، وهي السياسة السلبية التي أرادها للامة ، وقد مر تقسيمه الولاية : ولاية عدل، وولاية جور . وسنّ تلك القاعدة المشروعة في معاملة ولاة الجور فى عصره .

يقول أحد رجال القانون (٣) في بيان تلك القاعدة عند تعرضه لرأي الامام السياسي فى عدم المعاونة مع امراء عصره :

إن الامام الصادق (ع) قد سنَّ قاعدة مشروعة للسياسه السلبية ، وهي ما يسمونها اليوم باللغة السياسية (بالعصيان المدني) أو سياسة عدم التعاون مع حكومة أو دولة لا تحترم الحقوق أو تسيء التصرف ، فتعبث بحرمة قانونية المعاهدات والمواثيق ، او تتحدى قدسية الدساتير وحقوق الامة المشروعة — الى غير ذلك من وسائل الظلم وذرائع الباطل التي تتوسل بها الحكومات الغاشمة

---

(١) الجواهر فى باب التجارة س ٣٦ .

(٢) راجع الوسائل فى كتاب التجارة وسننشرها فى قسم الوصايا .

(٣) هو المحامي الشهير توفيق الفكيكي فى الرسالة الاولى فى حياة الصادق س ٢٧ .

والدول القوية المستعمرة ، وحكام الاستبداد والفساد في سبيل الغايات الخبيثة الدنيئة . فالامام الصادق (ع) قد اوجب على الافراد عدم التعاون مع ولاتهم الجائرين على اختلاف درجاتهم ومناصبهم من اعلاهم الى أدناهم ، وحرم عليهم العمل لهم والكسب معهم ، وحذر واوعد الفاعل لذلك بالعذاب لارتكابه معصية كبيرة من الكبائر ، لأن في بذل المعونة للوالي الجائر اماتة الحق كله واحياء الباطل كله ، وفي تقويته اظهار الظلم والجور والفساد وسحق السنن وطمس الشرائع ـ والعياذ بالله ـ ولا نريد أن نكثر القول في شرف هـــذه القاعدة للسياسة السلبية وفى فوائد حكمتها . وهذه القاعدة الوحيدة الناجعة لعلل السياسة الفاسدة واوبائها المهلكة . وليس للاحرار المصلحين فى كل امة قاعدة اخرى يلجأون اليها في إكراه المستبدين والمستعبدين والمستهترين بحقوق الامـة للخضوع الى اجابة رغبات الشعب وتحقيقها وتطبيق القوانين وخدمـة العدل واحترام الحق ، إلا اتباع هذه القاعدة المثالية في السياسة السلبية . ولا يقوى على انتهاج هذه الخطة القويمة إلا أصحاب القلوب العامرة بقوة الايمان ، وأرباب النفوس الملتهبة بحرارة العقيدة الصحيحة الصلبة ، وأهل الصبر على تقديم القرابين الغالية من أرواحهم الطاهرة فى سبيل حريات الرعيـة وصيانة حقوقهم من جور الجائرين واعتسافهم . فهل بعد هذا العلاج الشافي من علاج يستعمله الامام الصادق عليه السلام لمداواة السياسة الاموية والعباسية المريضة فى روحها ودماغها ؟ ـ اللهم لا ـ حتى اذا وجد المعين والنصير ، فكيف اذا لم يكن هذا وذاك !

والظلم في جميع أنواعه قبيح عقلاً وشرعاً ، ولم ينحصر الظلم فى الولاية بل هو عام لجميع أنواع المعاملات التي تقـع خلاف الحق . وفى ذلك احاديث كثيرة .

روي عن ابي حمزة عن ابي عبدالله الصادق (ع) قال : « أما إنه ما ظفر بخير من ظفر بالظلم ، أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم اكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم » ثم قال : « من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به » وقال : « من اكل من مال اخيه ظلماً ولم يرده اليه ، اكل جذوة من النار يوم القيامة » . وكان يوصي اصحابه بقوله : اياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم فيدعو عليكم فيستجاب له فيكم ، فان أبانا رسول الله (ص) كان يقول : إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة وليعن بعضكم بعضاً ، فان أبانا رسول الله (ص) كان يقول : معونة المسلم خير واعظم أجراً من صيام شهر ، واعتكافه في المسجد الحرام . وقال : من أعان ظالماً على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطاً حتى ينزع عن معونته — الى غير ذلك من تعاليمه وارشاداته .

عزة النفس

٤ — (هي اكرام المرء نفسه ووضعها فى مرتبتها . ورفعة المنزلة من السعادة التي يجدها الشخص فى هذا العالم ، وسبب رفعة المنزلة إنما هي الأعمال المختلفة التي يقوم بها المرء) تابعاً لما توحيه اليه نفس عزيزة تنزع الى الرفعة والسمو ، فيضع نفسه فى موضعها ، ويباشر ما يليق بشأنه ، والتعدي عن ذلك إذلال للنفس ، وتعريض بكرامتها . وفى ذلك يقول الامام الصادق :

لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه . قيل وكيف يذل نفسه ؟ قال : يدخل في شيء يعتذر منه . وقد تقدم حثه لطالب المعاش خوفاً من ذلة النفس واستهانتها وكثير من تعاليمه وارشاداته التي ينهى بها عن ارتكاب الامور الحقيرة التي تجعله

لا يشعر من نفسه بالفضيلة ، فالرذائل كلها تذهب بعزة النفس ، والفضائل هي الأساس المبتنى لعزة النفس . فالكذب والخيانة والرياء والغش والطمع والميل مع الهوى امور تذهب بعزة النفس وتبعد السعادة وتجلب الشقاء ، كما أن العفة والقناعة والأمانة والصبر والصدق والوفاء تبعث في النفس عزة وسمواً . وقد أمر الله ورسوله بذلك . ولسنا بحاجة الى إقامة الدليل على مضار الجرائم ، وانها تجعل الانسان ذليلاً ، وتهوي به الى حضيض الهوان ، كما ان الفضائل ترفع من قدره ويشعر بعزة نفسه . وقد جاء في نظام الاسلام بيان الامور التي توجب ذلك ، فالسعادة كل السعادة في الامتثال .

فالله سبحانه وتعالى أراد لعباده العزة في جميع تلك الأوامر ، والتعاليم الاخلاقية ، لذلك كان خلفاء النبي وحملة علمه هم مثال الانسانية الكاملة ، ونشروا تلك التعاليم القيمة التي يجب أن يتصف بها المؤمن . يقول الامام الصادق: « من برىء من الشر نال العز » ويقول : « المؤمن له قوة فى دين ، وحزم في لين ، وايمان في يقين ، وحرص فى فقه ، و نشاط في هدى ، وبر فى استقامة ، وعلم في حلم ، وكيس في رفق ، وسخاء في حق ، وقصد فى غنى ، وتجمل في فاقة وعفو في مقدرة ، وطاعة في نصيحة ، وانتهاء فى شهوة ، وورع في رغبة ، وحرص في جهاد ، وصلاة فى شغل ، وصبر فى شدة ، فى الهزاهز وقور ، وفى الرخاء شكور ، لا يغتاب ولا يتكبر ، ولا يقطع الرحم ، وليس بواهن ، ولا فظ ولا غليظ ، ولا يسبقه بصره ، ولا يفضحه بطنه ، ولا يغلبه فرجه ، ولا يحسد الناس ، ولا يسرق ، ولا يظلم » .

ويقول عليه السلام : « إن الله فوّض الى المؤمن اموره كلها ، ولم يفوض اليه أن يكون ذليلا ، اما تسمع الله تعالى يقول : « ولله العزة ولرسوله

والمؤمنين » (١) فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلا ، إن المؤمن اعزّ من الجبل الجبل يستقل منه (٢) بالمعاول ، والمؤمن لا يستقل من دينه شيء » .

وكثير من الاخبار والاحاديث الواردة في براءة المؤمن عن ذلة النفس التي هي من نتائج الجبن وخبائث الصفات ، وتلزمة المهانة وعدم الاقتحام في معالي الامور ، والمسامحة في النهي عن المنكر والامر بالمعروف ، والاضطراب بعروض ادنى شيء من البلايا والمخاوف ويتصف بقوة الارادة في السيطرة على نزعاته وميوله.

قوة الارادة :

٥ — ارادة الانسان هي المحرك الاول لقوة العمل ، وبقوة هذه الارادة تكافح هذه الغرائز الشاذة ، وتصادم الميول المتطرفة ، وبقوة الارادة تبتدىء الفضيلة ويتم التوازن ، وقوي الارادة هو الانسان العظيم الذي يأتي بالعجاب ، إذا احسن توجيه ارادته الى إعمال الخير ومحاسن الصفات ، أما إذا توجه بها الى إعمال الشر ، فانه يجر على نفسه نقصاً آخر لا يقل خطراً عن ضعف الارادة وقد جمع الامام الصادق قوة الارادة في كلمته البليغة وهي قوله : « ما ضعف بدن عما قويت عليه النية » (٣) .

فقوة الارادة هي نتاج شخصية منظمة احسن التنظيم ، فالرجل ذو الارادة القوية هو الذي يعرف ما يريد . وان له مثلا اعلى ينظم طاقاته وقواه ، فالبحث عن قوة الارادة إنما هو في الحقيقة بحث عن مثل اعلى . وقد ورد في الشرع ما يشير الى ذلك .

---

(١) سورة المنافقين : ٨ .

(٢) الجبل يستقل منه : من القلة ، أي ينقص ويؤخذ منه .

(٣) انظر الأخلاق عند الإمام الصادق الاستاذ محمد أمين زين الدين .

هذا بيان موجز عن تعاليم الامام الصادق ، وليس من الممكن استقصاؤها فان له من التراث الفكري مالا يستطاع جمعه إلا في عدة مجلدات ، ومن المؤسف له أن تلك التعاليم القيمة متفرقة في بطون الكتب ، ولو جمعت لكانت اكبر ثروة علمية للمسلمين لأنه عليه السلام قضى حياته في نشر العلم وبذل جهده في ارشاد الناس والنصح لجميع افراد الامة .

فتعاليمه هي القوانين الاخلاقية الصالحة لكل العصور والجماعات ، والكفيلة برقي الفرد والأسرة ، على نحو يرضاه العقل ويطمئن اليه الوجدان ، لانها مستقاة من ينبوع الوحي ، ومستمدة من التعاليم النبوية .

وعلى أي حال فقد كان الامام الصادق حريصاً على توجيه الامة ، يحاول تطهير النفوس من الرذيلة وتقويمها من اعوجاج الميول في الغرائز ، ليتعاونوا ويصبحوا بنعمة الله اخواناً متحابين متراحمين لينالوا بذلك السعادة كما قرأنا من تعاليمه ومانقرؤه بعد ، فقد كان يؤدّب اصحابه بآداب الاسلام ، ويحرص على استقامتهم

يحدثنا سماعة قال : دخلت على أبي عبد الله الصادق فقال لي مبتدئاً : يا سماعة ما هذا الذي كان بينك وبين جمّالك ؟ إياك أن تكون فحاشاً لعاناً . فقلت : والله لقد كان ذلك ، انه ظلمني . فقال : إن كان ظلمك لقد اوتيت عليه إن هذا ليس من فعالي ولا آمر به شيعتي استغفر ربك ولا تعد ، قلت : استغفر الله .

وكان لابي عبد الله (ع) صديق يماشيه لا يكاد يفارقه ، فقال الرجل يوماً لغلامه : أين كنت يابن الفاعلة ؟ فلما سمع أبو عبد الله رفع يده فصك بها جبهة نفسه ، ثم قال : سبحان الله تقذف امه ! قد كنت أرى لك ورعاً ، فقال : جعلت فداك إن امه سندية مشركة ، فقال : أما علمت أن لكل امة نكاحاً

تنحَّ عني ، فما رؤي يمشي معه .

رأينا الامام كيف كان ينهى عن الفحش ، لان الفحش لا يصدر إلا عن خباثة النفس ، والمؤمن لا يكون كذلك فهو لا يرضى أن يتصف المؤمن بهذه الرذيلة ، لذلك كان يقول :

« من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه أن يكون فحاشاً لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه ، من خاف الناس لسانه فهو فى النار ، إن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه » .

الى كثير من تعاليمه وتراثه الفكري وستقف على بعضه فى جوامع الكلم .

مراسلاته ووصاياه

كانت للامام الصادق عليه السلام مراسلات الى مختلف الأقطار تتضمن نصائحه الثمينة يدعوهم الى سبيل ربه ، وكانت تهبط عليه أسئلة من البلدان النائية يسألونه ايضاح ما اشكل عليهم من امور دينهم ودنياهم ، ونرى من الخير التعرض لبعضها واثبات البعض منها بقدر ما يسع المجال ليقف القارىء على صور مختلفة تمثل نواحي العظمة وعظيم حبه للخير .

رسالته لعبد الله النجاشي

قال عبد الله بن سليمان النوفلي (١) : كنت عند جعفر بن محمد الصادق فاذا بمولى لعبدالله النجاشي ورد عليه فسلم واوصل اليه كتاباً ففضه وقرأه فاذا فيه :

---

(١) عبدالله بن سليمان النوفلي : روى عنه هشام بن يوسف وغيره وخرج له الترمذى فى صحيحه .

بسم الله الرحمن الرحيم : أطال الله بقاء سيدي وجعلني من كل سوء فداه ، إني بليت بولاية الأهواز فأرى سيدي أن يحد لي حداً أو يمثل لي مثلا لأستدل على ما يقربني الى الله عز وجل والى رسوله — الى أن قال — فعسى أن يخلصني الله بهدايتك ودلالتك ، فانك حجة الله على خلقه وأمينه فى بلاده ولا زالت نعمته عليك . فأجابه ابو عبدالله عليه السلام :

بسم الله الرحمن الرحيم : حاطك الله بصنعه ، ولطف بك بمنه ، وكلأك برعايته فانه ولي ذلك — الى أن يقول — فاني ملخص لك جميع ما سألت عنه إن أنت عملت به ولم تجاوزه ، رجوت ان تسلم إن شاء الله . أخبرني أبي عن آبائه عن علي بن ابي طالب عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال : من استشاره اخوه المؤمن فلم يمحضه النصيحة سلبه الله لبه ، واعلم اني ساشير عليك برأي إن انت عملت به تخلصت مما انت متخوفه ، واعلم ان خلاصك ونجاتك من حقن الدم وكف الأذى من اوليا. الله والرفق بالرعية والتأني وحسن المعاشرة ، مع لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، ومداراة صاحبك ومن يرد عليك من رسله ، وارتق فتق رعيتك بأن توافقهم على ما وافق الحق والعدل إن شاء الله .

إياك والسعاة واهل النمائم فلا يلتزقن منهم بك احد ، ولا يراك الله يوماً وليلة وأنت تقبل منهم صرفا ولا عدلا فيسخط الله عليك ويهتك سترك .

فأما من تأنس به وتستريح اليه وتلجئ امورك اليه ، فذلك الرجل الممتحن المستبصر الأمين الموافق لك على دينك .

وإياك أن تعطي درهماً أو تخلع ثوباً أو تحمل على دابة فى غير ذات الله لشاعر أو ممزح إلا أعطيت مثله فى ذات الله .

ولكن جوائزك وعطاياك وخلعك للقواد والرسل والأحفاد وأصحاب الرسائل وأصحاب الشرط والاخماس ، وما أردت أن تصرفه فى وجوه البر والنجاح والفتوة والصدقة والحج والمشرب والكسوة التي تصلي بها وتصل بها ، والهدية التي تهديها الى الله عز وجل والى رسوله صلى الله عليه وآله من أطيب كسبك .

يا عبدالله اجهد أن لا تكنز ذهباً ولا فضة ، فتكون من اهل هذه الآية التي قال الله عز وجل : « الذين يكنزون الذهب والفضة ثم لا ينفقونها في سبيل الله » .

ولا تستصغر من حلوى وفضل طعام تصرفه فى بطون خالية ليسكن بها غضب الله تعالى ، واعلم اني سمعت من أبي يحدث عن آبائه عن امير المؤمنين (ع) انه سمع النبي صلى الله عليه وآله يقول يوماً : ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع ، فقلنا : هلكنا يا رسول الله ، فقال : من فضل طعامكم ومن فضل تمركم ورزقكم وخلقكم وخرقكم تطفئون بها غضب الرب .

فخرج امير المؤمنين من الدنيا وليس فى عنقه تبعة لأحد حتى لقي الله محموداً غير ملوم ولا مذموم ، ثم اقتدت به الأئمة من بعده بما قد بلغكم لم يتلطخوا بشيء من بوائقها . . .

يا عبدالله إياك أن تخيف مؤمناً فان أبي محمداً حدثني عن أبيه عن جده علي ابن أبي طالب عليهم السلام انه كان يقول : من نظر الى مؤمن ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظل إلا ظله ، وحشره في صورة الذر لحمه وجسده وجميع أعضائه حتى يورد مورده .

ثم ذكر له عليه السلام : الأحاديث المتضمنة لمكارم الأخلاق وطيب

الصفات التي يجب أن يسير عليها الوالي ، والتي تضمن له النجاة إن عمل بهما وسار على الجادة (١) .

وجاء اليه رجل من الأهواز فقال : يا أبا عبدالله إن فى ديوان النجاشي علي خراجاً فان رأيت أن تكتب له كتاباً ، فكتب اليه هذه الكلمة الموجزة : بسم الله الرحمن الرحيم : سر أخاك يسرك الله .

فلما ورد الكتاب على النجاشي امتثل ذلك وأجاز الرجل وأكرمه وأسقط الخراج وقال له : هل سررتك ؟ قال : نعم .

رسالة فى الصفات

وكتب اليه عبدالملك بن أعين من العراق يخبره : ان قوماً بالعراق يصفون الله بالصورة وبالتخطيط ، فان رأيت جعلني الله فداك أن تكتب إلي بالمذهب الصحيح من التوحيد .

فكتب اليه : سألت رحمك الله عن التوحيد وما ذهب اليه من قبلك فتعالى الله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون الله بخلقه المفترون على الله ، فاعلم رحمك الله : إن المذهب الصحيح فى التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله جل وعز ، فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه فلا نفي ولا تشبيه ، هو الله الثابت الموجود ، تعالى الله عما يصفه الواصفون ، ولا تعدوا القرآن فتضلوا بعد التبيان (٢) .

---

(١) انظر البحار ج ١٧ ص ٢٦٣ ، والوسائل فى باب الولاية من أبواب التجارة وغيرهما . .

(٢) الكافي ج ١ ص ١٠٠ .

الى جماعة من أصحابه

وكتب الى جماعة من أصحابه : اتقوا الله وكفوا ألسنتكم إلا من خير — الى أن قال — وعليكم بالصمت إلا ما ينفعكم الله به في آخرتكم ويأجركم عليه ، واكثروا من التهليل والتقديس والتسبيح والثناء على الله والتضرع اليه والرغبة فيما عنده من الخير ، الذي لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه أحد : فاشغلوا ألسنتكم بذلك عما نهى الله عنه من أقاويل الباطل التي تعقب أهلها خلوداً في النار من مات عليها ولم يتب الى الله ولم ينزع عنها .

وكتب الى جماعة منهم أيضاً نقتطف منها :

أما بعد فسلوا ربكم العافية ، وعليكم بالدعة ، والوقار والسكينة والتنزه . كما تنزه الصالحون منكم — الى أن قال — وعليكم بحب المساكين المسلمين ، فان من حقرهم وتكبر عليهم فقد زل عن دين الله ، واعلموا ان من حقر أحداً من المسلمين القى الله عليه المقت ، فاتقوا الله في اخوانكم فان لهم عليكم حقاً ان تحبوهم فان الله أمر نبيه بحبهم ، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله ورسوله ، ومن عصى الله ورسوله ومات على ذلك مات من الغاوين . إياكم أن يبغي بعضكم على بعض فانها ليست من خصال الصالحين ، فانه من بغى صير الله بغيه على نفسه وصارت نصرة الله لمن بُغي عليه ، ومن نصره الله غلب واصاب الظفر من الله .

إياكم أن يحسد بعضكم بعضاً فان الكفر أصله الحسد .

إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم يدعو الله عليكم ويستجاب له فيكم ،

فان أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إن دعوة المظلوم مستجابة .

إياكم أن تشره نفوسكم الى شيء مما حرم الله عليكم ، فان من انتهك ما حرم الله عليه حال الله بينه وبين الجنة .

وصاياه

ليس من الغريب أن نرى كثيراً من علماء الامة يغتنمون فرصة الاتصال بالامام الصادق ويطلبون منه أن يزوّدهم بوصاياه التي هي أثمن شيء عندهم ، لأنهم يجدون فيها اكمال نقص ، وتوجيهاً للخير والسعادة . وقد وجدوا فيه شخصية اسلامية قد طبعت على الخير والبر ، فهو يتوخى لهم السعادة ويقيم لهم الحجج الواضحة والبراهين اللائحة ، فهو من اهل بيت لا تجهل منزلتهم ولا تنكر مكانتهم وهم أولى بتبليغ الأحكام وهداية الأنام ، مهما كثرت عوامل المعارضة ووقفت الصعوبات فى طريق الوصول الى الغاية .

والامام الصادق فريد عصره ووحيد زمانه لا يلحق أثره ولا يبلغ شأوه ، فلذلك نرى التفاف الامة حوله وانتهالهم من تعاليمه ، وحرصهم على حصول تلك الوصايا الثمينة والتعاليم القيمة .

هذا سفيان الثوري وهو من علماء الامة يتردد على الامام ويطلب منه أن يوصيه بما ينفعه ، ثم يستزيده مرة بعد أخرى .

وهذا ابو حنيفة يغتنم الحضور عنده ويصغي لوصاياه عند ما قدم الى المدينة وكذلك فى الكوفة يوم دخلها الامام الصادق ، كما تحدث بذلك كتب مناقب أبي حنيفة وغيرها .

وهذا الامام مالك يلازم صحبته ويرافقه ويتزود منه . لأنهم يطلبون الخير لأنفسهم وللامة ، وستأتي الاشارة الى ذلك .

وقد اكثر سفيان الثوري لذكر تلك الوصايا ونشرها للملأ ولا يستبعد أن يكون ذلك هو السبب فى مطاردته من قبل السلطان ، بعد أن فشلت في محاولتها لاستمالته حتى مات مغضوباً عليه من قبل ولاة الجور .

وكان حفص بن غياث وهو أحد الأعلام يطلب من الامام أن يوجهه ويزوده بوصاياه ، وقد احتفظ التاريخ بكثير من ذلك . وعلى كل حال فان وصايا الامام الصادق كثيرة ونقتصر على القليل منها .

وصيته لحفص بن غياث : (١)

إن قدرتم أن لا تعرفوا فافعلوا ، وما عليك إن لم يثن الناس عليك ، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت عند الله محمودا ـ الى أن قال ـ : إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل ، فان عليك فى خروجك أن لا تغتاب ولا تكذب ولا تحسد ولا ترائي ولا تتصنع ولا تداهن . . . الخ (٢) .

وصيته لسفيان الثوري :

الوقوف عند كل شبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وترك حديث لم تروه أفضل من روايتك حديثاً لم تحصه ، إن على كل حق حقيقة ، وعلى كل صواب

---

(١) حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي المتوفى سنة ١٩٤ أحد الاعلام روى عن الامام الصادق خرج حديثه اصحاب الصحاح الستة .

(٢) انظر الوسائل ج ٢ باب الجهاد .

نوراً ، فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالفه فدعوه (١) .

وقال نصر بن كثير (٢) : دخلت أنا وسفيان الثوري على جعفر بن محمد الصادق (ع) فقلت : إني اريد البيت فعلمني شيئا أدعو به ، فقال : إذا بلغت البيت الحرام فضع يدك على الحائط ثم قل : يا سابق الفوت يا سامع الصوت يا كاسي العظام لحماً بعد الموت ثم ادع بما شئت . فقال له سفيان شيئاً لم أفهمه .

فقال : يا سفيان إذا جاءك ما تحب فأكثر من الحمد لله ، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله ، واذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار .

ولقيه مرة فقال : يا ابن رسول الله أوصني قال : يا سفيان لا مروءة لكذوب ، ولا أخ لملول ، ولا راحة لحسود ، ولا سؤدد لسيء الخلق .

فقال : يا ابن رسول الله زدني ، قال : يا سفيان ثق بالله تكن مؤمناً ، وارض بما قسم الله لك تكن غنياً ، واحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، ولا تصحب الفاجر يعلمك من فجوره ، وشاور في أمرك الذين يخشون الله عزوجل .

فقال : يا ابن رسول الله زدني ، فقال : يا سفيان من أراد عزاً بلا عشيرة وغناً بلا مال وهيبة بلا سلطان فلينتقل من ذل معصية الله الى عز طاعته .

وقال سفيان للصادق مرة : لا أقوم حتى تحدثني . قال له : انا احدثك وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان إذا أنعم الله عليك بنعمة فاحببت بقاءها ودوامها ، فاكثر من الحمد والشكر عليها فان الله عز وجل قال : (لئن شكرتم

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١١٥ .
(٢) سيأتي ذكره في رواة حديث الصادق

لأزيدنكم) واذا استبطأت الرزق فأ كثر من الاستغفار ، فان الله تعالى قال في كتابه : (استغفروا ربكم انه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً) يا سفيان اذا أحزنك أمر من سلطان او غيره ، فأ كثر من لا حول ولا قوة إلا بالله ، فانها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة فعقد سفيان بيده وقال : ثلاث واي ثلاث (١) .

وصيته لعبد الله بن جندب :

يا ابن جندب إنما المؤمنون الذين يخافون الله ، ويشفقون ان يسلبوا ما اعطوا من الهدى ، فاذا ذكروا الله ونعماءه وجلوا واشفقوا ، واذا تليت عليهم آياته ، زادتهم إيماناً مما اظهره من نفاذ قدرته ، وعلى ربهم يتوكلون .

يا ابن جندب يهلك المتكل على عمله ، ولا ينجو المجترىء على الذنوب الواثق برحمة الله ـ قال عبد الله بن جندب : فمن ينجو ـ ؟ قال : الذين هم بين الخوف والرجاء كأن قلوبهم في مخلب طائر شوقاً الى الثواب وخوفاً من العقاب .

ويل للساهين عن الصلاة ، النائمين فى الخلوات ، المستهزئين بالله فى الفترات ، اولئك الذين لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولهم عذاب اليم .

يا ابن جندب أحبب فى الله ، وأبغض فى الله ، واستمسك بالعروة الوثقى ، واعتصم بالهدى يقبل عملك .

وخذ حظك من آخرتك ، ولا تكن بطراً فى الغنى ، ولا جزعاً

(١) انظر حلية الاولياء ج ٣ ص ١٩٣ يرويها مالك بن انس .

في الفقر ، ولا تكن فظاً غليظاً يكره الناس قربك ، ولا تكن واهياً يحقرك من عرفك ، ولا تشارّ (*) من فوقك ، ولا تسخر بمن هو دونك ، ولا تنازع الأمر أهله ، ولا تطع السفهاء .

يا ابن جندب صل من قطعك ، واعط من حرمك ، وأحسن الى من أساء اليك ، وسلم على من سبك ، وانصف من خاصمك ، واعف عمن ظلمك كما أنك تحب أن يعفى عنك .

يا ابن جندب لا تتصدقن على اعين الناس يزكوك ، فانك ان فعلت ذلك فقد استوفيت اجرك ، ولكن إذا اعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك ، فان الذي تتصدق له سراً يجزيك علانية قد علم ما تريد (١) .

الى غير ذلك من وصاياه الجليلة لخواصه واصحابه واهل بيته وغيرهم (٢) مما هو جدير بان يجعل دستوراً لنظام الحياة ، فقد كان يبذل جهده لتطهير النفوس من الارجاس الطبيعية البشرية ، ومكافحة الشهوات البهيمية ، واتخاذ أنجع الوسائل لتحقيق غرضه السامي ، فكان كلامه يسيل على سامعيه رقة وعذوبة تحكم على مستمعه الاستزادة لما يبدو من خلاله صورة من التعاليم الاسلامية الحقة ، يلقيها مخلص قد توخى الخير للمتعلم ، وابداء النصيحة الخالصة التي لا تشوبها شائبة ، فهو ينقشها على صفحات قلوب الخلص منهم ، فلا تنمحي وان كثرت عوامل المحو .

وها نحن ذا نقدم من نصائحه نبذاً قصيرة هي جوامع الكلم وآيات بينات فى الادب والبلاغة وفرقان حكيم جاء بالفلسفة الخلقية .

(*) يقال شاره عابه وازدرى به .

(١) انظر تحف العقول ص ٧٣ — ٧٥ وهي طويلة اقتطفنا منها هذه الجمل .

(٢) تجد الكثير منها فى الوسائل والسكان وحلية الاولياء وتحف العقول وغيرها

جوامع الكلم :

* اتقوا الله وكونوا إخوة بررة متحابين في الله ، متواصلين ، متراحمين ، تزاوروا وتلاقوا .

* اتقوا الظلم فان دعوة المظلوم تصعد الى السماء .

* من لم يهتم بامور المسلمين فليس بمسلم ، إن رسول الله (ص) قال : من أصبح لا يهتم بامور المسلمين فليس منهم ، ومن سمع رجلاً ينادي يا المسلمين فلم يجبه فليس بمسلم .

* صدقة يحبها الله : إصلاح بين الناس اذا تفاسدوا ، وتقارب بينهم اذا تباعدوا .

* المؤمن من طاب مكسبه ، وحسنت خليقته ، وصحت سريرته ، وانفق الفضل من ماله ، وامسك الفضل من كلامه ، وكفى الناس شره ، وانصف الناس من نفسه .

* المؤمن حسن المعونة . خفيف المؤونة ، جيد التدبير لمعاشه ، ولا يلسع من جحر مرتين .

* اجعلوا أمركم هذا لله ، ولا تجعلوه للناس ، فانه ما كان لله فهو لله ، وما كان للناس فلا يصعد الى الله .

* إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون فانه ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك .

* لا تمارين حليما ولا سفيها ، فان الحليم يقليك ، والسفيه يؤذيك .

* إياكم والخصومة ، فانها تشغل القلب ، وتورث النفاق ، ومن زرع العداوة حصد ما بذر ، ومن لم يملك غضبه لم يملك عقله .

* كان ابي يقول : اي شيء اشد من الغضب ؟ ان الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله ، ويقذف المحصنة .

* من كافأ السفيه بالسفه فقد رضي بما اوتي اليه حيث احتذى مثاله .

* من عذر ظالماً بظلمه ، سلط الله عليه من يظلمه ، فان دعا لم يستجب له ، ولم يؤجره الله على ظلامته .

* احذروا اهواءكم كما تحذرون اعداءكم ، فليس شيء اعدى للرجال من اتباع اهوائهم ، وحصائد السنتهم .

* من ساء خلقه عذب نفسه .

* العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق ، لا تزيده سرعة السير الا بعداً .

* من أكرمك فأكرمه ، ومن استخف بك فاكرم نفسك عنه .

* إياكم والمزاح فانه يذهب بماء الوجه .

* لا شيء أحسن من الصمت ، ولا عدو أضر من الجهل . ولا داء ادوى من الكذب .

* المؤمن مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

* العدل احلى من الماء يصيبه الظمآن .

* ما أوسع العدل وإن قل .

* من كف يده عن الناس ، فانما يكف يداً واحدة ويكفون عنه ايدي كثيرة .

* من كان له عقل كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة .

* الفقهاء امناء الرسل فاذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا الى السلاطين فاتهموهم .

* اذا بلغك عن اخيك شيء يسوءك فلا تغتم ، فان كان كما يقول كانت عقوبة عجلت ، وان كان على غير ما يقول كانت حسنة لم يعملها .

* لا يتم المعروف إلا بثلاثة : بتعجيله ، وتصغيره ، وستره .

* بُني الانسان على خصال ، فما بُني عليه انه لم يبن على الخيانة والكذب .

* ثلاثة تورث المحبة : الدين ، والتواضع ، والبذل .

* من برىء من ثلاث نال ثلاثة : من برىء من الشر نال العز ، ومن برىء من الكبر نال الكرامة ، ومن برىء من البخل نال الشرف .

* ثلاثة مكسبة للبغضاء : النفاق ، والعجب ، والظلم .

* آفة الدين الحسد ، والعجب ، والفخر .

* إن المؤمن يغبط ولا يحسد .

* اتقوا الله واعدلوا فانكم تعيبون على قوم لا يعدلون .

* ما قدست امة لم يؤخذ لضعيفها من قويها بحقه .

* ويل لقوم لا يدينون الله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

* ثلاثة يحجزن عن طلب المعالي : قصر الهمة ، وقلة الحياء ، وضعف الرأي

* ثلاثة يجب على كل انسان تجنبها : مقارنة الاشرار ، ومحادثة النساء ، ومجالسة أهل البدع .

* ثلاثة اشياء يحتاج اليها الناس طراً : الامن ، والعدل ، والخصب .

* ثلاثة تكدر العيش : السلطان الجائر ، والجار السوء ، والمرأة البذية .

* الصلة وحسن الجوار : يعمران الديار ويزيدان في الاعمار .

* ليس منا من لم يحسن مجاورة جاره .

* من رزق ثلاثاً نال الغنى الأكبر : القناعة بما أعطي ، واليأس مما في ايدي الناس ، وترك الفضول .

* ليس بحازم من لا ينظر في العواقب والنظر في العواقب تلقيح القلوب .

* اذا رأيتم العبد متفقداً لذنوب الناس ناسياً لذنوبه ، فاعلموا أنه قد مكر به.

* اقصر نفسك عما يضرها من قبل أن تفارقك ، واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك ، فان نفسك رهينة بعملك .

* تعوذوا بالله من سطوات الليل والنهار ، قيل وما هي؟ قال الأخذ على المعاصي.

* لا تشاور احمق ، ولا تستعن بكذاب ، ولا تثق بمودة الملوك : فان الكذاب يقرب لك البعيد ، ويبعد لك القريب ، والاحمق يجهد لك نفسه ، ولا يبلغ ما تريد ، والملوك أوثق ما كنت به خذلك ، واوصل ما كنت له قطعك.

* بطانة السلطان ثلاث طبقات : طبقة موافقة للخير ، وهي بركة على السلطان ، وطبقة غايتها المحاماة على ما في ايديها ، فتلك لا محمودة ولا مذمومة ، بل هي الى الذم أقرب ، وطبقة موافقة للشر وهي مشوبة مذمومة عليها وعلى السلطان.

* لا يستغني أهل كل بلد عن ثلاث ، فان عدموا ذلك كانوا همجاً : فقيه عالم ورع ، وامير خيّر مطاع ، وطبيب بصير ثقة .

* الاخوان ثلاثة : مواس بنفسه ، وآخر مواس بما له ، وهما الصادقان في الاخاء ، وآخر يأخذ منك البلغة ويريدك لبعض اللذة ، فلا تعده من أهل الثقة .

* كفى بالحلم ناصراً .

* ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عزاً في الدنيا والآخرة .

* ما يقدم المؤمن على الله عز وجل بعمل بعد الفرائض أحب الى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه .

* صنائع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة .

* من زرع العداوة حصد ما بذر .

* من دخله العجب هلك .

* العجب كل العجب ممن يعجب بعمله ، ولا يدري بما يختم له .

* ما من رجل تكبر أو تجبّر إلا لذلة وجدها في نفسه .

* إذا كان الزمان زمان جور وأهله أهل غدر ، فالطمأنينة الى كل أحد عجز .

* إذا أردت أن تعلم صحة ما عند أخيك ، فاغضبه فان ثبت لك على المودة فهو اخوك وإلا فلا .

* لا تثقن بأخيك كل الثقة ، فان سرعة الاسترسال لا تقال .

* المؤمن حسن المعونة خفيف المؤونة جميل التدبير لمعيشته ، ولا يلسع من حجر مرتين .

* من صحة يقين المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله ، ولا يلومهم على ما لم يؤته الله ، فان الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهية كاره .

* خف الله كأنك تراه ، وإن كنت لا تراه فانه يراك ، وإن كنت تراه أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم انه يراك ثم برزت له بالمعصية، فقد جعلته من أهون الناظرين اليك .

* أيما اهل بيت أُعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق . والرفق في المعيشة خير من السعة في المال ، والرفق لا يعجز عنه شيء ، والتبذير لا يبقى معه شيء .

* اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار ، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم .

* إنما المؤمن الذي اذا غضب لم يخرجه غضبه من حق ، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل .

* اتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً .

* ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاتها بأفسد فيها من حب المال والشرف في دين المسلم .

* ثلاثة هم أقرب الخلق الى الله يوم القيامة : رجل لم تدعه ـ قدرته في حال غضبه ـ أن يحيف على من تحت يديه ، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر ، ورجل قال الحق فيما له وعليه .

* للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويقول ما لم يعلم ، ويتعاطى ما لا ينال .

* اتقوا الله فى الضعيفين : اليتيم ، والنساء .

* وقال المفضل بن زيد : أنهاك عن خصلتين فيها هلك الرجال : أن تدين الله بالباطل ،وتفتي الناس بما لا تعلم .

* لا يطمعن ذو الكبر فى الثناء الحسن ، ولا الخب في كثرة الصديق ، ولا السيء الادب فى الشرف ، ولا البخيل فى صلة الرحم ، ولا المستهزىء فى صدق المودة ، ولا القليل الفقه في القضاء ، ولا المغتاب فى السلامة ، ولا الحسود فى راحة القلب ، ولا المعاقب على الذنب الصغير في السؤدد ، ولا القليل التجربة المعجب برأيه في رياسة .

* ان السفه خلق لئيم يستطيل على من دونه ويخضع لمن فوقه ، إياك وما تعتذر منه .

* طبعت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها .

* من غضب عليك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوء اتخذه لك خلاً ، ومن أراد أن تصفو له مودة اخيه فلا يماريه ولا يمازحه ولا يعده ميعاداً فيخلفه .

* لا تخالطن من الناس خمسة : الاحمق ، فانه يريد أن ينفعك فيضرك ، والكذاب فان كلامه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد منك القريب ، والفاسق فانه يبيعك بأكلة ، والبخيل فانه يخذلك احوج ما تكون اليه ، والجبان فانه يسلمك .

* ثلاثة تجب لهم الرحمة : غني افتقر ، وعزيز قوم ذل ، وعالم تلاعب به الجهال .

* اذا أراد الله برعية خيراً ، جعل لهم سلطاناً رحيما ووزيراً عادلا .

* إنما المؤمنون اخوة بنو أب وام ، واذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخر .

* قال حفص بن ابي البختري: كنت عند ابي عبدالله الصادق ودخل عليه رجل ، فقال لي : أتحبه ؟ قلت : نعم ، قال : ولم لا تحبه ؟ وهو اخوك وشريكك في دينك ، وعونك على عدوك ، ورزقه على غيرك .

* الانتقاد عداوة ، وقلة الصبر فضيحة ، وإفشاء السر سقوط .

* إياكم والنظرة ، فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة ، طوبى لمن جعل بصره في قلبه ولم يجعل بصره في عينه .

هذا قليل من كثير في هـــذا الباب فان تراثه الفكري وتعاليمه القيمة

لا يمكننا الاحاطة بها الآن . ومن الخير للعلم والانسانية أن يضاعف العاملون منا جهودهم لجمع المتفرق من ذلك التراث الثقافي الفكري من مظانه ، وهو كثير حافل . ولنا في تعاليمه كفاية على إيضاح ما كان يبذله من النصح لافراد الامة ، ويجهد نفسه في معالجة النفوس من امراض فواتن الدنيا ، وغريزة الطمع التي تحول خير المجتمع الى شر يسلب راحة الضمير ، ويودع فيه القلق والنكد ، ويفتح باب الظلم والتباغض .

وقد اعتمدنا في نقل هذه التعاليم القيمة على المراجع التالية :

(١) ـ الكافي	لمحمد بن يعقوب الكليني
(٢) ـ تحف العقول	لابي محمد الحسن بن علي بن شعبة
(٣) ـ الوسائل	لمحمد بن الحسن الحر العاملي
(٤) ـ حلية الأولياء	للحافظ ابي نعيم الاصفهاني
(٥) ـ جامع السعادات	للنراقي
(٦) ـ الروضة	للحافظ النيسابوري
(٧) ـ الخصال	للشيخ الصدوق
(٨) ـ المحاسن	للبرقي
(٩) ـ الامام الصادق	للمظفر
(١٠) ـ الاثنى عشرية	لابن قاسم الحسيني

وغيرها من كتب الاخلاق والحديث والتاريخ مما يطول بيانه .

* * *

هذا من الناحية الاخلاقية والتعاليم الاسلامية . أما ما يتصل بناحية العلوم من تفسير وفقه وحديث وحكمة وكلام وغيرها ، فليس هذا محل التعرض لذلك ، وستقف على البعض منه في مطاوي البحث ، وعند التعرض لآرائه وفقهه في الاجزاء القادمة .

تلامذة ورواة حديثه

لابد لنا ـ ونحن فى معرض البحث عن مدرسة الامام الصادق ـ أن نشير الى التدخل السياسي واثره العظيم في معارضة انتشار احاديث أهل البيت. ولا يسعنا بسط القول فى ذلك، لضيق المجال واتضاح تلك الامور التي لا تخفى على المتتبع، وقد تركزت مدرسة أهل البيت رغم تلك العوارض. ونحن إذا أردنا أن نسجل تلك المعارضات السياسية نخرج عن حدود الموضوع.

ولم يكن الامويون بالاخص يتخذون ألاعيب سياستهم من وراء الستر ويعارضون أهل البيت من طريق الخفاء والتكتم ـ كما فعلته الدولة العباسية فى أول عهدها ـ بل امرهم ظاهر لا خفاء عليه. وأهم شيء تتركز عليه دعائم الدولة هي العداء لأهل البيت، وعقاب أنصارهم. وعلى اي حال فان الامويين لم يجعلوا للناحية العلمية كبير اهتمام، إلا ما يتصل بمصالحهم، فسياستهم منفصلة عن الدين، ولكنهم لم يهملوا ناحية الحديث. فقد كانوا يصبون جام غضبهم على من يروي عن أهل البيت أو ينقل عنهم فتوى، لأن ذلك يمس شؤون الدولة، فابعدوا الفقهاء الذين يقفون لجانب الحق ولا يرعون جانب أغراض الدولة ومصالحها الخاصة، وقربوا اليهم من جعلوه قنطرة للوصول الى تلك الاغراض، كما انهم اتخذوا مواليهم للفتيا ورفعوا من شأنهم. كسليمان بن موسى الاشدق مولاهم الاموي المتوفى سنة ١١٩ كان مفتي دمشق وعالمها، وعبدالله بن ذكوان المتوفى سنة ١٣٠ مولاهم الاموي أحد الرواة عن ابي هريرة. قال الليث: رأيت أبا الزناد وخلفه ثلثمائة طالب: وقال الذهبي: ولي بعض امور بني امية.

وغيرهم من الموالي الذين شجعهم الامويون ، وجعلوا لهم منزلة في المجتمع ويداً في التشريع الاسلامي . منهم :

نافع مولى بن عمر المتوفى سنة ١١٧ .

وسليمان بن يسار اخو عطاء المتوفى سنة ١٠٧ جعلوه للفتيا في المدينة .

ومكحول مولى بني هذيل المتوفى سنة ١١٣ كان عالم دمشق ومرجع الفتيا

وأبو حازم سلمة بن دينار الاعرج مولى بني مخزوم المتوفى سنة ١٤٠، كان عالم المدينة ومفتيها .

وسليمان بن طرخان المتوفى سنة ١٤٣ .

واسماعيل بن خالد البجلي مولاهم المتوفى سنة ١٤٥ .

وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة ١٠٥. وناهيك ما لعكرمة من منزلة لاحاديثه وافاعيله ، وغيرهم مما يطول ذكرهم .

فقد كان الامويون يقربون من يرون فيه أهلية لتنفيذ أغراضهم . ولذلك غضبوا على سعيد بن المسيب المتوفى سنة ٩٣ وضربوه وشهروه في المدينة، لانه خالف غرض الدولة ، ولقي غيره من العلماء تنكيلاً في سبيل ذلك .

وخلاصة القول ان الامويين كان اتجاههم للسياسة وابتعدوا عن شؤون الدين ، فكان من سياستهم أن يقبلوا قول كل أحد ولا يسمعون لقول أهل البيت، ويعاقبون من يذكرهم في ذلك ، كما يحدثنا الامام ابو حنيفة عند ما دعي ليسأل عن مسألة فقهية من قبل أحد الامويين قال أبو حنيفة : فاسترجعت في نفسي لاني اقول فيها بقول علي رضى الله عنه وادين الله به ، فكيف أصنع ؟ ثم عزمت ان أصدقه وافتيه بالدين الذي ادين الله به ، وذلك ان بني امية كانوا لا يفتون بقول علي ، ولا يأخذون به — الى ان يقول — : وكان علي لا يذكر في ذلك باسمه ،

وكانت العلامة بين المشايخ أن يقولوا : قال الشيخ . وكان الحسن البصري يقول فيه : اخبرنا ابو زينب (١) ... الخ

ويعطينا الحسن البصري (٢) صورة جلية عن ذلك الاهتمام والجهد الذي بذله الامويون في معارضة حديث أهل البيت فقد كان الحسن مع قربه من الدولة وعظيم منزلته في المجتمع اذا أراد أن يحدث عن علي يقول : قال ابو زينب . ويظهر الابتعاد عن علي حتى ظهر منه ما يوجب الانكار عليه فقال له أبان بن عياش : ما هـذا الذي يقال عنك انك قلته في علي ؟ . فقال : يا بن اخي احقن دمي من هؤلاء الجبابرة ـ يعني بني امية ـ لولا ذلك لسالت بي اعشب(٣).

ولسنا بحاجة الى اقامة الدليل على عظيم اهتمام الامويين فى معارضة حديث أهل البيت وخصومتهم لهم ومعاقبة من يتقرب اليهم .

يقول الشعبي: ماذا لقينا من آل ابي طالب ؟ ان احببناهم قتلنا، وان ابغضناهم دخلنا النار (٤) وقد برهن الامويون على ذلك بما احتفظ التاريخ بكثير منه .

❊ ❊ ❊

وعلى أي حال فقـد اشتدت المحنة على المسلمين ، واصبح الاكثر يجازف في حياته لاختراق تلك الخطوط . واجتياز تلك الحدود مما اوجب سخط الدولة عليهم .

ولما فسح المجال بضعف الدولة ووجـد المسلمون بعض الحرية ، ازدحموا

---

(١) انظر القصة والفتوى فى مناقب ابي حنيفة للمكي ج ١ ص ١٧١ .

(٢) هو الحسن بن ابى الحسن البصري مولى ام سلمة المتوفى سنة ١١٠ كان مناصراً لبني مروان ، فهي مدينة له بقوة دفاعه كما هي مدينة للحجاج بقوة بطشه حتى قيل : (لولا لسان الحسن البصري وسيف الحجاج لوئدت الدولة المروانية فى مهدها واخذت من وكرها) .

(٣) انظر الحسن البصرى لابى الفرج ابن الجوزى ص ٧ .

(٤) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ٢١٢ .

على أبواب أهل بيت النبوة لأخذ التعاليم ورواية الحديث ، فكانت للامام الباقر (ع) حلقة في المدينة لا تعقد أي حلقة علمية إلا بعد انتهائه من الحديث ، وكذا في مكة ، وقد احتفظ الحجاز بولائه لأهل البيت والمدينة بصورة خاصة ، وكان الناس بأشد ما يكون من الحاجة الى الأخذ من أهل المدينة ، لقرب عهدهم من الرسول وفيها علماء الصحابة ، وهم أقوى الناس في الحديث ، حتى أن اكثر الصحابة الذين كانوا فى سائر الاقطار يشدون الرحال الى المدينة ليتأكدوا من صحة ما يسمعون من الحديث ، وكثرت الهجرة الى دار الهجرة ، وتتابعت الوفود من أطراف البلاد ، ونشطت الحركة العلمية فى عصر الامام الصادق (ع) ورفعت الموانع ، فكان بيته جامعة اسلامية يؤمها طلاب العلم ورواد الحقيقة ، فكان عدد المنتمين لمدرسته اربعة آلاف رجل . وقد أفرد الحافظ ابو العباس أحمد بن عقدة ـ المتوفى سنة ٢٣٠ ـ فيهم كتاباً ذكر فيه اربعة آلاف رجل ممن روى الحديث عن الصادق . وذكر منهم الشيخ الطوسي ـ المتوفى سنة ٤٦٠ ـ ما يزيد على ثلاثة آلاف .

وقال الشيخ نجم الدين فى المعتبر : « روى عن الصادق أربعة آلاف رجل ، وبرز ـ بتعليمه من الفقهاء الأفاضل ـ جمٌ غفير ـ الى أن يقول ـ حتى كتبت من اجوبة مسائله اربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف ، سموها بالاصول »(١).

وليس من الغريب أن يترأس الامام الصادق تلك الحركة العلمية ، فقد كان يتصف بصفات الكمال التي بعثت الاعجاب فى نفوس الامة على اختلافهم في الآراء والمعتقدات . وله القدم الراسخ والباع الطويل فى كل علم ، والنظر الثاقب في جميع العلوم ، فاشتهر ذكره فى الحديث وسائر العلوم والفنون ، حتى

(١) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٥٨ ـ ٥٩ تجد الاقوال هناك .

وجد (في الكوفة تسعمائة شيخ كل يقول : حدثني جعفر بن محمد .

* * *

وقد ألف تلامذته المختصون به فى سائر العلوم والفنون . وها نحن ذا نشير الى البعض منهم إتماماً للغرض :

١ ـ أبان بن تغلب الربعي ابو سعيد الكوفي المتوفى سنة ١٤١ .

له كتاب (معاني القرآن) كتاب (القراءآت) ، كتاب من الاصول على مذهب الشيعة (١) .

٢ ـ علي بن يقطين المتوفى سنة ١٨٤ .

له كتاب ما سئل عنه الامام الصادق من امور الملاحم (٢) .

٣ ـ أبو حمزة ثابت بن صفيه الثمالي المتوفى سنة ١٥٠

له كتاب في التفسير ، وكان من تلامذة الباقر والصادق (٣) .

٤ ـ أبو بصير يحيي بن القاسم المتوفى سنه ١٥٠ وهو من تلامذة الباقر والصادق ، له تفسير القرآن ، ذكره ابن النديم .

٥ ـ علي بن حمزة :

ابي الحسن الكوفي البطائني من تلامذة الامام الصادق . له كتاب جامع أبواب الفقه ، ذكره النجاشي .

٦ ـ اسماعيل بن ابي خالد محمد بن مهاجر

له كتاب مبوب فى القضاء ، ذكره الشيخ الطوسي .

---

(١) انظر فهرست ابن النديم ص ٣٠٨ وستأتي ترجمة ابان فيما بعد .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر كشف الظنون ج ٢ ص ٤٤٤ وفهرست ابن النديم ص ٥٠ .

٧ ـ المفضل بن عمر الكوفي

له كتاب التوحيد الذي أملاه عليه الامام الصادق عندما التقى المفضل باحد الزنادقة وناظره ، وطلب من الامام ان يملي عليه بما يقوى به على مناظرة الزنادقة ، فأملى عليه الامام الصادق تلك الدروس القيمة التي تحتوي على دلائل التوحيد ، ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم من بيان هيئة العالم ، وتأليف اجزائه ، وكيفية خلق الانسان وتكوينه ، وكيفية ولادته وتغذيته ، وغرائزه وطبائعه ، وبيان الدماغ وعظمته ، وما فيه وفي سائر الاعضاء من عجيب الصنع ، وعظيم القدرة ، وذكر الفؤاد والنخاع ، والدم والاوردة والشرائين ، وبيان قوى البدن من جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة ، وبيان تركيب بدنه وتنسيق اعضائه وانتصاب القامة واعتدالها ، وبيان الحواس واعمالها واسرارها والوسائط التي بينها من ضياء وهواء ، وماهية الصوت وحقيقة الكلام ، والمنطق والكتابة وما اعطي الانسان من علم ، والاشياء المخلوقة لمآرب الانسان ، وما يتوقف عليه نظام حياته ـ الى غير ذلك .

وقد شرحه الاستاذ الطبيب الماهر محمد الخليلي شرحاً وافياً بالغرض ، وطبقه على العلوم الحديثة في مجلدين ، ولا يزال مخطوطاً نتمنى له الظهور لعالم النشر .

٨ ـ هشام بن الحكم المتوفى سنة ١٨٥ .

أبو محمد الشيباني الكوفي من تلامذة الامام الصادق وابنه موسى الكاظم (ع) ، له من الكتب : كتاب (الامام) . كتاب (حدوث الاشياء) . كتاب (الرد على الزنادقة) ، كتاب (الاكف) ، وغيرها . وقد ذكر له ابن النديم خمسة وعشرين كتاباً (١) .

(١) انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٥٠ .

٩ ـ محمد بن النعمان .

١٠ - ابو جعفر الاحول المعروف بـ (مؤمن الطاق) وتسميه خصومه (شيطان الطاق) من أصحاب أبي عبدالله لصادق ، كان متكلما حاذقاً ، له من الكتب : كتاب (الامامة) ، كتاب (المعرفة) ، كتاب (الرد على المعتزلة) ، كتاب في أمر طلحة والزبير (١) .

وغير هؤلاء من تلامذة الامام الصادق الذين الفوا فى عصره سائر العلوم والفنون ، كما ستقف عليه في بحث تدوين الفقه والحديث .

واليك عدداً من رجال الامة وعلماء الحديث الذين أخذوا العلم عن الامام الصادق ورووا احاديثه . ولا نذكر هنا إلا من وجدنا له ذكراً فى الصحاح الستة مستندين الى أهم المصادر واوثقها . منهم :

١ — ابراهيم بن سعد

ابراهيم بن سعد بن عبدالرحمن الزهري المتوفى سنة ١٨٣ أحد الاعلام ، ومن رجال الصحاح الستة ، روى عنه يزيد بن هرون واحمد بن حنبل وخلق كثير ، وثقه ابن معين ، وأبو حاتم ، والعجلي ، واحمد بن حنبل ، وروايته عن الصادق في التهذيب والكافي يرويها عنه ابنه يعقوب .

٢ — ابراهيم بن زياد

ابراهيم بن زياد البغدادي المتوفي سنة ٢٢٨ . روى له مسلم وابو داود والنسائي .

(١) انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٥٠ .

٣ — ابراهيم بن محمد

ابراهيم بن محمد بن يحيي الاسلمي ابو اسحق المدني المتوفى سنة ١٩١ .

٤ — ابراهيم بن طهمان

ابراهيم بن طهمان بن شعيب الهروي المتوفى سنة ١٦٨ .

كان أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة ، قال ابو نعيم : حدث عن جعفر بن محمد الصادق : وثقه احمد ، وابو داود ، وابو حاتم .

٥ — ابراهيم بن علي

ابراهيم بن علي بن الحسن بن رافع المدني .

روى عنه احمد بن محمد ، وابراهيم بن المنذر ، ويعقوب بن حميد . خرج حديثه ابن ماجة .

٦ — ابراهيم بن مهاجر الازدي

روى عنه حفص بن راشد وغيره ، ذكره الخطيب في المتفق .

٧ — ابراهيم بن محمد

ابراهيم بن محمد بن ابي يحيي المتوفى سنة ١٨٤ .

أحد الاعلام روى عنه الشافعي ووثقه ، والثوري ، ويحيي بن آدم . قال احمد بن حنبل : « كان قدرياً معتزلياً جهمياً كل بلاء فيه » . وقال ابن عقدة: « ليس بمنكر الحديث » . وقال ابن عدي : « هو كما قال ابن عقدة » . ذكره الشيخ الطوسي فى رجال الصادق ، وأن له كتاباً مبوباً فى الحلال والحرام

يرويه عن جعفر بن محمد . وقال بعض ثقات العامة : ان كتب الواقدي سائرها إنما هي منه .

٨ — بسام بن عبدالله

بسام بن عبدالله الصيرفي ابو الحسن الكوفي

وثقه احمد ويحيي بن معين . خرج له النسائي في صحيحه . قال ابن حجر : « صدوق من الخامسة » .

٩ — بشير بن ميمون

بشير بن ميمون الخراساني المتوفى سنه ١٨٠ .

سكن مكة ، وقدم بغداد ، وحدّث بها عن جعفر بن محمد ، فترك الناس حديثه ، نظراً لظروف سياسة الدولة التي تريد أن تطبع الناس بطابعها الخاص .

١٠ — تليد بن سليمان

تليد بن سليمان المحاربي ابو سليمان الكوفي الاعرج المتوفى سنة ١٩٠ ، روى عنه احمد بن حنبل واسحاق بن موسى ، خرّج حديثه الترمذي . قال ابن عقدة : إن له كتاباً عن الصادق يرويه عنه جماعة .

١١ — الجراح بن مليح

الجراح بن مليح الرؤاسي الكوفي المتوفى سنة ١٧٥ .

روى عنه ابنه وابو قتيبة ، وسفيان بن عقبة ، وابن مهدي . قال ابن سعد : ولي بيت المال ببغداد في خلافة هرون ، وكان ضعيفاً في الحديث .

روى له البخاري فى الأدب المفرد ، ومسلم فى صحيحه ، وابو داود والترمذي وابن ماجة . قال ابو احمد بن عدي : له أحاديث صالحة وروايات مستقيمة . وحديثه لا بأس به ، وهو صدوق .

١٢ — جرير بن عبدالحميد

جرير بن عبدالحميد بن قرط ابو عبدالله الرازي القاضي المتوفى سنة ١٨٨ .

روى عنه ابن راهويه ، وابنا ابي شيبة ، ويحي بن معين ، وموسى القطان ، ومحمد بن قدامة وغيرهم .

قال العجلي : كوفي ثقة نزل الري . وقال النسائي : ثقة . وقال ابوالقاسم : مجمع على ثقته ، وهو من رجال الصحاح الستة . عده الشيخ في رجاله من اصحاب الصادق . وقال ابن حجر فى التقريب: ثقة صحيح .

١٣ — حبيب بن النعمان

حبيب بن النعمان الاسدي أحد بني عمر بن أسد .

قال النجاشي : حبيب بن النعمان النجاشي رجل من بني أسد من أهل البادية ، له كتاب يرويه عن الصادق (ع) . وقال ابن حجر : حبيب بن النعمان مقبول من السادسة . وذكره بن حبان فى الثقات . روى له ابو داود وابن ماجة .

١٤ — حبيب بن يسار

حبيب بن يسار الكندي الكوفي

روى عنه زكريا بن يحي الحميري ، وابو الجارود ، ويوسف بن صهيب

وغيرهم . وثقه ابن معين ، وابو زرعة ، وابو داود . وذكره ابن حبان في الثقات.
قال ابن حجر : ثقة من الثالثة . ذكره الشيخ في رجال الصادق أخرج حديثه
الترمذي وأبو داود .

١٥ — الحسن بن عياش

الحسن بن عياش بن سالم الاسدي أبو محمد الكوفي المتوفى سنة ١٧٢ .
روى عنه ابن مهدي واحمد بن يونس . وثقه ابن معين والنسائي وابن
حبان . خرج له مسلم والترمذي والنسائي .

١٦ — الحكم بن عتيبة

الحكم بن عتبة ابو محمد الكندي مولاهم المتوفى سنة ١١٣ و ١١٤ .
روى عنه الأعمش ، ومنصور ، وابو اسحاق السبيعي ، والشيباني وغيرهم.
وهو من رجال الصحاح الستة .

ذكره النجاشي في رواة الصادق روى له في الكافي والتهذيب والنهاية .
قال ابن حجر : ثقة ثبت فقيه . وقال ابن عيينة : ما كان بالكوفة بعد ابراهيم
والشعبي مثل الحكم . وثقه ابو حاتم وابن معين . وقال العجلي : كان صاحب
سنة واتباع ، وكان فيه تشيع إلا أن ذلك لم يظهر منه .

ولعل تهمة التشيع لحقته لكثرة روايته عن الصادق ، نظراً لتلك الظروف.

١٧ — حميد بن حماد

حميد بن حماد بن خوار التميمي ابو الجهم الكوفي المتوفي سنة ١١٥

روى عنه زيد بن الحباب وابو كريب ، وثقه ابن حبان ، واخرج له ابو داود .

١٨ — الحارث بن عمير

الحارث بن عمير . خرّج حديثه الاربعة . وثقه بن معين وأبو زرعة وابو حاتم والنسائي .

١٩ — حميد بن قيس

حميد بن قيس الاعرج المتوفى سنة ١٣٠ من رجال الصحاح الستة .
روى عنه معمر والسفيانان ومالك بن انس .

٢٠ — حماد بن عيسى

حماد بن عيسى الجعفري المدني المتوفى سنة ٢٠٨ .
خرّج حديثه الترمذي وابن ماجة . وروى عنه ابو اسحاق الجوزجاني .

٢١ — الحرث بن عمران الاسدي

الحرث بن عمران الاسدي . روى عنه ابو سعيد الاشج ، وخرّج حديثه ابن ماجة .

٢٢ — حاتم بن اسماعيل

حاتم بن اسماعيل المدني ابو اسماعيل الحارث المتوفى سنة ١٨٦ ـ ١٨٧ .
روى عنه يحي بن سعيد القطان وغيره . خرّج حديثه اصحاب الصحاح الستة

٢٣ — داود بن الزبرقان

داود بن الزبرقان الرقاشي ابوعمر البصري ثم البغدادي المتوفى سنة ١٨٦.
روى عنه سعيد بن عروبة ، وبقية وعلي بن حجر . ذكره في جامع الرواة
وعده ابن حجر من الطبقة الثامنة . خرج حديثه الترمذي وابن ماجة .

٢٤ — الربيع بن حبيب

الربيع بن حبيب العبسي مولاهم الكوفي
روى عنه وكيع وغيره . وثقه ابن معين . وقال البخاري : منكر الحديث
خرج حديثه ابن ماجة .

٢٥ — رحيل

رحيل - بالمهملة مصغر - ابن معاوية بن حديج الجعفي
روى عنه أخوه زهير ، وشجاع بن الوليد . وثقه ابن حبان . وخرج
حديثه ابو داود والترمذي . قال ابن حجر : صدوق من السابعة .

٢٦ — رقبة

رقبة (١) بن مصقلة العبدي الكوفي ابو عبدالله المتوفى سنه ١٢٩ .
روى عنه سليمان التيمي ، وابو عوانة ، وابن فضل . قال احمد : ثقة مأمون
وعدّه ابن حجر من السادسة . خرج حديثه البخاري ومسلم والترمذي وابو داود
والنسائي وابن ماجة في التفسير .

---

(١) رقبة : بقاف وموحدة مفتوحتين . وما في جامع الرواة من أنه بالفاء والمثناة اشتباه من النساخ .

٢٧ — الركين بن الربيع

الركين بن الربيع بن عميلة ابو الربيع الكوفي المتوفى سنة ١٣١.

روى عنه شعبة والثوري ومعتمر بن سليمان . وثقه النسائي ، وخرج حديثه البخاري فى الأدب المفرد ، ومسلم في صحيحه والاربعة . قال ابن حجر : ثقة من الرابعة .

٢٨ — زكريا بن اسحاق

زكريا بن اسحاق المكي المتوفى سنة ١٤٨.

وثقه البخاري وابو داود وابن معين . وهو من رجال الصحاح الستة ، وكان يرمى بالقدر . ذكره ابن معين وابن حجر .

٢٩ — زياد بن سعد

زياد بن سعد الخراساني ابو عبدالرحمن المكي نزيل اليمن .

روى عنه ابن جريج وهمام ومالك بن انس ، وهو من رجال الصحاح الستة . قال النسائي : ثقة ثبت . ذكره ابن حجر في الطبقة السادسة .

٣٠ — زيد بن عطاء

زيد بن عطاء بن السائب الكوفي الثقفي . روى له الترمذي وابو داود

٣١ — زهير بن محمد التميمي

زهير بن محمد التميمي ابو المنذر الخراساني المتوفى سنة ١٦٢ تقدم في ج ١ ص ١٦١

٣٢ — زيد بن الحسن

زيد بن الحسن القرشي الانماطي .

روى عنه اسحق وابن المديني . وخرج حديثه الترمذي في صحيحه .

٣٣ — سعيد بن سالم

سعيد بن سالم القداح ابو عثمان الكوفي .

روى عنه الشافعي ويحيي بن آدم . قال ابو داود : صدوق يذهب الى الارجاء . وقال ابن حجر : صدوق يهم ، رمي بالارجاء وكان فقيهاً من كبار التاسعة . خرج حديثه ابو داود والنسائي .

٣٤ — سعيد بن عبدالجبار

سعيد بن عبدالجبار الزبيدي أبو عثمان الحمصي ، خرج له ابن ماجة روى عنه محمد المقدمي .

٣٥ — سعيد بن عبدالرحمن

سعيد بن عبدالرحمن الجمحي ابو عبدالله المدني المتوفى سنة ١٧٦ .

وثقه ابن معين ، وروى عنه ابن وهب ومحمد بن سليمان وعلي بن حجر روى له مسلم وابو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة .

٣٦ — سلمة بن كهيل

سلمة بن كهيل الحضرمي أبو يحيي الكوفي المتوفى سنة ١٢١ .

روى عنه ابنه يحيي وشعبة وحماد بن سلمة ، وهو من رجال الصحاح

الستة . قال ابن المديني : له نحو مائتين وخمسين حديثاً . وثقه احمد . وقال ابن حجر : ثقة في الرابعة . كان من البترية . وكان من تلامذة الباقر والصادق ، وقد ذمه الامام الباقر مع جماعة بقوله : إنهم أضلوا كثيراً ممن ضل من هؤلاء ، وإنهم ممن قال الله عز وجل :

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) .

٣٧ — سليمان بن مهران

سليمان بن مهران الاسدي الكاهلي أبو محمد الكوفي الاعمش المتوفي سنة ١٤٧ ـ ١٤٨ أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة ، ورؤساء المذاهب البائدة . تقدمت ترجمته في ج ١ ص ١٣٥ من هذا الكتاب . روايته عن الصادق ـ في كتاب من لا يحضره الفقيه ـ في نكت الحج .

٣٨ — سفيان الثوري

سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبدالله الكوفي المتوفى سنة ١٦١ أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة ، ورؤساء المذاهب البائدة . كان كثير التردد على الامام الصادق ، وله أخبار كثيرة يرويها عنه ابن داود ، والحلبي ، والكشي . تقدمت ترجمته في ج ١ ص ٦٠ من هذا الكتاب وفي ص ١٣٠ منه .

٣٩ — سفيان بن عيينة

سفيان بن عيينة بن ابي عمران المتوفى سنة ١٩٨ تقدم في ج ١ ص ٦٠ من هذا الكتاب و ١٣٠ منه . وهو أحد رؤساء المذاهب البائدة .

٤٠ — سعيد بن عبدالرحمن

سعيد بن عبدالرحمن الجمحي المتوفى سنة ١٧٦ أحد الاعلام . روى له اصحاب الصحاح ما عدا البخاري ، وثقه احمد وغيره . وذكره الشيخ الطوسي .

٤١ — سعيد بن مسلمة

سعيد بن مسلمة بن هشام الاموي المتوفى في حدود سنة ٢٠١ من شيوخ الشافعي خرّج حديثه الترمذي وابن ماجة .

٤٢ — سنان بن هرون

سنان بن هرون البرجمي ابو بسر الكوفي ، روى عنه وكيع ومحمد بن سليمان . خرج له الترمذي في صحيحه .

٤٣ — سعيد بن طريف

سعيد بن طريف الحنظلي الاسكافي الكوفي .

روى عنه اسرائيل وابن علية . خرّج حديثه الترمذي وابن ماجة .

قال ابن حجر : كان رافضياً من السادسة .

عدّه الشيخ من اصحاب الصادق ورواياته مطروحة وغير مستقيم .

٤٤ — سعيد بن ابي خثيم

سعيد بن ابي خثيم بن رشد الهلالي ابو معمر الكوفي المتوفى سنة ١٨٠ روى عنه احمد بن حنبل وعبدالله بن ابي شيبة . وثقه ابن معين وغيره .

قال فى التقريب : ابو معمر الكوفي صدوق رمي بالتشيع خرَّج له الترمذي والنسائي .

٤٥ — سعيد بن حسان

سعيد بن حسان المخزومي المكي القاضي . روى عنه السفيانان ، وابواحمد الزبيري . وثقه ابن معين . وعدَّه الشيخ من أصحاب الصادق . وقال ابن حجر صدوق له أوهام من السادسة . خرَّج حديثه مسلم والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة .

٤٦ — سعيد بن سالم

سعيد بن سالم القداح ابن عثمان المكي ، أصله من خراسان أو الكوفة .
قال ابن حجر : صدوق يرمى بالارجاء ، وكان فقيهاً من كبار التاسعة .

روى عنه الشافعي ويحيى بن آدم . قال ابن معين : ليس به بأس . وقال ابو داود وابن عدي : صدوق يذهب الى الارجاء . خرَّج له ابو داود والنسائي .

٤٧ — سالم بن عبدالواحد

سالم بن عبدالواحد المرادي ابو العلاء الكوفي . روى عنه الصباح بن محارب ووكيع . خرج له الترمذي . قال ابن حجر : مقبول . وقال الخزرجي : ضعفه ابن معين ، ووثقه ابن حبان .

٤٨ — شعبة بن الحجاج

شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي ، مولاهم ابو بسطام المتوفى سنة ١٦٠

الحافظ أحد الأئمة الاعلام . قال ابن المدايني : له نحو الفي حديث .
وقال احمد : شعبة امة واحدة وهو من رجال الصحاح الستة . روى عن الامام
الصادق وحضر عنده . وروايته عنه في التهذيب . يروي عنه يحيي بن ابي بكر
تقدمت ترجمته في ج ١ ص ٦٠ من هذا الكتاب .

٤٩ — شرجيل بن مدرك

شرجيل بن مدرك الجعفي الكوفي .
وثقه ابن معين، وخرَّج حديثه النسائي. قال ابن حجر. صدوق من الخامسة .

٥٠ — شعيب بن خالد

شعيب بن خالد البجلي . عده ابن حجر في التقريب من الطبقة السابعة :
قال النسائي : ليس به بأس خرَّج حديثه ابو داود .

٥١ — الضحاك بن مخلد

الضحاك بن مخلد الشيباني ابو عاصم النبيل المتوفى سنة ٢١٢ والمتولد سنة ١٢٢
البصري الحافظ أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة . من شيوخ
البخاري واحمد وابن المدايني وغيرهم . قال النجاشي : روى عن جعفر بن محمد
كتاباً ، يرويه عنه هارون بن مسلم وعباس بن محمد بن حاتم . وذكر ذلك
في الخلاصة ايضاً .

٥٢ — طلحة بن زيد

طلحة بن زيد القرشي ابو مسكين الرقي
روى عنه شيبان بن فروخ ، رماه احمد وابن معين بالوضع ، روى له ابن ماجة

٥٣ — عاصم بن عمر

عاصم بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب .

وثقه ابن حبان ، وضعفه أحمد . روى عنه ابو داود الطيالسي ، وابن وهيب . خرّج له الترمذي وابن ماجة .

٥٤ — عاصم بن حميد

عاصم بن حميد الحناط ، وثقه ابو زرعة . وقال ابن حجر : صدوق من السابعة .

٥٥ — عاصم بن سليمان

عاصم بن سليمان البصري ابو عبدالرحمن المعروف بالسكوزي المتوفى سنه ١٤١ أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة .

٥٦ — عامر بن السمط

عامر بن السمط التميمي السكوفي أبو كنانة . وثقه ابن حجر وابن القطان ، وخرّج له النسائي في مسند علي .

٥٧ — عتبة بن عبدالله

عتبة بن عبدالله بن عتبة بن عبدالله بن مسعود ابو العميس الهذلي .

روى عنه شعبة ، وابو معاوية ، وابو اسامة . وثقه أحمد وابن معين .

خرّج حديثه اصحاب الصحاح الستة ، له نحو اربعين حديثاً .

٥٨ — عثمان بن فرقد

عثمان بن فرقد العطار البصري . روى له البخاري والترمذي ، تقدمت ترجمته .

٥٩ — عثمان بن عبدالرحمن

عثمان بن عبدالرحمن بن عمر بن سعد بن ابي وقاص الزهري ابو عمر المدني الوقاص ، ويقال له المالكي نسبة الى جده الاعلى ابي وقاص مالك المتوفى في خلافة الرشيد .

كذبه ابن معين ، قال ابن حجر متروك .

٦٠ — عثمان بن مطر

عثمان بن مطر البصري الشيباني . روى عنه مسلم بن ابراهيم . وخرّج حديثه ابن ماجة .

٦١ — عطاء بن مسلم

عطاء بن مسلم الخفاف الحلبي ابو مخلد المتوفى سنة ١٩٠

روى عنه ابن المبارك ، وابو توبة ، وعبدالرحمن بن يزيد ، وهشام بن عمار . وثقه ابن معين ، وخرّج حديثه الترمذي في الشمائل ، والنسائي في السنن .

٦٢ — علي بن صالح

علي بن صالح ابو الحسن الهمداني الكوفي المتوفى سنة ١٥١ .

خرّج له مسلم والاربعة ، وروى عنه ابن نمير ووكيع وابو نعيم . وثقه

احمد ، وابن معين . قال ابن المديني : له نحو ثمانين حديثاً ، وقال ابن حجر : ثقة عابد من الطبقة التاسعة .

٦٣ — العوام بن حوشب

العوام بن حوشب الشيباني الربعي ابو الحرث الواسطي المتوفى سنة ١٤٨ . أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة . قال العجلي ثقة روى عنه نحو مائتي حديث .

٦٤ — عيسى بن عمر

عيسى بن عمر الاسدي الكوفي المتوفى سنة ١٥٦ المعروف بالهمداني . روى عنه ابن المبارك ووكيع . وثقه ابن معين والنسائي . خرّج له الترمذي والنسائي .

٦٥ — عبدالجبار

عبدالجبار بن العباس الهمداني الشامي .

روى عنه مسلم بن قتيبة ، وابن المبارك . قال أبو حاتم ، وابن حجر : صدوق روى له البخاري فى الادب المفرد ، والترمذي فى صحيحه .

٦٦ — عبد العزيز

عبدالعزيز بن عبد الله بن ابي سلمة الماجشون التميمي مولاهم المدني المتوفى سنة ١٦٦ . أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة . روى عنه الليث وابن مهدي ، وخلق كثير . وثقه ابن سعد ، وابن حبان . وقال ابن معين : ثقة كان

يرى القدر ، ثم رجع . ذكره الشيخ والاردبيلي والاسترابادي فى رواة حديث الصادق (ع) .

٦٧ — عبدالعزيز

عبدالعزيز بن المطلب بن عبدالله المخزومي المدني المتوفى في خلافة المنصور روى له البخاري فى الادب المفرد ، ومسلم والترمذي فى الصحيح وابن ماجة في السنن .

٦٨ — عبدالوهاب

عبدالوهاب بن عبدالمجيد بن الصلت المتوفى سنة ١٩٤ .
من شيوخ الشافعي، واحمد بن حنبل، ويحيى بن معين ، وابن المديني وغيرهم

٦٩ — عبدالملك بن جريج

عبدالملك بن جريج أحد الاعلام ، ومن رجال الصحاح توفي سنة ١٤٩ .
تقدمت ترجمته في الجزء الاول من هذا الكتاب .

٧٠ — عبدالله بن رجاء

عبدالله بن رجاء المكي أبو عمران البصري .
روى عنه أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين واسحق وخلق كثير .
خرّج حديثه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة . وثقه ابن معين ، وأبو حاتم ، وابن سعد .

٧١ — عبدالله بن جعفر

عبدالله بن جعفر بن نجيح السعدي مولاهم المدني المتوفى سنة ١٧٨ .
روى عنه قتيبة وعلي بن حجر . خرّج حديثه الترمذي وابن ماجة .

٧٢ — عبدالله بن جعفر

عبدالله بن جعفر بن عبدالرحمن بن المسور بن مخرمة ابو محمد المدنى المتوفى سنة ١٧٠ ، وثقه العجلي . وقال ابن معين : صدوق . خرّج حديثه مسلم والاربعة

٧٣ — عبدالله بن الزبير

عبدالله بن الزبير بن عيسى الأسدي المكي المتوفى سنة ٢١٩ .
من شيوخ البخاري . خرج له فى صحيحه ، وروى له أبو داود الترمذي، وابن ماجة في التفسير ، له كتاب عن الصادق يرويه عنه يعقوب الاسدي .

٧٤ — عبدالله بن زياد

عبدالله بن زياد بن سليمان بن سمعان ابو عبد الرحمن المدني قاضيها .
مولى ام سلمة خرّج له ابن ماجة . ورماه ابن معين بالكذب . وقال البخاري : اسكتوا عنه .

٧٥ — عبدالله بن ابي بكر

عبدالله بن ابي بكر بن محمد بن حزم الانصاري المتوفى سنة ١١٦ وقال ابن سعد سنة ١٣٥ .

روى عنه الزهري والسفيانان ، وهشام بن عروة . وهو من رجال الصحاح الستة .

٧٦ — عبيدالله بن عمر

عبيدالله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب ابو عثمان المدني المتوفى سنة ١٤٧ . أحد الفقهاء السبعة والعلماء الاثبات . ومن رجال الصحاح الستة . روى عنه شعبة والسفيانان والليث ومعمر وخلق كثير . وذكر حديثه عن الصادق ابو نعيم فى الحلية . وعده الشيخ وغيره من رجاله .

٧٧ — علي بن هاشم

علي بن هاشم بن البريد العابدي ابو الحسن الكوفي المتوفى سنة ١٨٠ . أحد الأعلام ومن شيوخ أحمد بن حنبل .واحمد وابن معين ، وابن منيع ، وغيرهم . خرّج حديثه البخاري في الأدب المفرد ، ومسلم في صحيحه والاربعة .

٧٨ — عمرو بن خالد

عمرو بن خالد القرشي . مولى بني هاشم . روى عنه اسماعيل بن يونس ، وعباد بن كثير البصري ، وجعفر ابن زياد ، وغيرهم . خرّج حديثه ابن ماجة .

٨٩ — عمرو بن هارون

عمرو بن هارون البلخي المتوفى سنة ١٩٤ . كان كثير الحديث ، بصيراً بالقرآات . ذكره في الشذرات .

٨٠ — عمر بن قيس

عمر بن قيس الملائي الكوفي المتوفى سنة

روى عنه اسماعيل بن ابى خالد والثوري . وثقه ابو حاتم ، وروى له البخاري فى الادب المفرد ، ومسلم فى صحيحه والاربعة .

٨١ — عمر بن دينار

عمر بن دينار المكي ابو محمد الاثرم الجمحي مولاهم المتوفى سنة ١٢٦ .

روى عنه جماعة كمالك وشعبة وداود . أخذ عن الباقر والصادق . وحديثه في الصحاح الستة .

٨٢ — فضيل بن عياض

فضيل بن عياض بن السعد بن بسر التميمي المتوفى سنة ١٨٧ تقدمت ترجمته في ج ١ ص ٦١ من هذا الكتاب .

٨٣ — فضيل بن مرزوق الكوفى

فضيل بن مرزوق الكوفى ، روى عنه يحيي بن آدم وغيره وثقه السفيانان وقال ابن معين : شديد التشيع . خرّج حديثه مسلم والاربعة .

٨٤ — فليح بن سليمان

فليح بن سليمان بن ابى المغيرة الخزاعي ابو يحيي الكوفي المتوفى سنة ١٦٨ ، أحد الاعلام ومن رجال الصحاح الستة ، روى عنه ابن وهب وابو عامر وخلق كثير ضعفه النسائي ، وقال ابن حجر : صدوق كثير الخطأ .

٨٥ — القاسم بن معن

القاسم بن معن - بفتح الميم وسكون العين - ابن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود الهذلي المتوفى سنة ١٧٥ ، ابو عبدالله الكوفي روى عنه ابن مهدي وابو نعيم وغيره وثقه ابو حاتم . خرج له ابو داود والنسائي .

٨٦ — القاسم بن عبدالله

القاسم بن عبدالله بن عمر بن حفص بن عمر بن الخطاب العمري العدوى المتوفى سنة ١٥٠ ، روى عنه محمد بن الحسن بن زباله المدني وعبدالله بن وهيب وآخرون ، رماه احمد بن حنبل بالكذب .خرّج له ابن ماجة .

٨٧ — محمد بن اسحاق

محمد بن اسحاق بن يسار المتوفى سنة ١٥١ .

روى عنه يحيي الانصاري وشعبة والحمادان وخلق كثير ، خرّج حديثه مسلم والاربعة .

٨٨ — محمد بن فليح

محمد بن فليح بن سليمان المدني المتوفى سنة ١٧٧

خرّج له البخاري والنسائي وابن ماجة ،روى عنه ابراهيم بن المنذر وغيره

٨٩ — محمد بن الحسن

محمد بن الحسن بن ابي يزيد الهمداني ابو الحسن الكوفي نزيل واسط .

٩٠ — محمد بن مجيب

محمد بن مجيب الثقفي الكوفي سكن بغداد وكان كثير الرواية عن جعفر ابن محمد ، وروى عنه عبدالرحمن بن عفان ، وعبد الرحمن بن نافع ، وعيسى بن محمد مسلم والفيض بن وثيق .

٩١ — محمد بن ثابت

محمد بن ثابت بن أسلم البناني البصري . روى عنه عبدالصمد بن عبدالوارث ، وجعفر بن سليمان ، وابو داود الطيالسي ، وابو عبيدة وخلق كثير خرج حديثه الترمذي .

٩٢ — محمد بن جعفر

محمد بن جعفر بن ابي كثير المدني ، روى عنه خالد بن مخلد وسعيد بن ابي مريم وثقه ابن معين وقال ابن حجر فى التقريب : ثقة من الطبقة السابعة . خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة .

٩٣ — معلى بن هلال

معلى بن هلال الحضرمي أبو عبدالله الكوفي . روى عنه قتيبة كذبه أحمد وغيره ، وخرج له ابن ماجة .

٩٤ — معمر بن راشد

معمر بن راشد الصنعاني أبو عروة البصري المتوفى سنة ١٥٣ . قال ابن حجر : ثقة ثبت فاضل . روى عنه ايوب والثوري وخلق كثير ، خرج حديثه اصحاب الصحاح الستة .

٩٥ — معمر بن يحيى

معمر بن يحيى بن سام الضبي الكوفي وثقه ابو زرعة وخرج حديثه البخاري في صحيحه .

٩٦ — منصور بن المعتمر

منصور بن المعتمر السلمي أبو عتاب الكوفي المتوفى سنة ١٣٢ ، روى عنه خلق كثير ، وهو أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة ، وروى عن الباقر والصادق ، قال العجلي : ثقة ثبت له الفي حديث .

٩٧ — المنهال بن عمر

المنهال بن عمر الأسدي مولاهم الكوفي وثقه ابن معين والنسائي ، وخرج له البخاري والأربعة ، وروى عنه شعبة والاعمش ، وروى عن علي بن الحسين والباقر والصادق (ع) .

٩٨ — ميسرة بن حبيب

ميسرة بن حبيب النهدي ابو حازم الكوفي ، روى عنه شعبة واسرائيل ووثقه ابن معين والعجلي والنسائي . خرج له البخاري فى الأدب المفرد وابو داود والترمذي والنسائي ، قال ابن حجر : صدوق من السابعة .

٩٩ — مالك بن أنس

مالك بن انس الاصبحي المتوفى سنة ١٧٩ أحد ائمة المذاهب الاربعة تقدمت ترجمته في الجزء الأول

١٠٠ — مكي بن ابراهيم

مكي بن ابراهيم الحنظلي ابو السكن البلخي المتوفى سنة ٢١٥ ، أحد الحفاظ ومن شيوخ البخاري روايته في الصحاح الستة .

١٠١ — مسعود بن سعد

مسعود بن سعد الكوفي أبو سعد الجعفي ، روى عنه ابو خالد الاحمر وابو غسان النهدي قال ابن معين : ثقة من خيار عباد الله ، وقال ابن حبان : يكتب حديث . خرج له مسلم والنسائي .

١٠٢ — مسلم بن خالد

مسلم بن خالد المخزومي مولاهم ابو خالد المكي المعروف بالزنجي المتوفى سنة ١٨٩ ، روى عنه الشافعي وابن وهب وغيره وثقه ابن معين ، خرج له ابو داود وابن ماجة :

١٠٣ — مصعب بن سلام

مصعب بن سلام التميمي الكوفي نزيل بغداد ، روى عنه أحمد بن حنبل وابو الاشج . قال ابن معين : ليس به بأس وقال العجلي : ثقة . خرج له الترمذي في صحيحه .

١٠٤ — معاوية بن صالح

معاوية بن صالح الحضرمي ابو عبدالرحمن الحمصي المتوفى سنة ١٥٨ . عالم الاندلس وقاضيها ، روى عنه الثوري والليث وابن وهب ، وثقه احمد ، وابن معين . روى له مسلم والاربعة .

١٠٥ — معاوية بن عمار

معاويه بن عمار البجلي الدهني المتوفى سنة ١٧٥ ، روى عنه يحيي بن سعيد ومعاذ بن معاذ وخلق كثير ، وثقه ابن معين . وابن داود . روى له مسلم والترمذي والنسائي . قال في نهج المقال : له كتب يرويها عنه أصحابنا : كتاب الصلاة ، كتاب يوم وليلة ، كتاب الطلاق ، كتاب الدعاء .

١٠٦ — معروف بن خربوذ

معروف بن خربوذ ـ بفتح الخاء والراء ـ مولى عثمان المكي ، روى عنه وكيع وغيره ، خرج له البخاري ومسلم وابو داود وابن ماجة وهو من تلامذة الباقر والصادق (ع) .

١٠٧ — النعمان بن ثابت

النعمان بن ثابت ابو حنيفة التميمي مولاهم الكوفي المتوفى سنة ١٥٠ رئيس المذهب الحنفي تقدمت ترجمته في الجزء الاول .

١٠٨ — نوح بن دراج

نوح بن دراج النخعي مولاهم الكوفي القاضي المتوفى سنة ١٨٢ ، روى عنه سعيد بن منصور ، وخرج له ابن ماجة في التفسير .

١٠٩ — نوح بن ابي مريم

نوح ابن ابي مريم القرشي مولاهم ابو عصمة الجامع القاضي المروزي المتوفى سنة ١٧٣ ، وثقه ابن معين وخرج له ابن ماجة في التفسير قال ابن حبان :

نوح الجامع جمع كل شيء إلا الصدق ، وقال النسائي : ليس بثقة ولا مأمون وقال الحاكم : وضع حديث فضائل القرآن .

١١٠ — هارون بن سعد العجلي

هارون بن سعد العجلي ، قال ابن معين : ليس به بأس . خرّج له مسلم في صحيحه ، وقال الكشي : هو زيدي . وقال ابن حجر : رمي بالرفض . ويقال رجع عنه .

١١١ — هارون بن موسى

هارون بن موسى الازدي مولاهم ابو عبدالله القارىء . روى عنه بهز بن أسد ، ومسلم بن ابراهيم ، وخلق كثير ، خرّج له البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابو داود ، وثقه ابن معين . قال ابن حجر : ثقة مقرىء إلا انه رمي بالقدر من السابعة .

١١٢ — هلال بن ابى حميد

هلال بن ابي حميد او ابن مقلاص ابو ايوب الصيرفي الكوفي . روى عنه مسعر وشعبة وخرّج له البخاري وابو داود ومسلم والترمذي والنسائي .

١١٣ — وهيب بن خالد

وهيب بن خالد الباهلي البصري المتوفى سنة ١٦٥ . احد الحفاظ الاعلام ومن رجال الصحاح الستة . قال ابن سعد : حجة كثير الحديث وفي منهج المقال وهيب بن خالد البصري ثقة ، وقال النجاشي : ان له كتابا يرويه عنه اسماعيل

١١٤ — يحيى بن سعيد

يحيى بن سعيد بن فروخ القطان المتوفى سنة ١٩٨ . أحد الأعلام ومن الحفاظ المشهورين . روى عنه رجال الصحاح الستة ، وهو من شيوخ احمد وابن معين — تقدمت ترجمته في ج ١ ص ٦٢ من هذا الكتاب .

١١٥ — يحيى بن قيس

يحيى بن سعيد بن قيس الانصاري المدني ابو سعيد المدني القاضي المتوفى سنة ١٤٤ . روى عنه الاوزاعي والسفيانان وخلق كثير ، قال ابن المديني : له ثلاثمائة حديث خرج له البخاري في الادب المفرد . قال ابن سعد: ثقة حجة .

١١٦ — يحيى بن سليم

يحيى بن سليم الطائفي ابو محمد القرشي نزيل مكة المتوفى سنة ١٩٣ . روى عنه احمد واسحاق وقتيبة . احتج به البخاري والجماعة وثقه ابن معين والنسائي وابن سعد .

١١٧ — يعلي بن الحرث

يعلي بن الحرث المحاربي الكوفي المتوفى سنة ١٦٨ ، روى عنه وكيع وابن مهدي وجماعة وثقه ابن معين وخرج له البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجة

* * *

وبهذا نكتفي عن ذكر الآخرين إذ لا يسع المجال هنا . ولعلنا نواصل ذكر البعض منهم في الاجزاء القادمة ، وسيأتي ذكر آخرين منهم في بحثنا عن رجال الحديث من الشيعة الذين خرّج حديثهم أصحاب الصحاح الستة ويتجاوز عددهم

ثلثمائة رجال وقـــد اعتمدنا على المراجع التالية في البحث عن رجال حديث الامام الصادق .

المراجع

١ ـ الفهرست لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠

٢ ـ خلاصة تهذيب الكمال لاحمد بن عبدالله الخزرجي الانصاري

٣ ـ منهج المقال للسيد محمد الاسترابادي المتوفى سنة ١٠٢١

٤ ـ تهذيب التهذيب للحافظ احمد بن علي بن حجر العسقلاني ٨٥٢

٥ ـ تقريب التهذيب له ايضاً

٦ ـ جامع الرواة للاردبيلي المتوفى سنة ١١٠١

٧ ـ الخلاصة للعلامة جمال الدين الحلي « ٧٢٦

٨ ـ طبقات الحفاظ للحافظ الذهبي « ٧٤٨

٩ ـ حلية الاولياء للحافظ ابي نعيم « ٤٣٠

١٠ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي « ٤٦٣

١١ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي « ١٠٨٩

١٢ ـ تنقيح المقال للشيخ عبدالله المامقاني « ١٣٥١

١٣ ـ لسان الميزان لابن حجر العسقلاني

١٤ ـ تهذيب الاسماء واللغات لمحي الدين بن شرف النووي « ٦٧٦

تكملة وبيان

وقبل أن نترك البحث عن مدرسة الامام الصادق ، يلزمنا أن نشير الى بيان أمور تكملة للبحث وإيضاحاً للمقام .

١ — الرواة

نظراً لكثرة المنتمين لمدرسة الامام الصادق على اختلافهم فى الآراء والمعتقدات والميول والنزعات فهم لم يكونوا على حالة متساوية في حسن الاستماع ، وقوة الحفظ ، وصدق اللهجة ، واخلاص النية ، بل كان فيهم بعض الكذابين الذين يتعمدون الكذب لأغراض في نفوسهم ، وغايات يطلبونها من وراء ذلك كأبي البختري وهب بن وهب ذلك الرجل الذي نال قبولاً في الدولة العباسية وترأس القضاة ، لأنه كان يكذب على الامام الصادق ويضع الأحاديث طبقاً لرغبات ولاة الأمر ، وقد ذكرنا طرفاً من حاله في الجزء الأول ص ٣٠١-٣٠٣ فلا نعود لذكره .

ومحمد بن مقلاص أبو الخطاب ذلك الرجل الذي دخل فى الاسلام للفتك بأهله ، وقد أعلن الصادق حاله للناس وأمرهم بالبراءة منه ولعنه ، وقد مرت الاشارة الى بيان حاله ، وحال المغيرة بن سعيد ، وصائد النهدي ، وغيرهم . فهؤلاء كانوا ينتسبون لمدرسة الامام : وهم يطلبون من وراء ذلك أن ينالوا مآربهم وأغراضهم الدنية ، لذلك نرى الامام الصادق (ع) أمر بالتثبت عما يُنقل عنه ، وحذّر أصحابه عن الأخذ ممن لا يوثق به ومن يتهم في دينه .

وإن لرواة الأخبار ووضاع الأحاديث أخطر الآفات على العلم ، وأعظم جناية على الدين ، والغرض أن بعض المنتمين لمدرسة أهل البيت قد اتصفوا

بصفات لا يصح أخذ الأحكام بواسطتهم ، فان منهم من صارعته الدنيا فصرعته وأصبحت له منزلة فى المجتمع ، وهوى السياسة من وراء ذلك يثير زوابع الأهواء ويحرك الشعور والآراء ويشجع الكذابين على اهل البيت الذين عرف المجتمع الاسلامي مكانتهم ، والتزموا بالمحافظة على وصايا الرسول فى آله ، ولكن ولاة الأمر لا يروق لهم اتحاد صفوف الامة ، فكدروا صفو الاخوة الاسلامية ، وفرقوا صفوفهم ليشقوا الطريق الى غاياتهم ، وقد عظم وقع ذلك ، فكان اهل البيت يحافظون على جمع الكلمة ولمّ شعث الامة وتوحيد صفوفهم ، فتحملوا فى سبيله مصاعب وواجهوا مشاكل لا يستطيع أحد أن يتحملها غيرهم وقد أصبح اولئك الكذابون يذيعون على اهل البيت أقوالا يتلقاها خصومهم فينشرونها بين الناس ليغيروا القلوب ويكدروا الصفو .

وقد وقف الامام الصادق أمام تلك المشكلة موقفاً حاسماً ، ليقصر من خطا اهل الآراء الفاسدة الذين انحرفوا عن طريق الاستقامة والصواب ، وأعلن للملأ براءته مما ينقل عنه ذووا الاغراض ، لينالوا احترام الجمهور ويفوزوا بقبول آرائهم فكان يقول :

والله ما الناصب لنا حرباً بأشد علينا مؤونة من الناطق علينا بما نكره .

ويقول : إن الناس قد اولعوا بالكذب علينا ، وإني احدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير تأويله ، وذلك انهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله وإنما يطلبون الدنيا ، وكلّ يحب أن يدعى رأساً .

وقد كان بعضهم يغير ما ينقله عنه بزيادة أو نقيصة . قال له رجل من اصحابه : يا ابن رسول الله قد بلغنا عنك انك قلت : اذا عرفتم فاعملوا ماشئتم فقال ابو عبدالله إني قلت : اذا عرفتم فاعملوا ما شئتم ، فانه يقبل منكم . وكان

يقول : إنا اهل بيت لايزال الشيطان يدخل فينا من ليس منا ، ولا من اهل ديننا ، فاذا رفعه ونظر الناس اليه ، أمره الشيطان فيكذب علينا . الى غير ذلك من أقواله في تحذير الامة عن قبول ما ينقل عنه بواسطة اولئك الدجالين كأبي البختري وأضرابه من الكذابين ، وأبي الخطاب وأمثاله من الغلاة الذين اندسوا فى صفوف المسلمين ليفرقوا الكلمة ويغيروا القلوب ، وقد قضى الامام الصادق على حركاتهم ، وفرق شملهم ، ولم يبق لهم ذكر إلا في بطون الكتب وعلى ألسنة دعاة الفرقة الذين تجندوا لخدمـــة خصوم الاسلام وهم كما يقول القائل :

إن يسمعوا الخير أخفوه وإن علموا   سراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

وقد اهتم علماء الحديث وبذلوا جهدهم فى عناية تامة بالبحث والتحقيق عن معرفة الحديث وترتيب طبقات رجاله والتثبت في احوالهم وبيان عدالتهم ، فألفوا كتباً تكشف النقاب عن احوال الرجال منها :

كتاب الرجال لشيخ الطائفة ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ .

وكتاب الشيخ احمد بن علي بن احمد النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ .

وكتاب الضعفاء المنسوب للشيخ احمد بن عبيد الله الغضائري وكان معاصراً للشيخ الطوسي .

وكتاب تقي الدين الحسن بن علي بن داود وهو من تلامذة جمال الدين ابن طاووس والمحقق الحلي .

وكتاب الخلاصة لأبي منصور جمال الدين العلامة الحلي المتوفى سنة ٧٢٦ .

٢ — مشاهير الثقات

كان من المناسب ذكر مشاهير الثقات من اصحاب الامام الصادق والمؤلفين منهم وبيان أحوالهم بترجمة وافية ، ولكن نطاق هذا الجزء لا يتسع لذكرهم ، ونرى من الخير هنا أن نشير الى بعض المؤلفين من اصحابه في الحديث ونترك ذكر الآخرين لمحل آخر ، ونقتصر على بعض من وصف بالوثاقة منهم موجزين في ذلك ، حذراً من الاطالة واليك انموذجاً من الكتب .

كتاب ابراهيم بن خالد العطار العبدي ، وكتاب ابراهيم بن نعيم العبدي المعروف بابي الصباح ، وكتاب اسحاق بن بشر الكاهلي ، وكتاب اسحاق ابن جندب ، وكتاب انس بن عياض الليثي المدني ، وكتاب برد الاسكاف الازدي من تلامذة الباقر والصادق ، وكتاب ايوب بن عطية الحذاء ، وكتاب ثابت ابن جرير ، وكتاب ثابت الضرير ، وكتاب ثعلبة بن ميمون القارىء الفقيه ، وكتاب جحدر بن المغيرة الطائي الكوفي ، وكتاب جفير بن الحكم ابي المنذر العبدي ، وكتاب جميل بن دراج ، وكتاب حارث بن المغيرة النضري ، وكتاب حبيب بن النعمان الاعرابي الاسدي ، وكتاب حذيفة بن زائدة الاسدي ، وكتاب حريز بن عبدالله الازدي السجستاني ، وكتاب حسان بن مهران الكوفي ، وكتاب الحسن بن الحسين بن الحسن الجحدري الكندي ، وكتاب حفص بن سالم ابو ولاد الحناط الكوفي ، وكتاب خطاب بن مسلم الكوفي ، وكتاب خلاد السندي البزاز الكوفي ، وكتاب داود بن الحسين الاسدي الكوفي ، وكتاب داود بن سرحان العطار الكوفي ، وكتاب رافع ابن سلمة بن زياد بن ابي الجعد الاشجعي ، وكتاب زريق بن الزبير الخلقاني ،

وكتاب زكريا بن يحيي الواسطي ، وكتاب زيد بن يونس او ابن موسى ابي اسامة الشحام الكوفي ، وكتاب سالم الحناط ابي الفضل الكوفي ، وكتاب سالم بن مكرم ابن عبدالله من اصحاب الصادق والكاظم ؛ وكتاب السري بن عبدالله بن يعقوب السلمي الكوفي ، وكتاب سعيد بن عبدالرحمن او عبدالله الاعرج السمان التميمي الكوفي ، وكتاب سعيد بن غزوان الأسدي ، وكتاب سلام بن ابي عمرة الخراساني وهو من الكتب الموجودة الباقية (١) ، وكتاب سليم الفراء الكوفي ، وكتاب سليمان بن داود المنقري ابو أيوب الشاذكوني ، وكتاب لسماعة ابن مهران الحضرمي ، وكتاب لسويد بن مسلم ، وكتاب سيف بن سليمان التمار الكوفي ، وكتاب شعيب العقرقوفي ، وكتاب شهاب بن عبد ربه ابن ابي ميمون من أصحاب الصادق والكاظم ، وكتاب الصباح الحذاء بن صبيح إمام مسجد دار اللؤلؤ بالكوفة ، وكتاب صباح بن يحيي المزني الكوفي من تلامذة الباقر والصادق ، وكتاب صفوان بن مهران الكوفي ، وكتاب طلاب بن حوشب الشيباني الكوفي ، وكتاب عاصم بن سليمان البصري ، وكتاب عامر بن جداعة الازدي ، وكتاب عبيد بن زرارة بن أعين الشيباني ، وكتاب عبيدالله ابن الوليد الرصافي ، يروي عن الباقر والصادق ، وكتاب عقبة بن خالد الاسدي الكوفي ، وكتاب علي بن عقبة بن خالد الاسدي الكوفي ، وكتاب عمار ابن مروان اليشكري ، وكتاب عمار بن موسى الساباطي ، وكتاب عمرو بن ابراهيم الازدي ، وكتاب عمرو بن الياس بن عمرو بن الياس البجلي ، وكتاب عمرو ابن حريث الصيرفي الاسدي الكوفي ، وكتاب عمرو بن خالد الافرق الخياط ، وكتاب عمرو بن منهال بن مقلاص الصيرفي ، وكتاب ابي محمد بن قتيبة بن محمد

(١) انظر الذريعة ج ٦ ص ٣٣٦ .

الاعشى المؤدب المغربي ، وكتاب كعيب بن عبدالله مولى بني طرفة الكوفي ، وكتاب مالك بن عطية الاحمسي الكوفي البجلي ، وكتاب محمد بن حمران النهدي وكتاب محمد بن عذافر بن عيسى الصيرفي المدايني من أصحاب الصادق والكاظم، وكتاب عباد بن صهيب أبو بكر البصري ، وكتاب عباس بن الوليد ابن صبيح الكوفي ، وكتاب عبد الحميد بن ابى العلاء بن عبد الملك الازدي ، وكتاب عبدالرحمن بن محمد بن عبيدالله الفزاري ، وكتاب عبدالغفار بن حبيب الطائي ، وكتاب عبدالغفار بن القاسم بن قيس بن فهد الانصاري من تلامذة الباقر والصادق ، وكتاب عبدالكريم بن هلال الجعفي الكوفي يقال له الخلقاني، وكتاب عبدالله بن ابي يعفور ، وكتاب عبدالله بن بكير بن اعين الشيباني ، وكتاب عبدالله بن زرارة بن اعين الشيباني ، وكتاب عبدالله بن سعيد بن شبل، وكتاب عبدالله بن غالب الاسدي الشاعر الفقيه ، وكتاب عبدالله بن الفضل بن عبدالله الهاشمي النوفلي ، وكتاب عبدالملك بن الحكيم الخثعمي الكوفى ، وكتاب عبدالملك بن عتبة النخعي الصيرفى الكوفى .

الى آخر ما هو مذكور فى كتاب الفهرست للشيخ الطوسي وكتاب النجاشي وجامع الرواة . وقد ذكر شيخنا البحاثة حجة الاسلام الشيخ محمدالمحسن الطهراني فى كتاب الذريعة ج ٦ (١) عدداً وافراً منها فى حرف الحاء ، وذكر طرق الرواية لها ، كما أنه ذكر فى ج ١ فى حرف الهمزة فى باب الاصول عدداً كثيراً من رجال الاصول الذين دوّنوا أحاديثهم عن الامام الصادق . وقد ذكرنا بعض

(١) كتاب الذريعة الى تصانيف الشيعة سلك مؤلفه حفظه الله مسلك صاحب كشف الظنون وهو مجهود كبير وعمل متعب وقد صدر منه عشرة مجلدات الى حرف الدال المهملة وهو يواصل جهوده على كبر سنه فى غاية من الدقة والتتبع والاجزاء الباقية جاهزة للطبع .

من لهم كتب عن الامام الصادق فى تلك المجموعة المتقدمة ولم نعد ذكرهم كما انا لم نذكر من هؤلاء هناك .

٣ — جابر بن حيان

اشتهر جابر بن حيان بعلم الكيميا ، وهو أول من عرف به ، ونسب اخذه وتعلمه لذلك العلم عن الامام الصادق ، وقد اختلفت الآراء فى ذلك ، وها نحن ذا نذكره استطراداً فى البحث ، فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به ابو عبدالله جابر بن حيان بن عبدالله الكوفي المعروف بالصوفى ويقال الحراني الصوفي أول من اشتهر فى علم الكيميا وقالوا انه تلميذ جعفر الصادق (ع) وهو أول من تكلم فى علم الكيميا ووضع فيها الكتب وبين صنعة الاكسير والميزان ، ونظر فى كتب الفلاسفة في الاسلام ، واكتشف جابر فى امتحاناته اموراً كثيرة فى علم الكيميا ، وترجمت بعض مصنفاته الى جميع اللغات ، وطبعت واشتغل بها الناس فانتفعوا بها ، ونسب اليه قوم اختراع الجبر ، والف خمسمائة رسالة فى الكيميا فى الف ورقة ، وهي تتضمن رسائل جعفر الصادق(ع) واختلف الناس في أمر جابر اختلافاً يقف الباحث امامها مقام الحيرة .

فيذهب البعض الى انه شخصية موهومة ، وانه اسم موضوع . وضعه المصنفون فى هذا الفن ، وزعموا انه كان فى زمن الصادق .

ويؤيدون هذا الرأي بان شخصية جابر تلك الشخصية العظيمة لم يكن لها ذكر فى تاريخ العرب .

وأجاب ابن النديم عن هذا الايراد بقوله : (ان رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي على الفي ورقة ، يتعب قريحته وفكره باخراجه . ويتعب يده

وجسمه بنسخه ثم ينحله لغيره ، اما موجوداً أو معدوماً ضربٌ من الجهل وان ذلك لا يستمر على أحد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم ، واي فائدة في هذا وأي عائدة ، والرجل له حقيقة ،وأمره أظهر وأشهر ، وتصنيفاته اعظم واكثر ، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة أنا أوردها في مواضعها ، وكتب في معان شتى من العلوم قد ذكرتها في مواضعها من الكتاب وقد قيل ان أصله من خراسان ، والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة قال استاذنا أبو موسى جابر بن حيان). ثم ذكر مؤلفاته (١) .

وللقدماء والمتأخرين من المستشرقين كلام كثير في شأن جابر وقد نشر رسائله المستشرق كراوس وفيها دلالة على تشيعه وأخذه عن الامام الصادق (ع) كامام مفترض الطاعة متبع الرأي .

وقد كبر على المستشرقين أن يكون عربي مسلم ومن أهل القرن الثاني للهجرة يمتاز بتلك الآراء السديدة ، وتكون نظرياته الاسس العامة التي قام عليها علم الكيميا قديمة وحديثة ، فصاروا يخبطون في تعرضهم لكتبه كحاطب ليل ، فمرة يشكون في وجوده وتارة في زمانه ، واخرى فيما نسب اليه من تلك الكتب ، ورابعة في نسبة ما يرويه البعض عن استاذه الصادق (ع) ، وخامساً في التبويب والوضع والاسلوب ، لانه لم يكن يعرفه أهل ذلك العصر الى غير ذلك . وقد فند تلك الشكوك والمزاعم الكاتب اسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور فيما نشره في المقتطف (٦٨ ، ٥٤٤ ، ٥٥١ ومن ٦١٧ ـ ٦٢٥) وجلى في هذه الحلبة الاستاذ احمد زكي صالح فيما كتبه في مجلة الرسالة المصرية سنة ٨ ص ١٢٠٤، ١٢٠٦ ـ

(١) فهرست ابن النديم .

ولقد فند تلك الأوهام والمزاعم تفنيداً حكيماً علمياً وصرح مراراً بتشيعه وقال في مناقشة رأي الاستاذ كراوس : ومن الجلي الواضح لدى كل من درس علم الكلام ان فرق الشيعة كانت انشط الفرق الاسلامية حركة ، وكانت أولى من اسس المذاهب الدينية على اسس فلسفية حتى أن البعض ينسب فلسفة خاصة لعلي بن ابي طالب (ع) (١) .

ومنهم من يقول أنه تلميذ خالد بن يزيد . واستدل ملا كتاب چلبي على ذلك بالبيتين المشهورين من قول بعض الشعراء :

حكمة أورثناها جابر عن امام صادق القول وفي

لوصي طاب في تربته فهو كالمسك تراب النجف

وذلك لان خالد بن يزيد وفى لعلي واعترف له بالخلافة ، وترك الامارة (٢) وهذا الاستدلال بعيد عن اثبات الدعوى من كل وجه بما لا حاجة الى ايضاحه ، وعبارات جابر بن حيان في رسائله تؤيد ما يقوله الاكثر بانه أخذ ذلك عن الامام الصادق فقد كرر في عباراته ما يشعر بذلك ، ويعبر عنه بقوله : حدثني سيدي عن آبائه واحداً بعد واحد وقال لي ... الخ . (٣) .

ويقول في ص ٢٠٥ في كتاب الخواص الكبير : وكنت يوماً قاصداً دار سيدي جعفر « صلوات الله عليه » ويكثر من قوله وحق الله وحق سيدي صلوات الله عليه . . . الخ .

وفي ص ٣١٦ في المقالة ٢٤ : رضي الله عن سيدي فانه كان إذا مر به

---

(١) انظر حياة الامام الصادق المظفر .

(٢) انظر كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٨ .

(٣) انظر رسائل جابر بن حيان التي نشرها المستشرق كراوس ص ٢٣٥ في كتاب السر المكنون .

مثل هذه الخواص شيء قال : يا جابر هذه حياة القلوب وما ينبغي اذا نظرت فى كتبنا هذه إلا أن تجمعها وما ينضاف اليها من فنونها والسلام .

وقد نص اكثر المؤرخين والكتاب على ذلك كابن خلكان فى وفيات الاعيان ، واليافعي فى مرآة الجنان ، وابن الوردي فى تاريخه ، والحاج خليفة فى كشف الظنون ، وبطرس البستاني فى دائرة المعارف ، و(ش) سامي في قاموس الاعلام باللغة التركية .

ويقول الاستاذ الدكتور محمد يحيي ـ في كتابه الامام الصادق ملهم الكيمياء ـ .

من الأمور التي تلفت النظر في تاريخ العلوم مشكلة الامام جعفر الصادق(ع) وعلاقته الكبرى مع جابر بن حيان ، ابو الكيمياء فى العصور الوسطى ، ولقد تصدى الى هذا الموضوع عدد من المستشرقين ، والكيميائيين ، فلم يوفوه حقه ، لأنهم عالجوا المشكلة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث فى رسائل جابر نفسها ، مما لها علاقة مع الامام الصادق مبرزين ميزاتها ، وامكانية صدورها عن الامام ، وانا فى هذه الدراسة المقتضبة سوف نحاول أن نقوم في عمل هذا الاستقراء . مستعينين بما وصل الى ايدينا من المصادر التي نعترف بانها قليلة ، ومن الضروري عمل دراسة عملية عن الامام جعفر الصادق ، ومكانته الادبية ، ودوره في التاريخ الفكري الاسلامي لتظهر لنا كثيراً من النقط الغامضة على ضوء النهار ، الى أن يقول فى ص ٣٩ : لدا مطالعتنا للتراث الضخم الذي خلفه لنا جابر عن الكيمياء نرى اعترافاً صريحاً بان المعلم لهذه الصنعة هو الامام جعفر الصادق (ع) ، وقد اطلع على هذه الحقيقة كثير من المستشرقين الغربيين فاعتقدوا فى ذلك مبالغة عظيمة ، وفى النقد الذي وجهوه ضد هذه المشكلة قالوا:

انه لمن المستحيل على جعفر أن يلمّ هذا الامام العظيم بالعلوم والفنون التي ذكرها جابر فى المخطوطات التي وصلت الينا ، والتي يوجد منها عدد كبير فى القاهرة ، والتي لم تدرس الدراسة الكافية بعد ، ويعتقد (دروسكا) انه لمن المستحيل على جعفر أن يكون كيميائياً فليس ، من الممكن أن يتعاطى تلك الصنعة سواء كان ذلك نظرياً أو عملياً وهو فى المدينة ، ولقد أعجب كل من (برتلو الافرنسي) و (هوليارد الانكليزي) بالمعلومات التي تسند الى جابر الى آخر ما ذكره في تصحيح نسبة اتصال جابر بالامام جعفر (ع). ولا نتعرض لاكثر من هذا فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به جابر بن حيان ، وإنما تعرضنا له على سبيل الاشارة والاستطراد .

٤ — الفرق

لما كانت مدرسة الامام جامعة للعلوم ، ولم يكن هناك منهج خاص للمسائل التي يسأل فيها ، بل كان تارة يسأل عن مختلف العلوم والمسائل المشكلة فيحلها ، ويبتدىء تارة فيهدي قلوباً متنكبة عن جدد الطريق ، وتارة يجتمعون حواليه فيحدثهم عن آبائه عن جده فيما يصلح لمعادهم ومعاشهم ، وربما يملي ويكتب الكتاب في أهم مسائل علم الكلام والحديث ، لذلك كانت مدرسته موضع عناية المفكرين يقصدها زعماء الفرق ، فكان الامام يناظرهم ، واجتمع بكثير منهم فى العراق ومكة ، فكانوا يخضعون لعذوبة منطقه ، وحسن بيانه وقوة حجته ، وقدرته الفائقة في التوجيه لاتساع علمه ، وساطع برهانه . وقد حضر عنده كثير من أهل الآراء والمعتقدات المنحرفة عن طريق الصواب ، فهدى الله به بعضاً منهم وتعنت آخرون . وسنشير الى ذكر الفرق فى عصره ومناظرته معهم

واهتمامه العظيم في اعتدال اعوجاج طرقهم ، وان كان ذكرهم هنا أجدر ، ولـكن ضيق المجال ارغمنا على تأخيره ،لذلك أشرنا اليه .

بقيت امور كثيرة تتعلق فى مدرسة الامام الصادق ، وتعاليمه وحديثه وتلامذته ، والعلوم التي كان يتلقاها الناس عنه . وقد التزمنا في جميع الاجزاء أن يكون بحثنا عن الامام الصادق بدءً وختاماً والى اللقاء فى الاجزاء القادمة ومن الله التوفيق .

كما اننا لم نتعرض فى بحثنا عن حياة الامام الصادق، لسلسلة الآباء والامهات ، لانا فى غنى عن ذلك فنسبه أجلى من الشمس ، والتعرض له يستدعي الخروج عن الموضوع ، لما يتعلق بحياة آبائه الطاهرين ، وبيان مآثرهم ، ولم يكن هناك شيء من الغموض والخفاء ، لنحاول ايضاحه وبيانه على أن بقية من التزمنا بالبحث عنهم في هذا الـكتاب من رؤساء المذاهب قد كثر الاختلاف فى آبائهم وولادتهم بالزمان والمـكان ، والتاريخ لم يحتفظ لآبائهم إلا بالاسم فقط ، وقدمت الاشارة الى الاختلاف في نسب أبي حنيفة ، وسيأتي البيان عند ذكر الباقين .

وعلى أي حال فانا لانتعرض لذكر نسب الامام الصادق (ع) ، ونعترف بالعجز عن اعطاء البحث - عنهم - حقه ، لاتساع دائرته وانه يستدعي وضع مجلدات ، وما اكثر من الّف فى ذلك . ونقتصر هنا على ذكر ابيه الامام الباقر (ع) لان البحث عن حياته من صميم الموضوع . لانه قد تربى فى ظله وغذاه بعلومه ، واختص بتربيته ، وتعليمه فلننتقل الى البحث عن حياة الامام الباقر موجزين فى القول مهما ساعدنا الايجاز ورافقنا الاختصار .

في ظل ابيه الباقر عليه السلام

الامام الباقر عليه السلام

ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام

ذكرنا فيما مضى أن الامام الصادق قد تلقى علومه عن ابيه الباقر وقضى شطراً من حياته فى ظله وتحت عنايته وهو وصيه والقائم باعباء الامامة من بعده .

ولا نستطيع هنا أن نعطي موضوع البحث عن حياته حقه ، بل نقتصر على الاشارة فيما يتعلق بمكانته وقيامه بالاصلاح وتوجيه الامة وذكر بعض تلامذته ورواة حديثه من كبار التابعين وغيرهم .

فان حياته حافلة باعمال جليلة ومآثر عظيمه ، فقد فتح في عصره معاهد العلم ، وعقد فيه مجالس البحث عن العرفان والادب وسائر العلوم ، وعقدت حلقة درسه فى المدينة تضم كبار التابعين واعيان الفقهاء ، ولا تعقد أي حلقة هناك إلا بعد انتهاء حلقة درسه ، وأقبلت الوفود تحج الى مغناه وتهتدي بهديه ، يستبقون الى انتهال تعاليمه التي هي تعاليم جده ، فهو ينطق بلسانه ويحكم بشريعته وينزه الدين الاسلامي من فتاوى علماء السوء المتزلفين للسلطة ، الناعمين بخيراتها والنافخين ببوقها .

وقد أوجد فى عصره حركة ونشاطاً للعلم ومركزاً للحياة الفكرية والاجتماعية ، والتفَّ حوله طلاب العلم ورواد الحقيقة رغم تلك العقبات التي يواجهها المتصل بأهل البيت ، وقد اجتازوا مراحل الخطر بقوة الايمان والعقيدة .

وهنا نقدم دراسة مقتضبة بصورة موجزة نقتصر على الاشارة لمدرسته ،

وعصره ، وحياته ، ونشأته ، ومكانته في المجتمع ، وذكر شيء من تعاليمه .

ولادته

ولد الامام الباقر في المدينة سنة ٥٧ وتوفى سنة ١١٤ فيكون عمره ٥٧ سنة على رواية الشيخ المفيد في الارشاد (١) ، ووافقه ابن كثير فى النهاية وابن الاثير في تاريخه ، وقال المسعودي : انه توفي في أيام الوليد ، ومنهم من يرى أنه مات فى أيام يزيد وهو ابن سبع وخمسين سنة .

وعلى أي حال فان الامام الباقر أدرك جده الحسين وشاهد وقعة الطف المحزنة ، وأقام معه ثلاث سنين أو أربع سنين ، ومع ابيه زين العابدين أربعاً وثلاثين ، وبعد ابيه تسع عشرة سنة وقيل ثماني عشرة سنة ، وعاشر من ملوك عصره معاوية بن ابي سفيان المتوفى سنة ٦٠ ، ويزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ومروان بن الحكم ، وعبدالملك بن مروان ، والوليد بن عبدالملك ، وسليمان ابن عبدالملك ، وعمر بن عبدالعزيز ، ويزيد بن عبدالملك .

وتوفي سنة ١١٤ كما عليه الاكثر في خلافة هشام بن عبدالملك مسموماً .

كنيته ولقبه

يكنى بابي جعفر الاول ، ويلقب بالباقر لأنه تبحّر فى العلم وأخرج غوامضه .

قال في القاموس : والباقر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم لتبحره في العلم (٢) .

---

(١) الارشاد ص ٢٤١ وتاريخ ابن كثير ج ٩ ص ٨٤ وابن الاثير ج ٥ ص ٨٤ .

(٢) ج ١ ص ٣٧٦ .

وقال محمد بن المكرم في لسان العرب : التبقر التوسع في العلم والمال وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي : الباقر رضوان الله عليهم ، لأنه بقر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه (١) .

وقال الدميري في حياة الحيوان : بقر مأخوذ من الشق ، ومنه قيل لمحمد بن علي :الباقر لانه بقر العلم أي شقه ودخل فيه مدخلاً بليغاً (٢) .

وقال ابو الفداء في تاريخه : وقيل له الباقر لتبقره في العلم أي توسعه فيه وولد الباقر سنة ٥٧ (٣) .

وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة الامام الباقر : كان سيد بني هاشم في زمانه اشتهر بالباقر من قولهم بقر العلم يعني شقه فعلم أصله وخفيه (٤) . وان أول من لقبه بذلك هو جده رسول الله (ص) .

كما ورد عن جابر بن عبدالله الانصاري المتوفى سنة ٧٨ : ان النبي (ص) قال له : يوشك أن تبقى حتى تلقى ولداً لي من الحسين يقال له محمد يبقر العلم بقراً فاذا لقيته فاقرأه مني السلام (٥) .

وفي رواية اليعقوبي قال جابر بن عبدالله الانصاري : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنك ستبقى حتى ترى رجلاً من ولدي اشبه الناس بي اسمه اسمي إذا رأيته فاقرأه مني السلام » . فلما كبر سن جابر وخاف الموت فجعل يقول : يا باقر يا باقر !.. الخ (٦) .

(١) ج ٥ ص ١٤٠ ط ١ .
(٢) ج ١ ص ١٤٧ .
(٣) ج ١ ص ٢١٥ .
(٤) ج ١ ص ١٧٧ .
(٥) انظر القاموس المحيط في هامش ص٣٧٦ ج ١ والفصول المهمة لابن الصباغ ص١٩٣ .
(٦) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٦١ .

وقال ابو المظفر سبط ابن الجوزي : ذكر المدائني عن جابر بن عبدالله أنه قال : كنت جالساً عند رسول الله « ص » والحسين في حجره وهو يداعبه ، فقال يا جابر : يولد مولود اسمه علي اذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم سيد العابدين ،فيقوم ولده ثم يولد له ولد اسمه محمد ، فان ادركته فاقرأه مني السلام. (١)

وبهذا اللفظ رواه الشبلنجي عن الزبير بن محمد بن مسلم (٢) .

وفي عيون الاخبار لابن قتيبة : ان النبي صلى الله عليه وآله قال له : يا جابر انك مستعمر بعدي حتى يولد مولود اسمه كاسمي يبقر العلم بقرا فاذا لقيته فاقرأه عني السلام(٣) .

وعلى كل حال فقد كان هو المتفرد في علوم الاسلام في عصره كما اتضح ذلك من سيرته عند دراسة حياته ،فان له الاثر العظيم في توجيه الفكر رغم ما هنالك من عوارض وموانع تقف امام اداء رسالته . وقد تكتم التاريخ عن اظهار اكثر الحقائق التي كان الأجدر اظهارها وحفظها للاجيال ، ونحن نستطيع ان نكشف الحقائق عندما نستمع لاقوال العلماء في وصفه ، ويكفي شاهداً ما اجمعوا عليه بانه اظهر غوامض العلم واستخرج اسراره .

فلنقدم بعض الاقوال فيه من معاصريه وغيرهم :

اقوال العلماء فيه

ما كنت أرى ان مثل علي بن الحسين يدع خلفاً يقاربه في الفضل حتى رأيت ابنه محمد الباقر .

محمد بن المنكدر

(١) تذكرة الخواص ص ٣٤٧ واحسن القصص للسيد علي فكري ج ٤ ص ٢٨٠ .

(٢) نور الابصار ص ١٤٣ .

(٣) عيون الاخبار ج ١ ص ٢١٢ .

ما رأيت العلماء عند احد من العلماء اصغر علماً منهم عند محمد بن علي الباقر ،

عبد الله بن عطاء

محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه القرشي الهاشمي المدني ابو جعفر المعروف بالباقر، سمي بذلك لأنه بقر العلم اي شقه فعرف اصله وعرف خفيه . وامه ام عبد الله بنت حسن بن علي بن ابي طالب وهو تابعي جليل امام بارع مجمع على جلالته معدود في فقهاء المدينة وأئمتهم ، سمع جابر وأنساً وسمع جماعات من كبار التابعين كأبي المسيب (١) وابن الحنفية وغيرهما ، روى عنه ابو اسحاق السبيعي وعطاء بن ابي رباح وعمر بن دينار الأعرج وهوأسن منه والزهري وربيعة وخلائق آخرون من التابعين وكبار الأئمة ، وروى له البخاري ومسلم (٢) .

محي الدين بن شرف النووي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ

ابوجعفر الباقر محمد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضوان الله عليهم ، احد الأئمة الاثني عشر في اعتقاد الامامية وهو والد جعفر الصادق ،لقب بالباقر لانه بقر العلم اي شقه وتوسع فيه ويقول الشاعر :

يا باقر العلم لأهل التقى   وخير من حج على الاجبل

وقال عبد الله بن عطاء ما رأيت العلماء عند احد اصغر علماً منهم عند محمد ابن علي . عاش رضي الله عنه ستاً وخمسين سنة، ودفن في البقيع مع ابيه(٣).

عفيف الدين اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨

ابو جعفر محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ولد سنة ٥٦

---

(١) حلية الاولياء .

(٢) تهذيب الاسماء واللغات لشرف الدين النووي

(٣) مرآة الجنان ج ١ ص ٢٤٨

كان من فقهاء أهل المدينة ، وقيل له الباقر ، لأنه بقر العلم أي شقه وعرف أصله وتوسع فيه ، وهو أحـــد الأئمة الاثني عشر على اعتقاد الامامية . قال عبدالله ابن عطاء : ما رأيت العلماء اصغر منهم علماً عنده ، وله كلام نافع فى الحكم والمواعظ . مات رضي الله عنه سنة ٥٦ ودفن بالبقيع (١) .

ابو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩

محمد بن علي الباقر عليه السلام، هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه ومتفوق دره وراضعه ومنمق درره وراصعه ، صفا قلبه وزكا عمله وطهرت نفسه وشرفت اخلاقه ، وعمرت بطاعة الله اوقاته ، ورسخت فى مقام التقوى قدمه ، وظهرت عليه سمات الازدلاف وطهارة الاجتباء ،فالمناقب تسبق اليه. والصفات تشرف به. فأما ولادته فبالمدينة في ثالث صفر من سنة سبع وخمسين للهجرة ، قبل قتل جده الحسين بثلاث سنين ، وله القاب ثلاث : باقر العلم ، والشاكر ، والهادي ، واشهرها الباقر وسمي بذلك لتبقره فى العلم وهوتوسعه فيه (٢) .

محمد بن طلحة القرشي العدوي الشافعي

ابو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين الامام الثبت الهاشمي العلوي روى عن ابيه وجابر بن عبدالله وابي سعيد وابن عمر وعبدالله بن جعفر وعدة ، وارسل عن عائشة وام سلمة وابن عباس . حدث عنه ابنه جعفر بن محمد وعمر بن دينار والاعمش والاوزاعي وابن جريج وقرة بن خالد وخلق، وكان سيد بني هاشم فى زمانه اشتهر فى زمانه بالباقر من قولهم بقر العلم يعني شقه فعلم أصله

(١) شذرات الذهب ج ١ ص ١٤٩ .
(٢) مطالب السئول ج ٢ ص ٥٠ .

وخفيه ، وعدّه النسائي وغيره في فقهاء المدينة ، مات سنة ١١٤ وقيل ١١٧ (١).

شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨

ابو جعفر الباقر هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب القرشي الهاشمي ابو جعفر الباقر ، وامه ام عبدالله بنت الحسن بن علي ، وهو تابعي جليل، كبير القدر ، أحد أعلام هذه الامة علماً وعملاً وسيادة وشرفاً .. وسمي الباقر لبقره العلوم واستنباطه الحكم ، كان ذاكراً خاشعاً صابراً وكان من سلالة النبوة، رفيع النسب عالي الحسب ، وكان عارفاً بالخطرات ، وكثير البكاء والعبرات ، معرضاً عن الجدال والخصومات (٢) .

عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير

محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب الهاشمي ابوجعفر الباقر امه بنت الحسن بن علي بن ابي طالب ، روى عن ابيه وجديه الحسن والحسين ، وجد ابيه علي بن ابى طالب مرسلا ....

روى عنه ابنه جعفر واسحاق السبيعي والاعرج والزهري وعمر بن دينار، وابو جهضم موسى بن سالم ، والقاسم بن الفضل والاوزاعي ، وابن جريج ، وشيبة بن نصاح ، وعبدالله بن ابي بكر بن عمر بن حزم ، وعبدالله بن عطاء ، وبسام الصيرفي ، وحرب بن سريج ، وحجاج بن ارطاة ، ومحمد بن سوقة ومكحول بن راشد ، ومعمر بن يحيى بن بسام وآخرون (٣) .

شهاب الدين بن حجر

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ١ س ١١٧ .
(٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩ باختصار .
(٣) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٥٠ باختصار .

محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب وهو والد جعفر الصادق ويقال له الباقر ، سمي باقراً لتبحره في العلم وهو الشق والتوسعة ، تابعي عدل ثقة ، وامام مشهور ، توفي سنة ١١٤ على الأصح ودفن مع ابيه في البقيع (١) .

التلمساني

محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن ابي طالب رضوان الله عنهم ، ولد بالمدينة المنورة ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة النبوية قبل قتل جده الحسين بثلاث سنين ، وكني أبا جعفر ولقب بالباقر لبقره العلم ، يقال بقر الشيء بجره ، سارت بذكر علومه الاخبار وانشد في مدائحه الاشعار، فمن ذلك قول مالك الجهني :

اذا طلب الناس علم القرآن   كانت قريش عليه عيالا
وان فاه فيه ابن بنت النبي   تلقت يداه فروعاً طوالا
نجوم تهلل للمدلجين   فتهدي بانوارهن الرجالا

وتوفي الباقر في المدينة المنورة سنة ١١٧ وله من العمر ثمانية وخمسون سنة وقيل ستون ، أقام منها مع جده الحسين ثلاث سنين ، ومع ابيه علي زين العابدين ٣٣ سنة وبقي بعد موت ابيه ١٩ سنة (٢) .

عبدالله بن محمد بن عامر

محمد بن علي (ع) : هو الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم أجمعين سمي بالباقر من بقر الارض أي شقها وأثار مخبآتها ومكامنها ، فكذلك هو أظهر من مخبآت كنوز المعارف وحقائق الاحكام والحكمة

(١) شرح الشفا للخفاجي ج ١ ص ٢٩٢ .
(٢) الأتحاف ص ٥٢ .

واللطائف ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة ، ومن ثم قيل هو باقر العلم وجامعه ورافعه ، صفا قلبه وزكا علمه وعمله وطهرت نفسه وشرف خلقه ، وعمرت اوقاته بطاعة مولاه ، وكنيته ابو جعفر لا غير ، والقابه ثلاثة: الباقر ، والشاكر ، والهادي، واشهرها الأول ، ويكفيه ما رواه ابن المديني عن جابر رضي الله عنه انه قال له - وهو صغير - رسول الله صلى الله عليه وسلم: يسلم عليك ، فقيل له وكيف ذلك؟ قال : كنت جالساً عنده والحسين (ع) في حجره يداعبه فقال : يا جابر يولد له مولود اسمه علي ، اذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم سيد العابدين ، فيقوم ولده ، ثم يولد له ولد اسمه محمد فان ادركته فاقرأه مني السلام (١) .

محمود بن عبدالفتاح الحنفي

الباقر محمد بن علي زين العابدين ابن الحسين الطالبي الهاشمي القرشي ابو جعفر الباقر خامس الأئمة الاثني عشر عند الامامية : كان ناسكاً عابداً ، له في العلم والتفسير آراء وأقوال ، ولد في المدينة وتوفي بالحميمة (٢) .

الزركلي

محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين (ع) ، سمي به لأنه بقر العلم اي شقه فعرف أصله وخفيه ، وله من الرسوخ في مقام العارفين ما تكلّ عنه السن الواصفين ، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف يعجز عن حكايتها الواصف . فمن كلامه :الصواعق تصيب المؤمن وغيره ولا تصيب ذاكر الله عز وجل . وقال: ما دخل قلب امرء شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله منه او اكثر . وقال : ما من افضل عبادة من عفة بطن وفرج ، وقال : ليس في الدنيا شيء أعون من الاحسان للاخوان ، وقال : بئس الاخ يرعاك غنياً ويقطعك فقيراً ، وقال :

(١) جوهرة الكلام ص ١٣٢ ـ ١٣٥ .

(٢) الاعلام ج ٣ ص ٩٤٢ .

أعرف المودة فى قلب أخيك بما له في قلبك . وكلامه من هذا المهيع كثير .

ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب بن عبدالمطلب، وامه ام عبدالله بنت الحسن بن علي بن أبي طالب ، فولد أبو جعفر : جعفر بن محمد وعبدالله بن محمد، وامهما ام فروة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق ، وابراهيم بن محمد ،وامه ام حكم بنت اسيد بن المغيرة بن الاخنس الثقفي ، وعلي ابن محمد وزينب بنت محمد ، وامهما ام ولد ، وام سلمة بنت محمد ، وامها ام ولد ... مات سنة ١١٧وهو ابن ثلاث وسبعين سنة .وقيل توفي سنة ١١٨ ، وقال ابو نعيم الفضل بن دكين : توفي بالمدينة سنة ١١٤ ، وكان ثقة كثير العلم والحديث وليس يروي عنه من يحتج به . طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٣٨

ولا يمكننا أن نستوعب جميع أقوال العلماء فيه ، لأنا قد اخذنا على انفسنا الأيجاز في البيان ، فلنترك بقية الأقوال ونكتفي بما ذكرنا لنأخذ صورة من صور حياته ، ولسنا من المغالين إن قلنا انه فريد عصره ، ولا يدانيه احد فيما اختص به من مميزات تؤهله لأن يكون هو المرجع الوحيد . وباستطاعتنا أن نضع بين يدي القارىء ادلة كافية على ذلك . ولعل بهذه الاشارة ما يكفينا عن التوسع في الموضوع .

والشيء الذي يلفت النظر هو قول ابن سعد فى آخر كلمته عن الأمام الباقر . ولم يرو عنه من يوثق به .

وهنا يجب أن نحاسب ابن سعد ونسائله عن هـذا القول ، فهو أمر يبعث على الاستغراب ،وبعيد كل البعد عن الواقع ، وتهجم على الحقيقة . فهل كان يقصد ابن سعد أن جميع من روى عن الامام الباقر لا يوثق به ؟ كيف وقد روى عنه

ثقات التابعين وعلماء المسلمين وقد احتج اصحاب الصحاح بتلك الروايات ، ولم يتوقف احد عن قبولها . وليس من البعيد أن يريد رواته من الشيعة فهم فى نظره غير ثقات ، نظراً لنفسيته وارتكازاته الذهنية التي علقت به من ايحاء الاوهام وعوامل السياسة وتدبير السلطة ضد شيعة اهل البيت ، او مجاراة للظرف الذي نشأ فيه . واذا اردنا ان ندرس نفسية ابن سعد وجدنا انطباعات الانحراف جلية لا مجال للتشكيك فيها ، ولا حاجة الى اجراء الحساب مع ابن سعد ، ولكننا نضع بين يدي القارىء بعضاً من رواة حديث الامام الباقر - من التابعين وغيرهم - ممن يعترف ابن سعد بأنهم ثقات ، كما ينص هو على اكثرهم فى طبقاته ، وخرج حديثهم أصحاب الصحاح لتظهر الحقيقة ، ونعرف مقدار انحراف ابن سعد عن الحق وابتعاده عن الواقع .

تلامذته ورواة حديثه

عمر بن دينار

عمر بن دينار الجمحي مولاهم أبو محمد الكوفي الأثرم المتوفى سنة ١١٥ أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة ، روى عنه قتادة وشعبة والسفيانان والحمادان وخلق . قال ابن معين : له خمسمائة حديث . قال مسعر : ثقة ثقة ثقة . وقال ابن ابي نجيح : ما كان عندنا أحد أفقه ، ولا اعلم من عمر ابن دينار . وزاد غيره ولا عطاء ولا طاوس . . . الخ .

عبد الرحمن

عبدالرحمن بن عمر الاوزاعي المتوفى سنة ١٥٧ ، أحد رؤساء المذاهب البائدة

ومن رجال الصحاح الستة . (١)

عبد الملك

عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الاموي ، مولاهم أبو الوليد المكي المتوفى سنة ١٥٠ . روى عنه يحيي بن سعيد الانصاري والسفيانان . وهو أحد الاعلام . واحتج بحديثه اصحاب الصحاح الستة . قال أحمد : كان من اوعية العلم (٢) .

قرة بن خالد

قرة بن خالد السدوسي ابو خالد البصري المتوفى سنة ١٥٤ . له نحو مائة حديث . واحتج به اصحاب الصحاح الستة .

محمد بن المنكدر

محمد بن المنكدر بن عبدالله القرشي التيمي أبو عبدالله المدني المتوفى سنة ١٣٣ من أعلام التابعين . واحتج به أصحاب الصحاح الستة . قال ابن عيينة : كان من معادن الصدق يجتمع اليه الصالحون . وقال الذهبي : مجمع على تقدمه وثقته .

يحيي بن كثير

يحيي بن كثير ابو نصر الطائي مولاهم اليمامي المتوفى سنة ١٢٩ . قال شعبة : هو أحسن من الزهري . وقال أبو حاتم : ثقة لا يروي الا عن ثقة(٣).

(١) انظر ترجمته في الجزء الاول ص ١٣١ من هذا الكتاب .
(٢) انظر طبقات الحفاظ ج ١ ص ١٦٠ .
(٣) طبقات الحفاظ ج ١ ص ١٢١ .

زيد بن علي

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ابو الحسين المدني المتوفى سنة ١٢٢ . روى عن ابيه واخيه محمد الباقر .

وعنه الزهري والاعمش وشعبة وسعيد بن خيثم واسماعيل السدي وزكريا بن ابي زائدة وعبدالرحمن بن الحارث بن عياش وغيرهم ، قتل سنة ١٢٢ وقال ابن خليفة سنة ١٢١ وقال مصعب الزبيري: قتل وهو ابن ٤٢ سنة وبقي مصلوبا الى سنة ١٢٦ . قال ابن ابي الدنيا : حدثني محمد بن ادريس حدثنا العتكي عن جرير بن حازم انه رأى النبي (ص) متسانداً الى جذع زيد بن علي وزيد مصلوب ، وهو يقول للناس : هكذا تفعلون بولدي (١) .

ولزيد بن علي منزلة عند الأئمة (ع) وقد أخذ العلم عن ابيه زين العابدين واخيه الباقر ، وله كتاب في الفقه وقد اكتشف « جرفيني بين المخطوطات القيمة في المكتبة الامبروزية بميلانو ـ الخاصة ببلاد العرب الجنوبية ـ مختصراً في الفقه اسمه (مجموعة زيد) المتوفى سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠) م وهو منسوب الى مؤسس فرقة الزيدية من الشيعة » (٢) .

موسى بن سالم

موسى بن سالم ابو جهضم مولى آل العباس . روى عنه عطاء ابن السائب وهو من أقرانه ، وليث بن ابي سليم والثوري ، والحمادان وغيرهم ،

---

(١) تهذيب التهذيب ج ٣ ٤٢٠ .

(٢) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٠٠ .

وثقه أحمد وابن معين وابو زرعة ، وابو حاتم ، وقال ابن عبدالبر : لم يختلفوا في انه ثقة (١) .

موسى الحناط

موسى بن ابي عيسى الحناط أبو هارون المدني ، روى عنه الليث بن سعد وابن عيينة ، ويحيى القطان ، وغيرهم . وثقه النسائي وابن حبان ، وروى له البخاري ومسلم وابو داود وابن ماجة .

القاسم بن محمد

القاسم بن محمد بن ابي بكر التيمي أبو محمد المدني المتوفى سنة ١٠٦ احد الفقهاء السبعة وأحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة . قال ابن سعد: كان ثقة عالماً فقيهاً إماماً كثير الحديث .

محمد بن سوقة

محمد بن سوقة روى عنه مالك بن مغول والثوري وابن المبارك وابومعاوية وعبدالرحمن بن محمد المحاربي ، واسماعيل بن زكريا ، ومروان بن معاوية وابو المغيرة النضر بن اسماعيل ، وعطاء بن مسلم الخفاف وابن عيينة وعلي بن عاصم الواسطي وغيره .

قال محمد بن عبيد : سمعت الثوري يقول : حدثني الرضا محمد بن سوقة. وقال الحسين بن حفص : قال الثوري : اخرج اليكم كتاب خير رجل بالكوفة، فاخرج كتاب محمد بن سوقة ، وقال العجلي : كوفي ثقة . وقال أبو حاتم : صالح

(١) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٣٤٤ .

الحديث . وقال النسائي : ثقة مرضي ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : كان من أهل العبادة والفضل والدين ، وقال الدارقطني : كوفي فاضل ثقة (١). خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة . قال ابن المديني : له ثلاثون حديثاً . وقال ابن عيينة : كان لا يحسن أن يعصي الله تعالى .

حجاج

حجاج بن أرطاة بن ثور بن شراحيل النخعي الكوفي القاضي المتوفى سنة ١٤٥ . روى عنه شعبة وهشيم وابن نمير والحمادان والثوري وحفص بن غياث وغندر ، وابو معاوية ، ويزيد بن هارون وخلق كثير .

وأخرج له مسلم في صحيحه ، والبخاري فى الادب المفرد والاربعة . قال ابن عيينة : سمعت ابن ابي نجيح يقول : ما جاءنا منكم مثله يعني الحجاج وقال الثوري : عليكم به فانه ما بقي أحد أعرف بما يخرج من رأسه منه وقال العجلي : كان فقيهاً ، وكان أحد مفتي الكوفة (٢) .

معروف

معروف بن خربوذ الكوفي مولى عثمان روى عن الباقر وهو من خواصه : وعنه وكيع ، وأبو داود الطيالسي وابو بكر بن عياش وعبدالله بن داود وابو عاصم وغيرهم ، وخرج له البخاري ، ومسلم ، وابو داود ، عده ابن حاتم في الثقات ، وقال الساجي : صدوق (٣) .

(١) ترجمته فى تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٢١٠ .

(٢) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١٩٦ .

(٣) الخلاصة ص ٣٢٧ .

الحسين

(الحسين بن زيد بن علي بن الحسين) روى عن عمه الباقر .

وعنه ابناه يحيى واسماعيل والدراوردي وابو غسان الكناني وأبو مصعب وعباد بن يعقوب ، وروى عنه علي بن المديني ووثقه الدارقطني توفي فى حدود سنة ١٩٠ وله ٨٠ سنة ، خرّج له ابن ماجة في السنن .

زيد

(يزيد بن عبد الله الشيباني الكوفي)

روى عنه وكيع وقبيصة وابو نعيم ويونس ، وثقه ابن معين وابو حاتم وذكره ابن حيان فى الثقات ، وخرّج له ابو داود وابن ماجة .

موسى

(موسى بن عمير القرشي) مولى آل جعدة المخزومي .

روى عن الباقر والصادق ، وعنه محمد بن عيسى بن الطباع والهيثم بن يمان ، ومحمد بن عبيد المحاربي ، وجعفر بن حميد وعباد بن يعقوب وغيرهم .

* * *

ولا يسعنا التوسع فى بيان اصحابه ورواة حديثه والمنتمين لمدرسته ، وبذكرنا لهذا الموجز من البيان عن بعض رواة حديثه كفاية لرد ما يقوله محمد ابن سعد (١) فى تلك المغالطة التي أبداها انحرافاً عن قول الحق ، وقد تركنا كثيراً

(١) محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ ببغداد وهو كاتب الواقدي ومؤلف الطبقات الكبرى وهو لم يسلم من الطعن هو وشيخه الواقدي وليس هذا محل بيان ترجمته .

من الأعلام كمحمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ ، وشيبة بن نصاح المخزومي مولى ام سلمة المتوفى سنة ١٣٠ ، ومسور بن الصلت بن ثابت بن وردان مولى رسول الله ص (١) ، والنعمان بن ثابت ابو حنيفة التيمي المتوفى سنة ١٥٠، وقد جاءت روايته عنه في جامع اسانيده وذكرت كتب مناقبه اجتماعه معه فى مكة والمدينة واخذه الحديث عنه (٢) .

وربيعة الراي استاذ مالك بن انس المتوفى سنة ١٣٦ (٣) .

وأسلم المنقري ابو سعيد الكوفي المتوفى سنة ١٤٢ .

ومعمر بن يحيي بن سام الضبي الكوفي من رجال صحيح البخاري . وثقه ابو زرعة وغيره .

وحرب بن سريج ابو سفيان المنقري . وثقه أحمد وابن معين .

والقاسم بن الفضل الازدي ، وثقه القطان واحمد وغيرهم وخرّج له الاربعة .

وعبدالله بن الوليد بن معقل المزني العجلي ، وثقه احمد وابن معين .

ويزيد بن عبدالله الشيباني ابو عبدالله الكوفي ، وثقه ابن معين وابن حبان.

ومحمد بن اسحاق بن يسار ابو بكر المطلبي المتوفى سنة ١٥١ صاحب المغازي (٤) .

وعبدالله بن عطاء المدني ، خرّج له مسلم والاربعة ، وروى عنه شعبة واسحاق والثوري وغيرهم .

مما يطول ذكرهم وبيان اسمائهم .

---

(١) انظر تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٤٥ .
(٢) انظر جامع اسانيد ابي حنيفة ج ٢ ص ٣٤٩ .
(٣) انظر تهذيب الاسماء واللغات ص ٨٧ ،
(٤) انظر تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٦٢ .

أما أصحابه ورواة حديثه من الشيعة ، فكثيرون يتعذر علينا حصرهم ولكن نشير الى البعض منهم :

ابان بن تغلب

أبان بن تغلب الربعي ابو سعد الكوفي المتوفى سنة ١٤١ كان من تلامذة السجاد والباقر والصادق ، وأمره ابو جعفر الباقر أن يجلس في مسجد المدينة ويفتي الناس ، وقد خرّج حديثه مسلم في صحيحه والترمذي والنسائي وابو داود وابن ماجة ، وثقه احمد وابن معين والنسائي وابو حاتم . وقال ابن عدي : له نسخ عامتها مستقيمة اذا روى عنه ثقة وهو من أهل الصدق ، وفي الرواية صالح لا بأس به ، وان كان مذهبه مذهب الشيعة ، وقال ابن سعد : كان ثقة . وقال الذهبي ثقة ثقة . . . الى آخر ما هو موجود في مدحه والثناء عليه (١) وله كتب في التفسير وعلم القراءة والفرائض ، وكان يحفظ ثلاثين الف حديث عن الصادق فقط .

بريد العجلي

بريد بن معاوية ابو القاسم العجلي المتوفى سنة ١٤٨ ، كان من حواري الامام الباقر والصادق ، وروى عنهما . قال الكشي : هو ممن اتفقت العصابة على تصديقه ، وقال العلامة الحلي : هو وجه من أصحابنا ثقة فقيه ممن اتفقوا على تصديقه وانقادوا له بالفقه . وقد ورد مدحه عن الأئمة (ع) ، وقد بلغ عندهم حداً فوق الوثاقة ، لجلالة قدره وعظيم شأنه . روى داود بن سرحان قال سمعت الصادق يقول : إن أصحاب ابي كانوا زيناً أحياءً وامواتاً ، اعني :

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ، ولسان الميزان ، وميزان الاعتدال ، والخلاصة .

زرارة بن اعين ، ومحمد بن مسلم ، ومنهم ليث المرادي ، وبريد العجلي ...الخ.
الى غير ذلك من أقواله في خواص أصحابه وأصحاب أبيه .

بكير بن أعين

بكير بن اعين الشيباني أخو زرارة بن اعين ، من أصحاب الباقر والصادق ، ومات في حياة الصادق ، ولما بلغه خبر موته قال : أما والله لقد أنزله الله بين رسوله وأمير المؤمنين ، وذكره يوماً فقال : رحم الله بكيراً ، وهو من ثقات اولاد أعين وصلحائهم .

ابو حمزة الثمالي

ابو حمزة الثمالي ، ثابت بن دينار ، روى عن علي بن الحسين والباقر والصادق ، وبقي الى أيام الكاظم ، وكان عظيم المنزلة ، جليل القدر . روى عنه سفيان الثوري ، وشريك ، وحفص بن غياث ، وابو اسامة ، وعبدالملك بن ابي سليمان ، وابو نعيم ، ووكيع ، وعبيدالله بن موسى . وخرّج حديثه الترمذي ، وابن ماجة ، والنسائي في خصائص علي . وقد ورد مدحه عن الأئمة ، وهو راوي دعاء علي بن الحسين الذي يقرأ سحر شهر رمضان المعروف بدعاء ابي حمزة الثمالي .

جابر الجعفي

جابر بن يزيد بن الحارث بن عبد يغوث الجعفي ، ابو يزيد الكوفي المتوفى سنة ١٢٨ ، روى عنه شعبة ، والثوري ، واسرائيل ، والحسن بن حي ، وشريك ، ومسعر ، ومعمر ، وابو عوانة ، وخرّج حديثه ابو داود ، والترمذي

وابن ماجة . قال ابن مهدي : ما رأيت في الحديث اورع منه . وقال ابن علية : جابر صدوق في الحديث . وقال يحيي بن ابي بكير عن شعبة : كان جابر إذا قال حدثنا وسمعت ، فهو من أوثق الناس .

وقال وكيع : مهما شككتم في شيء فلا تشكوا في أن جابراً ثقة . وقال ابن عبدالحكم . سمعت الشافعي يقول : قال سفيان الثوري لشعبة : لئن تكلمت في جابر الجعفي ، لأتكلمن فيك . وكان جابر يحفظ مائة الف حديث (١) هكذا وصفه معاصروه ، وهكذا نقلوا عنه . وقد كانت له منزلة في الكوفة ، وانتشر حديثه ، وأخذ عنه العلماء . وبعد أن تطور الزمن ـ وظهرت الآراء ، وهبت زوبعة الخلاف ، واشتد النزاع بين العرب والموالي ، أو بين أهل الحديث وأهل الرأي ، وبدا في افق السياسة عامل التفرقة ـ اصبح جابر لا يؤخذ بقوله ، ورماه غير واحد بالكذب وكانت كلماتهم مشوشة ، وادلتهم على تكذيبه واهية لم يدعموها بحجة ، ولقد ظهر من ابي حنيفة القول بتكذيب جابر ، لأن جابراً عارض أهل الرأي . وانتصر لأهل الحديث ، وبالطبع أن ذلك يصعب عليهم . يقول ابو يحيي الحماني : قال أبو حنيفة : ما لقيت في من لقيت أكذب من جابر ما أتيته بشيء من رأيي إلا جاءني فيه باثر . هذا هو استدلال ابي حنيفة على تكذيب جابر ، وهو كما ترى ، لأن أبا حنيفة قليل الحديث ، ولم يكن من أهله حتى قيل : إنه لم يحفظ اكثر من سبع أحاديث . وبالطبع انه يستغرب كثرة أحاديث جابر ، لانه يحفظ مائة الف حديث ، على أن ذلك العصر قد تطلعت به رؤوس الموالي ، وبدأت عوامل الفرقة وانصار ابي حنيفة يأخذون قوله بعين

(١) انظر تهذيب التهذيب ج ٢ص ٤٨ .

الاعتبار ، فوسعوا تلك الدائرة ، فكثرت كلمات الذم له جرياً للظروف وخضوعاً لعوامل الخلاف .

وقد قال الامام الصادق فى مدحه : رحم الله جابراً كان يصدق علينا ، ولعن الله المغيرة ، كان يكذب علينا .

وروى الكشي في رجاله روايات كثيرة دالة على مدحه ، وله أصل يرويه الشيخ الطوسي عن ابن ابى جيد عن ابن الوليد ، كما انه يذكر له كتاباً فى التفسير (١) .

وعلى اي حال فان الامر لا يحتاج الى مزيد بيان ، لتلك العوامل التي أدت الى تكذيبه من قبل بعض رجال عصره وبعد عصره . وقد كان يكثر روايته عن أهل البيت ، ويقول عند ما يحدّث عن الامام الباقر : حدّثني وصي الاوصياء . وهو أمر يعظم تحمله فى عصر تقرب الناس لولاتهم بالابتعاد عن أهل البيت ، لذلك رأينا كثيراً من رجال الحديث تركوا الرواية عنهم : إما خوفاً على أنفسهم ، او تقرباً لسلطانهم .

محمد بن مسلم

محمد بن مسلم بن رياح ابوجعفر الكوفي الثقفي ، مولاهم المتوفى سنة ١٥٠ عن سبعين سنة . روى عن الامام الباقر وابنه الصادق . وقد أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنه .

وكان المثل الاعلى فى الصلاح والطاعة والعلم ، وقد حفظ عن الامام الباقر ثلاثين الف حديث ، وعن الامام الصادق ستة عشر الف حديث . وله كتاب

(١) انظر الفهرست للشيخ الطوسي ص ٤٥ .

يسمى الاربعمائة مسألة في ابواب الحلال والحرام . قال عبدالله بن ابي يعفور : قلت لابي عبدالله : انه ليس كل ساعة القاك ، ولا يمكن القدوم اليك ، ويجيء الرجل من أصحابنا فيسألني ، وليس عندي كما يسألني عنه . قال فما يمنعك عن محمد بن مسلم الثقفي ؟ فانه قد سمع من ابي ، وكان عنده وجيهاً . ودعي لادا. شهادة عند شريك القاضي هو وابو كريبة الازدي ، فقال ابن ابي ليلى : جعفريان فاطميان ورد شهادتهما ، فقال محمد بن مسلم لشريك : نسبتنا لأقوام لا يرضون بامثالنا ، ولرجل لا يرضى بامثالنا أن نكون من شيعته . فان تفضل وقبلنا ، فله المن علينا والفضل . فتبسم شريك ثم قال : إذا كانت الرجال فلتكن أمثالكم . وسئل ابو حنيفة صاحب الرأي عن مسألة الحامل التي تموت والولد يتحرك فى بطنها ، ويذهب ويجيء ، فقال للسائل : عليك بمحمد بن مسلم الثقفي ، فانه يخبرك فيها .

ودخل عليه شريك القاضي وعنده امرأة تسأله عن امرأة ضربها الطلق ، فما زالت تطلق حتى ماتت ، والولد يتحرك فى بطنها ويذهب ويجيء فما اصنع ؟ فقال محمد بن مسلم : يا امة الله سئل محمد بن علي بن الحسين الباقر عن مثل ذلك ، فقال : يشق بطن الميت ، ويستخرج الولد . فقالت : رحمك الله جئت الى ابي حنيفة صاحب الرأي اسأله ، فقال . ائتي محمد بن مسلم ... الخ .

ولما ردّ ابن ابي ليلى شهادة محمد بن مسلم ، أرسل الامام الصادق من يسأل ابن ابي ليلى عن مسائل يعجز عن حلها ، وقال قل له ، اذا عجز عن ذلك يقول لك جعفر بن محمد : ما حملك على أن رددت شهادة رجل أعرف منك باحكام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله ؟ فلما صار الرجل اليه وسأله ، فلم يجب وبلغه قول الامام الصادق ، قال ابن ابي ليلى : من هو ؟ قال هو محمد

ابن مسلم الثقفي . فلم يرد شهادته بعدها . وكان محمد بن مسلم رجلاً موسراً جليلا فى قومه ، وله منزلة عظيمة . وأقام بالمدينة أربع سنين يتعلم العلم من الامام الباقر .

حمران بن اعين

حمران بن اعين الشيباني مولاهم الكوفي ، روى عن الباقر والصادق عليهما السلام وكان الامام الباقر يقول فيه : حمران من المؤمنين حقاً لا يرجع ابداً وكانت له منزلة عندهم ،وكان فقيهاً عالماً بعلوم القرآن واللغة والنحو وعلم الكلام .

زرارة

زرارة بن اعين الشيباني أبو الحسن الكوفي المتوفى سنة ١٥٠ من مشاهير رجال الشيعة ،فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام ، اجتمعت فيه خلال الفضل والدين ، وهو من أصحاب الباقر والصادق عليهما السلام ، قال النجاشي : شيخ اصحابنا في زمانه ومتقدمهم وكان قارئاً فقيهاً متكلما شاعراً أديباً ، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين ، وقال ابو غالب كما حكي عنه : إن زرارة كان وسيما جسيما ابيض ، فكان يخرج الى الجمعة وعلى رأسه برنس اسود وبين عينيه سجادة ، وفي يده عصى فيقوم الناس سماطين ينظرون اليه لحسن هيئته فربما رجع من طريقه ، وكان خصما جدلاً لا يقوم بحجته ، صاحب إلزام وحجة قاطعة إلا أن العبادة اشغلته عن الكلام ، والمتكلمون من الشيعة تلاميذه .

وقيل لجميل بن دراج : ما أحسن محضرك وازين مجلسك ! فقال : اي والله ما كنا حول زرارة بن اعين إلا بمنزلة الصبيان حول المعلم . ودخل الفيض ابن المختار على الامام الصادق فسأله عن الاختلاف فى الحديث فاجابه الامام بعد

كلام طويل : إذا أردت حديثنا فعليك بهذا الجالس وأشار الى زرارة بن اعين .
وقال سليمان بن خالد الاقطع سمعت أبا عبدالله يقول : ما أجد أحداً أحيا ذكرنا وأحاديث ابي : إلا زرارة وأبا بصير المرادي ، ومحمد بن مسلم ، وبريد ابن معاوية العجلي .

وقد تحمل زرارة في سبيل دفاعه عن أهل البيت ونشر أحاديثهم ما يتحمله أمثاله من حملة العلم والمخلصين في الدعوة الى آل الرسول وقد تقوّل عليه خصومه أقوالاً وأنتحلوا له آراءً حتى بلغ ذلك الامام جعفر بن محمد (ع) فقال أنا ابرأ ممن يقول ذلك ، فاظهر خصومه تلك المقالة واشاعوها عليه ليحطوا من مقامه ، فالتجأ آل زرارة الى كشف الحال من الامام الصادق .

دخل حمزة بن حمران على الامام الصادق فقال : يا أبا عبدالله بلغني انك برئت من عمي « يعني زرارة » فقال (ع) : أنا لم ابرأ من زرارة ولكنهم يجيؤن ويذكرون ويروون عنه فلو سكت الزمونيه فاقول من قال هذا أنا بريء منه.

وقال الحسين بن زرارة : يا أبا عبدالله إن ابي يقرأ عليك السلام ويقول لك : جعلت فداك لا يزال الرجل والرجلان يقدمان فيذكران انك قلت فيّ . فقال أبو عبدالله : اقرأ أباك السلام وقل له : أنا والله أحب لك الخير فى الدنيا وأحب لك الخير فى الآخرة ، وأنا والله عنك راض . الى كثير من الاقوال فى مدحه الدالة على جلالة قدره وعظيم منزلته .

قال الشيخ الطوسي : ولزرارة مصنفات منها كتاب الاستطاعة والجبر .

وقال ابن النديم : وزرارة اكبر رجالات الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام والتشيع ، ومن ولده الحسين بن زرارة والحسن بن زرارة من أصحاب جعفر بن محمد .

ومن تتبع كتب الحديث يقف على حقيقة أمره وعلو منزلتـه فى العلم وحرصه الشديد على أخذ الأحكام من أهل بيت الرسول (ص) .

عبدالملك بن اعين

عبدالملك بن اعين الشيباني ،ولاهم الـكوفي ، روى عنه السفيانان وغيرهما وخرَّج حديثه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي وابن ماجة والنسائي ، روى عن الامام الباقر والصادق ، وكان له عند الامام الصادق درجة ، ولما بلغه خبر وفاته ترحم عليه ودعا له ، وكان من التابعين وحفاظ الحديث .

قال ابو حاتم محله الصدق ومن عتق الشيعة يكتب حديثه . وقال ابن حجر ـ فى التقريب ص ٢٤٩ ـ : عبدالملك بن اعين مولى بني شيبان صدوق شيعي .

وحيث قد أخذنا على انفسنا لاختصار فلا يمكننا أن نتوسع با كثر مما ذكرنا من رواة حديثه وقد جمعنا منهم اكثر من ثلثمائة رجلاً . وعسانا نوفق لابراز كتاب خاص فى حياة الامام الباقر فنذكرهم هناك ، كما وانا لم نتعرض لذكر المؤلفين من أصحابه وعددهم ينوف على المائة . اما التفسير المنسوب الى الامام الباقر عليه السلام والذي يرويه عنه زياد بن المنذر ابو الجارود فقد ذكره الشيخ الطوسي فى الفهرست ورواه عنه بطريقين ، كما ذكره صاحب الذريعة وابن النديم في الفهرست وغيرهم (١) .

مدرسة الامام الباقر

رأينا كيف أنهال رجال العلم من التابعين وغيرهم على مدرسة الامام الباقر

(١) وقد حققه الاستاذ المحامي شاكر الذرباوي في كتابه حياة الباقر الجاهز للطبع واثبت ذلك من عدة طرق كما أنه وقف على معلومات كافية حول التفسير واستحصل جملا منه .

مع وجود تلك الخطط التي ضربها الامويون ليصرفوا الناس عن أهل البيت ، وتقدموا اليهم بالتهديد والتوعيد وحذروا من خالف ذلك ، واظهروا كوامن الحقد وقديم الخصومة ولا يروق لهم أن يذكرهم أحد بخير ، وقاموا الى جانب ذلك بالمغريات الخداعة من بذل المال واسناد الوظائف لمن عرفوا منه الانحراف عن آل محمد .

ولكن تلك الخطط التي ساروا عليها لم تنجح النجاح المطلوب فاجتاز اكثر المسلمين تلك العقبات ، وحفظوا لأهل البيت منزلتهم وعرفوا مقامهم وما وهبهم الله من علوم هم احوج ما يكونوا اليها ، فتحملوا ـ في سبيل أخذ العلم ونشر الاحكام في جميع الاقطار ـ مصاعب وواجهوا محناً ولكنها تهون عليهم في سبيل نصرة الحق وإظهار الحقيقة .

وقد نشأ الامام الباقر في عصر قوة الدولة وامتداد سلطانها وشدة نفوذها ، ومع ذلك فقد قام بما يجب عليه من الدعوة لله ونشر تعاليم الاسلام والقاء دروس الاخلاق والعلوم الدينية ، والحث على التمسك بالدين والابتعاد عن الظلمة الذين اتخذوا مال الله دولاً ، فازدحم العلماء على ابواب مدرسته وانتشروا في اقطار المملكة يحملون للناس أصدق الحديث ، واظهروا الحقائق التي حاول الامويون اخفاءها بابراد التمويه والخداع .

وقد كان يؤلمهم موقف الامام الباقر ، وتقض مضاجعهم شهرته في الآفاق ولكن ماذا يصنعون والحجاز يخلص له بالولاء والمدينة المنورة ترعى جانبه وتقدر منزلته . ولا يستطيعون أن يحركوا جانب المدينة مرة اخرى وهي المركز الاسلامي ، واليها تقصد وفودهم في أخذ الاحكام . فكان هو وحيـــد عصره

في ارشاد الناس وتحذيرهم من الزيغ والضلال واليه يرجعون في معضلات المسائل فيحل لهم عقالها ويوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه من احكام الدين ، فكان قوله الفصل وحكمه العدل .

روى مكحول بن ابراهيم عن قيس بن الربيع قال : سألت أبا اسحاق عن المسح على الخفين فقال : أدركت الناس يمسحون حتى لقيت رجلاً من بني هاشم لم أر مثله قط وهو محمد بن علي بن الحسين فسألته عن المسح على الخفين . فنهاني عنه ، وقال : لم يكن امير المؤمنين يمسح عليهما وكان يقول : سبق الكتاب المسح على الخفين . قال ابو اسحاق : فما مسحت مذ نهاني عنه ، وقال قيس ابن الربيع : وما مسحت أنا مذ سمعت أبا اسحاق :

وقال زرارة : كنت جالساً الى جنب ابي جعفر عليه السلام وهو مستقبل القبلة فقال : اما ان النظر اليها عبادة ، فجاءه رجل من بجيلة فقال لابي جعفر : إن كعب (١) الاحبار كان يقول : إن الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة ، فقال ابو جعفر . فما تقول فيما قال كعب ؟ فقال الرجل : صدق كعب ، فقال له ابو جعفر : كذبت وكذب كعب الاحبار معك ، وغضب . قال زرارة : ما رأيته استقبل أحداً بقوله كذبت غيره .

وكان عليه السلام إذا دخل مكة انثال عليه الناس يستفتون عن أهم

---

(١) هو كعب بن ماتع الحميري ابو اسحاق المعروف بكعب الاحبار المتوفى سنة ٣٤ هـ (٦٥٢ م) بحمص وكان يهودياً أسلم في أيام ابي بكر وقيل في أيام عمر وكان عنده تنبؤات عن طريق الاحاديث التي وضعها اليهود او المسيحيون واشتهر كعب بذلك ومثله وهب بن منبه وتميم الداري وكان لهذه الاحاديث أثر في المجتمع إذا ادخلوا اشياء من التكهن بوقوع الحوادث أو مصير العالم وقد استمد منهم معاوية اشياء يستعين بها على تقوية مركزه لذلك نوه باسم كعب فقال : انه كان من أصدق هؤلاء المحدثين ، ألا ان كعباً أحد العلماء ، وقد روى عنه ابو هريرة ومعاوية وأنكر المسلمون على كعب وأصحابه وكذبوهم لرجمهم بالغيب .

مسائل الحلال والحرام ، ويستفتحون ابواب مشاكل العلوم ويغتنمون فرصة الاجتماع به ليزودهم بتعاليمه حتى افتاهم في يوم واحد عن الف مسألة ، وإذا أقام بمكة عقدت له حلقة ينضم فيها طلاب العلم بل علماء الامة ، وحج هشام بن عبدالملك فنظر الى اجتماع الناس حوله وحضور العلماء عنده فثقل عليه ذلك ، فارسل رجلاً من اصحابه وقال له : قل له يقول لك امير المؤمنين ما الذي يأكله الناس ويشربونه في المحشر الى ان يفصل بينهم يوم القيامة ؟ فلما سأله الرجل قال له الامام الباقر : يحشر الناس مثل قرص النقى (١) فيها اشجار وانهار يأكلون ويشربون منها حتى يفرغوا من الحساب فقال هشام للرسول : اذهب اليه فقل له يقول : ما اشغلهم عن الاكل والشرب يومئذ ؟ فقال ابو جعفر : هم في النار اشغل ولم يشتغلوا عن أن قالوا : افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله ، فسكت هشام ولم يظفر بما اراد من سؤاله للامام فانه سؤال امتحان لا استفادة .

ودخل عليه رجل من الخوارج فقال له : يا ابا جعفر اي شيء تعبد ؟ فقال عليه السلام : (الله) . قال الرجل : رأيته ؟ قال بلى ، لم تره العيون بمشاهدة الابصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان ، لا يعرف بالقياس ولا يدرك بالحواس ولا يشبه بالناس ، موصوف بالآيات معروف بالدلالات ، لا يجور في حكمه ، ذلك الله لا إله إلا هو .

فخرج الرجل وهو يقول : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

ودخل عليه عثمان الاعمى من أهل البصرة وقال له : يا ابن رسول الله إن الحسن البصري زعم ان الذين يكتمون العلم يؤذي ريح بطونهم النار ، فقال

(١) النقى كغنى قال في النهاية الحديث يحشر الناس يوم القيامة على ارض بيضاء كقرصة النقى يعني الخبز الحواري .

أبو جعفر : إذاً هلك مؤمن آل فرعون والله مدحه بذلك .

والغرض إنه عليه السلام كان مرجعاً لكثير من المسائل ويعلّم الناس أحكام دينهم وقد قصده العلماء للسؤال وكشف الحقائق كعمرو بن عبيد وطاووس اليماني والحسن البصري ونافع مولى ابن عمر وغيرهم ممن يطول ذكرهم . وقد ناظر أهل الفرق وخاصمهم وبين لهم فساد آرائهم وسوء معتقداتهم الى كثير مما هو مذكور في محله .

وكان عليه السلام يزوّد الوافدين بتعاليم قيمة ، ويدعو الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . ونرى من الخير أن نذكر بعضاً من كلماته ومختارات من مواعظه .

حكمه :

* كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه .

* أشد الأعمال ثلاثة : ذكر الله على كل حال ، وانصافك من نفسك ، ومواساة الاخ فى المال .

* إذا رأيتم القارىء يحب الاغنياء فهو صاحب دنيا ، وإذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص .

* ما شيب شيء بشيء أحسن من علم بحلم .

* إن استطعت أن لا تعامل أحداً إلا ولك الفضل عليه فافعل .

* من كان ظاهره أرجح من باطنه خفّ ميزانه .

* إياك والكسل والضجر فانهما مفتاح كل شر ، من كسل لم يؤد حقاً ومن ضجر لم يصبر على حق .

* التواضع الرضا بالمجلس دون شرفه ، وأن تسلم على من لقيت ، وان تترك المراء وإن كنت محقاً .

* إن لله عقوبات في القلوب والابدان : ضنك في المعيشة ، ووهن في العبادة وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب .

* الحياء والايمان مقرونان ، فاذا ذهب أحدهما ذهب صاحبه .

* إن هذا اللسان مفتاح كل خير وشر ، فينبغي للمؤمن أن يختم على لسانه كما يختم على ذهبه وفضته ، فان رسول الله (ص) قال : رحم الله مؤمناً امسك لسانه من كل شر ، فان ذلك صدقة منه على نفسه .

* عليكم بالورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الامانة الى من ائتمنكم عليها براً كان أو فاجراً ، فلو أن قاتل علي بن ابي طالب ائتمنني على امانة لاديتها اليه .

* اعلم ان طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك فاكرم وجهك عن رده .

* الكسل يضر بالدين والدنيا .

* لا يقبل عمل إلا بمعرفة ، ولا معرفة إلا بعمل ، ومن عرف دلته معرفته على العمل ، ومن لم يعرف فلا عمل له .

* من صدق لسانه زكى عمله ، ومن حسنت نيته زيد في رزقه ، ومن حسن بره في أهله زيد في عمره .

* ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة : أن تعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتحلم إذا جهل عليك .

* سلاح اللئام قبيح الكلام .

وقد نظمه بعضهم :

لقد صدق الباقر المرتضى   سليل الامام عليه السلام
بما قال فى بعض الفاظه   سلاح اللئام قبيح الكلام (١)

* قم بالحق واعتزل ما لا يعنيك ، وتجنب عدوك ، واحذر صديقك ، ولا تصحب الفاجر ولا تطلعه على سرك ، واستشر في امرك الذين يخشون الله.

* إنما مثل الحاجة الى من أصابه ماله حديثاً كمثل الدرهم في فم الافعى أنت اليه محتاج وانت منها على خطر .

* قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم ، فان الله يبغض اللعان السباب الطعان على المؤمنين ، ويحب الحيي الحليم العفيف المتعفف .

* إن المؤمن أخو المؤمن لا يشتمه ولا يحزنه ولا يسيء به الظن .

وصايا الامام الباقر

وصيته لعمر بن عبد العزيز

دخل الامام الباقر على عمر بن عبدالعزيز ، فقال له عمر أوصني . فقال : اوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً واوسطهم اخاً واكبرهم أباً ، فارحم ولدك وصل أخاك وبر والدك ، واذا صنعت معروفاً فربه (١) (*) .

(١) الاتحاف للشبراوى ص ٧٦ .
(٢) عين الادب والسياسة لابن هذيل والطراز للخفاجي .
(*) قال ابو علي : ربه بمعنى ادمه يقال ربه في المكان أي أقام ودام .

وصيته لجابر

من وصيته لجابر بن يزيد الجعفي :

فكر فيما قيل فيك ، فان عرفت من نفسك ما قيل فيك ،فسقوطك - من عين الله جل وعز عند غضبك من الحق - اعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من اعين الناس ، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك . فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك .

وأعلم أنك لا تكون لنا وليا حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا : إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك ، ولو قالوا : إنك رجل صالح لم يسرك ذلك ، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله .فان كنت سالكا سبيله زاهداً في تزهيده راغباً في ترغيبه خائفاً من تخويفه فاثبت وابشر ، فانه لا يضرك ما قيل فيك .

وان كنت مباينا للقرآن فماذا الذي يغرك من نفسك . ان المؤمن معنّى بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها ، فمرة يقيم أودها ويخالف هواها في محبة الله : الى أن يقول :

وتوقّ مجازفة الهوى بدلالة العقل ، وقف عند الهوى باسترشاد العلم ، واستبق خالص الاعمال ليوم الجزاء ،واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس ، وسدّ سبيل العجب بمعرفة النفس ، وتحرز من ابليس بالخوف الصادق . وإياك والرجاء الكاذب ،فانه يوقعك في الخوف الصادق ...

واطلب بقاء العز باماتة الطمع ، وادفع ذل الطمع بعز اليأس ، واستجلب عز اليأس ببعد الهمة ، وتزود من الدنيا بقصر الامل ، وبادر بانتهاز البغية عند امكان الفرصة .

واعلم أنه لا علم كطلب السلامة ، ولا سلامة كسلامة القلب ، ولا عقل كمخالفة الهوى ، ولا خوف كخوف حاجز ، ولا رجاء كرجاء معين ، ولا فقر كفقر القلب ، ولا غنى كغنى النفس ، ولا قوة كغلبة الهوى ، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك ، ولا نعمة كالعافية ، ولا عافية كمساعدة التوفيق ، ولا شرف كبعد الهمة ... الخ . وصيته وهي طويلة اخذنا منها اليسير (١) .

* * *

الى كثير من وصاياه وتعاليمه . وقد احتفظ التاريخ بكثير من تراثه الفكري (٢) بما فيه الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية فقد كان يفيض على سامعيه من الخواطر والحكم متوجهاً الى النصح والارشاد ، منقطعاً لتوجيه المجتمع ، متفرغاً لفنون البحث والدراسة ، مبتعداً عن التدخل في السياسة ، فكان يغتنم فرصة استعداد سامعيه لتلقي ما يدلي به من النصائح التي تصل لقلب السامع ، فلا يسعه إلا التسليم.

وقد كان يؤدب أصحابه بآداب الاسلام ، ويحثهم على الطاعة ومكارم الاخلاق ، ويدعوهم الى العمل في اصلاح معائشهم بما يصلح به حالهم ، فكان يقول:

من طلب الدنيا استعفافاً عن الناس وسعياً على اهله وتعطفاً على جاره ، لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر .

وكان يقول: نعم العون الدنيا على الآخرة ، وكان يحثهم على حسن العشرة وملازمة الآداب لئلا يتكدر صفو المودة وتفسد الاخوة . وليس وراء ذلك إلا العناء . فتراه (ع) يكثر في قوله :

---

(١) انظر تحف العقول ٦٩ .

(٢) انظر تاريخ ابن كثير واليعقوبي ، والصواعق لابن حجر ، وكشف الغمة للاربلي والفصول المهمة لابن الصباغ ، وتحف العقول ، ومطالب السؤول ، وتذكرة الخواص وغيرها.

عظموا اصحابكم ووقروهم ، ولا يتهجم بعضكم على بعض ، ولا تضاروا ولا تحاسدوا ، وإياكم والبخل ، كونوا عباد الله المخلصين .

وكان ينهى عن كثرة المزاح بقوله :

كثرة المزاح تذهب بماء الوجه ، وكثرة الضحك تمج الايمان مجا ، وكان يوصيهم بحسن الجوار وتحمل الاذى من الجار ، ويقول قرأت في كتاب علي (ع) إن رسول الله صلى الله عليه وآله كتب بين المهاجرين والانصار ومن لحق بهم من يثرب : إن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وحرمة الجار على الجار كحرمة امه ... الحديث .

ليس حسن الجوار كف الاذى وإنما حسن الجوار صبرك على الاذى .

وقال (ع) : من القواصم التي تقصم الظهر جار السوء إن رأى حسنة أخفاها وان رأى سيئة أفشاها ـ الى غير ذلك مما لا يمكننا عرضه ولا نستطيع احصاء تعاليمه القيمة وحثه على محاسن الاخلاق وحسن الآداب ، فقد كان يحب الخير ويدعو اليه وهو المثل الاعلى في مكارم الاخلاق وجميل الصفات .

وهكذا قضى حياته متوجهاً لله باذلاً نصحه للامة متحملاً من ولاة عصره ضروب الاذى والتضيق والاهوال العظيمة ، ولكنه ثبت أمام تيار ظلمهم غير حافل بما يوجهونه اليه ، مستعيناً بالله متوكلاً عليه ، فاحتمل تلك الملمات في سبيل نصرة الحق واحرز النصر وتم له أعظم النجاح على خصومه الذين وجهوا اليه كل اذى ، وحاولوا صرف الناس عنه بكل وسيلة ، ولقد جلبه هشام الى الشام مرتين يحاول الفتك به ، ولكن الله برعايته رد عنه كيده وصرف عنه اذاه .

ولقد كان عبدالملك بن مروان يتظاهر بعدم التعرض لاهل البيت ، وكتب الى عامله في الحجاز :

جنبني دماء آل ابي طالب فاني رأيت آل حرب لما تهجموا بها لم ينصروا (١) .

وكان لا يجهل منزلتهم ويعرف مكانتهم ، ولكن حرصه على ملكه وطمعه في دنياه يدعوه الى نصب العداء لهم ؟ لأنهم اوقع منه في نفوس الامة واليهم تهوى افئدة المسلمين .

وكان يلجأ اليهم فى اكثر الامور التي تهمه ، ولا يجد المخرج منها إلا بهم لعلمه بمكانتهم وهو يتكتم بذلك .

كتب اليه ملك الروم يتوعده فضاق عليه الجواب ، فكتب الى الحجاج وهو إذ ذاك على الحجاز : ان ابعث الى علي بن الحسين زين العابدين فتوعده وتهدده واغلظ له ،ثم انظر ماذا يجيبك ؟ فاكتب به الي .

ففعل الحجاج ذلك . فقال له علي بن الحسين عليه السلام : إن لله فى كل يوم ثلثمائة وستين لحظة ، وارجو أن يكفنيك فى اول لحظة من لحظاته . فكتب الحجاج الى عبدالملك بذلك (٢) .

ولما كتب ملك الروم لعبدالملك بن مروان يتهدده أن يذكر النبي (ص) فى الدنانير بما يكرهون ، فعظم ذلك على عبدالملك واستشار الناس (٣) فلم يجد عند أحد منهم رأياً .

فقال له روح بن زنباع : إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر ، ولكنك تتعمد تركه . فقال : ويحك من ؟ فقال : عليك بالباقر من أهل بيت النبي صلى الله

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ٤٧ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) شذور العقود المقريزي ص ٧ .

عليه وآله . قال : صدقت ولكنه ارتج علي الرأي فيه ، فكتب الى عامله بالمدينة : ان اشخص الي محمد بن علي بن الحسين مكرماً ، ومتعه بمائة الف درهما لجهازه وبثلاثمائة الف لنفقته ، وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من اصحابه ، وحبس عبدالملك رسول ملوك الروم الى موافاة محمد بن علي الباقر ، فلما وافاه اخبره الخبر، فقال له محمد الباقر: لا يعظم عليك فانه ليس بشيء من جهتين: إحداهما أن الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم في رسول الله صلى الله عليه وآله ، والثاني وجود الحيلة فيه قل : وما هي ؟ قال : تدعو بصاغة فيضربون بين يديك سككا للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد الى آخر القصة (١) .

وعلى أي حال فالامام ابو جعفر الباقر أعلم أهل زمانه وسيد الهاشميين وأفضلهم في عصره ، ولم يكن ليحيا حياة العزلة او ينضم في زاوية الخمول ، بل كانت له شهرة ولمدرسته اثر في توجيه الفكر . تخرّج منها علماء الامة الذين هم مفخرة الزمن .

وقد نظر اليه رجال السلطة نظر تهيب وتحفظ ، ووقفوا امام نشر تعاليمه وانتشار ذكره ، لان ذلك يهدد مناصبهم التي أحاطت بها هالة من الجبل ، والتف حولها اعداء الفضيلة وخصوم الحق ، وقد تحمل صلوات الله عليه ضروب الاذى ، وثبت امام تلك المصاعب مجاهداً لاحياء الدين وتأييد الشريعة وخدمة الانسانية، ودعا المسلمين لما فيه صلاح دينهم ودنياهم ليصبحوا امة ابراراً ، يتعاونون على البر والتقوى والعدل والاحسان ، حتى قضى صابراً محتسباً .

---

(١) انظر الدميري ج ٢ ص ٥٥ ، والمحاسن والمساوى للبيهقي ، والعقد المنير ص ١٨ وهامش شذور العقود ص٧ وقد نسب ابن الاثير هذه الفكرة لخالد بن يزيد والاكثر على انها للامام الباقر .

فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا . وقد أوصى لولده الامام جعفر بن محمد الصادق بما اوصاه به أبوه زين العابدين عنـــدما حضرته الوفاة بقوله :

يا بني إن العقل رائد الروح والعلم رائد العقل والعقل ترجمان العلم . واعلم ان العلم ابقى واللسان اكثر هذراً ـ الى أن قال له: إن الساعات تذهب عمرك وانك لا تنال نعمة الا بفراق اخرى ، فاياك والامل الطويل فكم من مؤمل أملاً لا يبلغه ، وجامع مال لا يأكله ، ومانع ما سوف يتركه . الى آخر وصيته ثم قال له :اوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة :

إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله . فالامام أبو عبدالله جعفر الصادق وارث ابيه وخليفته من بعده ، وقد نشأ فى ظله وتغذى علومه واستمد مواهبه منه ، وقد دب ودرج فى حجور طابت وطهرت ونشأ في ربوع الوحي وترعرع فى مهد الرسالة ، وهو من أهل بيت النبوة ومعدن العلم ومهبط الوحي ، وهم كما يقول القائل :

اذا ولد المولود منهم تهللت ... له الارض واهتزت اليه المنابر

فهم حكام الاسلام وأعلام الانام .

لو كان يوجـــد عرف مجد قبلهم ... لوجدته منهم على اميـــال
إن جئتهم أبصرت بين بيوتهم ... كرماً يقيك مواقف التسآل
نور النبوة والمـكارم فيهم ... متوقد فى الشيب والاطفال (١)

ولهم فى كتاب الله غنى عن مدح المادحين ووصف الواصفين :

(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)

(١) انظر زهر الآداب ج ١ ص ٥٨ .

فى عهد المنصور

الامام الصادق عليه السلام

في عهد المنصور

تقدم ـ في البحوث السابقة من الجزء الاول ـ بعض أخبار الامام الصادق مع المنصور ، واتضح هناك اهتمام المنصور بامر الصادق وقد حاول قتله والفتك به مراراً ولكن الله عصمه منه في تلك المدة .

وها نحن ذا نورد بعض أخباره معه ، ثم نتعرض للسياسة التي اتخذها المنصور في مقابلاته ،فقد كان يعظم عليه مقام جعفر بن محمد في المجتمع وهو لا يجهل مكانته ، وكان قد حضر عنده وسمع حديثه ، فقد روي انه بعث اليه وأمر بفرش طرحت الى جانبه واجلس الصادق الى جنبه ثم قال : عليّ بمحمد المهدي فحضر فاقبل المنصور على جعفر الصادق فقال : يا أبا عبدالله حديث حدثتنيه في صلة الرحم اذكره ليسمعه المهدي ، قال : نعم ، حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي (ع) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين ، فيصيرها الله عز وجل ثلاثين سنة ، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيرها الله ثلاث سنين . ثم تلا قوله تعالى : (يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) .

قال المنصور : هذا حسن يا أبا عبدالله وليس أياه أردت .

قال أبو عبدالله : نعم حدثني أبي عن ابيه عن جده عن علي (ع) قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : صلة الرحم تعمر الديار وتزيد في الاعمار وان كان أهلها غير اخيار .

قال المنصور : هذا حسن يا أبا عبدالله وليس هذا أردت .

فقال أبو عبدالله : نعم حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي (ع) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : صلة الرحم تهوّن الحساب . قال المنصور : نعم هذا اردت .

ومن هذا وامثاله يظهر لنا جلياً ان المنصور كان قد سمع حديث الامام واتصل به قبل أن تصل اليه الخلافة وقبل أن يظفر به الزمن من فقر مدقع وخوف وتشريد الى عرش وسلطان وجند وأعوان ، وتصبح الدنيا طوع إرادته ، لذلك أصبح يخشى على ملكه ونفوذه من انتشار ذكر جعفر بن محمد . وقد كان العلويون في نظر المنصور خصومه اليوم وهم اخوانه بالامس ، وقد بذل جهده في نصرتهم ، ويدعو الناس الى الثورة على الامويين باسمهم ، وبعد أن ولي الامر كان يخشى خطرهم ويرى ان القضاء على جعفر بن محمد هو القضاء على جميع العلويين لانه زعيم البيت الهاشمي وسيدهم بلا منازع ، لذلك نراه حاول الفتك به مراراً ، وقد أرسل اليه عدة مرات لهذه الغاية ، فكان من عناية الله أن يرد كيده ويدفع عنه اذاه وقد جلبه الى الكوفة كما سنذكره . وكان احضاره للامام جعفر بن محمد مدفوعاً بدافع النقمة وشدة الغضب . واليك بيان ذلك :

الاولى :

حدث الربيع حاجب المنصور قال : لما استقرت الخلافة لابي جعفر المنصور قال لي : يا ربيع ابعث الى جعفر بن محمد ، قال : فذهبت اليه فقلت : يا أبا عبدالله

أجب امير المؤمنين فقام معي ، فلما دنونا من الباب قام الامام الصادق فحرك شفتيه ثم دخل فسلم فلم يرد المنصور السلام ، ثم رفع رأسه اليه فقال : يا جعفر أنت الذي ألبت علي فاعتذر اليه الامام حتى سكن غضبه ، فقال : اجلس أبا عبدالله ، ثم دعا بمدهن غالية ، فجعل يطيبه بيده والغالية تقطر من بين أنامل امير المؤمنين ، ثم قال : انصرف أبا عبدالله ، وقال : يا ربيع اتبع أبا عبدالله جائزته وضاعفها ، قال الربيع : فخرجت فقلت يا أبا عبدالله شهدت ما لم تشهد وسمعت ما لم تسمع ، وقد دخلت ورأيتك تحرك شفتيك عند دخولك اليه ، أشيء تأثره عن آبائك الصالحين ؟ فقال الصادق : حدثني أبي عن ابيه عن جده ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا حزبه امر دعا بهذا الدعاء ، وكان يقول : هو دعاء الفرج :

اللهم احرسني بعينك التي لا تنام ، واكفني بركنك الذي لا يرام ، واحفظني بعزك الذي لا يضام ، واكلأني في الليل والنهار ، وارحمني بقدرتك علي ، أنت ثقتي ورجائي ، فكم من نعمة انعمت بها علي قل لك بها شكري ، وكم من بلية ابتليتني بها قل لك بها صبري ، وكم خطيئة ركبتها فلم تفضحني ، فيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرمني ، ويا من قل عند بلائه صبري فلم يخذلني ، ويا من رآني على الخطايا فلم يعاقبني ، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي ابداً ، ويا ذا الايادي التي لا تحصى عدداً ، ويا ذا الوجه الذي لا يبلى أبداً ، ويا ذا النور الذي لا يطفأ سرمداً ! اسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت وترحمت على ابراهيم ، وان تكفيني شر كل ذي شر ، بك ادرأ في نحره واعوذ بك من شره ، واستعينك عليه . اللهم اعني على ديني بدنياي وعلى آخرتي بالتقوى واحفظني فيما غبت عنه ولا تكلني الى نفسي فيما حضرته . يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة اغفر لي ما لا يضرك ، وهب لي ما لا ينقصك . يا إلهي اسألك

فرجاً قريباً واسألك العافية من كل بلية ، واسألك الشكر على العافية ، واسألك دوام العافية . واسألك الغنى عن الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم بك استدفع مكروه ما أنا فيه ،واعوذ بك من شره يا ارحم الراحمين (١) .

الثانية :

حدّث الربيع وغيره ان المنصور أرسل الى الصادق يستقدمه لشيء بلغه عنه ،فلما وافى خرج اليه الحاجب فقال : اعيذك بالله من سطوة هذا الجبار فاني رأيت ضرره عليك شديداً ، فقال الصادق : عليّ من الله جنة واقية تعينني ان شاء الله استأذن لي عليه ، فاستأذن ، فلما دخل فرد عليه السلام ثم قال المنصور : يا جعفر قد علمت ان رسول الله قال لابيك علي بن ابي طالب : لولا أن تقول فيك طوائف من امتي ما قالت النصارى في المسيح لقلت فيك قولا لا تمر بملأ إلا أخذوا من تراب قدميك يستشفون ، وقال علي : يهلك فيّ اثنان ولا ذنب لي: محب غال ، ومبغض مفرط . وإنما قال علي ذلك اعتذاراً منه وانه لا يرضى بما يقوله فيه المغالي والمفرط ، ولقد تعلم ما يقال فيك ، وقد زعم أوغاد الحجاز ورعاع الناس انك حبر الدهر وحجة المعبود وترجمانه وعيبة علمه ، فقال فان أولى من قال الحق جدك واول من صدقه عليه أبوك ، وأنت حري أن تقتفي آثارهما وتسلك سبيلهما .

فقال الامام الصادق : أنا فرع من تلك الزيتونة .

فقال المنصور لجلسائه :قد أحالني على بحر لا يدرك طرفه ولا يبلغ عمقه ، هذا هو الشجى المعترض في حلوق الخلفاء الذي لا يجوز نفيه ولا يحل قتله ، ولولا

---

(١) عيون الادب والسياسة لابي الحسن علي بن عبدالرحمن بن هذيل ص ١٦٣ .

ما يجمعني وأباه من شجرة طاب أصلها وبسق فرعها وعذب ثمرها ، لكان مني اليه ما لا تحمد عقباه ، لما يبلغني عنه من شدة عيبه لنا وسوء القول فينا ، فقال الامام الصادق : قولا فيه اعتذار .

فقال المنصور : صفحت عنك لعذرك وتجاوزت عنك لصدقك . فحدثني بحديث انتفع به ويكون لي زاجراً عن الموبقات .

فقال الصادق : عليك بالحلم فانه ركن العلم ، واملك نفسك عند اسباب القدرة فانك إن تفعل ما تقدر عليه كنت كمن شفى غيظاً وتداوى حقداً ، ويحب أن يذكر بالصولة ، واعلم بانك إن عاقبت مستحقاً لم تكن غاية ما توصف به إلا العدل ، والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر ، فقال المنصور : وعظت فاحسنت وقلت فأوجزت .

الثالثة :

لما حج المنصور سنة ١٤٧ ، وقدم المدينة فقال للربيع : ابعث الى جعفر ابن محمد يأتينا تعباً ، قتلني الله إن لم أقتله ، قال الربيع : فتغافلت عنه لينساه ثم أعاد ذكره وقال : أرسل اليه من يأتيني به متعباً ، فارسل الربيع اليه .

فقال جعفر : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فلما دخل عليه خاطبه بما لا يمكن ذكره . ثم قال : اتخذك أهل العراق إماماً يجبون اليك زكاة أموالهم وتلحد في سلطاني وتبغي عليّ الغوائل ، قتلني الله إن لم اقتلك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن سليمان اعطي فشكر ، وإن ايوب ابتلي فصبر ، وان يوسف ظلم فغفر ، وأنت من ذاك السنخ .

فقال المنصور : اليَّ يا أبا عبدالله وأنت عندي البريء الساحة السليم

الناحية القليل الغائلة ، جزاك الله من ذي رحم أفضل ما جزى ذوي الارحام عن ارحامهم ، ثم تناول يده فاجاسه معه، ثم قال : عليّ بالمتحفة فأتي بدهن فيه غالية فطيبه بيده ، ثم قال : في حفظ الله وكلائته ، ثم قال : يا ربيع ألحق أبا عبدالله جائزة وكسوة ، وقال : انصرف أبا عبدالله في حفظ الله وفي كنفه الى آخره (١).

الرابعة :

وارسل اليه مرة اخرى وهو بالمدينة ، وقال للربيع : انطلق في وقتك هذا على أخفض جناح وألين مسير فان استطعت أن تكون وحدك فافعل حتى تأتي أبا عبدالله جعفر بن محمد (ع) وقل له : هذا ابن عمك يقرؤك السلام ويسألك المصير اليه في وقتك هذا ، فان سمح بالمسير معك ، وإن امتنع بعذر اوغيره فاردد الامر اليه في ذلك . قال الربيع : فصرت الى بابه فوجدته في دار خلوته معفراً خديه مبتهلا بظهر يديه قد أثر التراب في وجهه وخديه ، فاكبرت أن أقول له شيئاً حتى فرغ من صلاته ودعائه ، ثم انصرف بوجهه فقلت : السلام عليك يا أبا عبدالله فقال : وعليك السلام ما جاء بك ؟ فاخبرته الخبر ، فقال : يا ربيع (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ولا تكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل افطال عليهم الامد فقست قلوبهم . . الخ .) .

ويحك يا ربيع (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو أمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ثم قال : وعليه السلام ثم اقبل على صلاته ، ثم صرف

(١) انظر صفة الصفوة لابن الجوزي ج٢ ص٩٦ ، والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٣٠٧ ، والارشاد للشيخ المفيد ص ٢٥ .

اليّ وجهه فقلت هل بعد السلام شيء ؟ فقال : قل له : (أرأيت الذي تولى واعطى قليلا واكدى أعنده علم الغيب فهو يرى) .

ثم قال له : بلغه إنا قد خفناك وخافت لخوفنا النسوة ، فان كففت وإلا اجرينا اسمك في كل يوم خمس مرات ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : اربع دعوات لا يحجبن عن الله : دعاء الوالد لولده ، والاخ بظهر الغيب لاخيه ، والمظلوم ، والمخلص .

الخامسة :

ارسل اليه محمد بن الربيع ، وامره أن يأتيه به على الحالة التي هو عليها ، وقال : امض الى جعفر بن محمد فتسلق على حائطه ولا تفتح عليه بابا فيغير بعض ما هو عليه ، ولكن انزل عليه نزولا فامتثل ما أمره ، قال محمد بن الربيع : فوجدته قائما يصلي ، فلما سلم من صلاته ، قلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : دعني ألبس ثيابي فقلت ليس الى تركك من سبيل ، الى أن جاء به على حالته وادخل على المنصور ، فلما نظر اليه قال : يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك على أهل هذا البيت من بني العباس ، وما يزيدك ذلك إلا شدة الحسد وما تبلغ به ما تقدره ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا من هذا ، ولقد كنت في ولاية بني امية ، وانت تعلم انهم أعدى الخلق لنا ولكم ، وانهم لا حق لهم فى هذا الأمر ، فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عني سوء مع جفاهم الذى كان بى ، وكيف اصنع هذا ؟ وانت ابن عمي وامس الخلق بي رحما ، فاطرق المنصور ساعة ثم رفع وسادة الى جنبه ، فاخرج اضبارة كتب فرمى بها اليه وقال : هذه كتبك الى أهل خراسان تدعوهم الى نقض بيعتي وأن يبايعوك دوني ، فقال : والله ما فعلت وقد بلغت من السن ما قد

أضعفني عن ذلك لو أردته ،فصيرني الى بعض حبوسك حتى يأتيني الموت فهو مني قريب ، فقال : لا ولا كرامة ، ثم أطرق وضرب يده الى السيف فسل منه مقدار شبر ثم رد السيف وقال : يا جعفر أما تستحي مع هذه الشيبة ومع هذا السن أن تنطق بالباطل وتشق عصى المسلمين ؟ تريد أن تريق الدماء وتطرح الفتنة بين الرعية والاولياء ؟ فقال : لا والله ما فعلت ولا هذه كتبي ولا خطي ولا خاتمي ، ثم اقبل على جعفر يعاتبه وجعفر يعتذر اليه ، ثم رفع رأسه وقال : اظنك صادقاً (١) .

السادسة :

عن عبدالله بن ابي ليلى قال : كنت بالربذة مع المنصور وكان قد وجه الى ابي عبدالله ، فأتي به فلما جيء به صاح المنصور عجلوا به قتلني الله ان لم اقتله ، فادخل عليه مع عدة جلاوزة فلما انتهى الى الباب ، رأيته قد تحركت شفتاه ، ودخل فلما نظر اليه المنصور ، قال : مرحباً يا ابن عم مرحباً يا ابن رسول الله ، فما زال يرفعه حتى أجلسه على وسادته . ثم خرج فسأله ابن ابي ليلى عما قاله عند دخوله على المنصور ، فاجابه الامام : نعم اني قلت :

ما شاء الله ما شاء الله لا يأتي بالخير الا الله لا يصرف السوء إلا بالله ما شاء الله ما شاء الله كل نعمة فمن الله ما شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله .

السابعة :

عن صفوان بن مهران الجمال قال : رفع رجل من قريش المدينة من بني مخزوم الى ابي جعفر المنصور ،وذلك بعد قتله لمحمد وابراهيم ابني عبدالله بن الحسن: ان جعفر بن محمد بعث بمولاه المعلى بن خنيس بجباية الاموال من شيعته، وانه كان

---

(١) من البحار ج ١٢ باختصار .

يعد بها محمد بن عبدالله ،فكاد المنصور ان يأكل كفه على جعفر غيظاً و كتب الى امير المدينة أن يسير اليه جعفر بن محمد ، ولا يرخص له في التلوم والمقام فلما بلغه قال لي :تعهد راحلتنا فانا غادون في غد إن شاء الله الى العراق . فلما أصبح أبو عبدالله رحلت له الناقة ،وسار متوجهاً الى العراق حتى قدم مدينة ابي جعفر ، فاستأذن واذن له ، فلما رآه قربه وادناه ، ثم اسند قصة الرافع على ابن عبدالله فقال الصادق : معاذ الله ، قال المنصور : تحلف على براءتك . الى ان قال المنصور : اني اجمع الساعة بينك و بين الرجل الذي رفع عنك حتى يواجهك ، فجيء به واعترف امام جعفر بصحة ما رفعه عنه . فقال ابو عبدالله : تحلف ايها الرجل؟ قال : نعم ثم ابتدأ الرجل باليمين ، فقال الصادق : لا تعجل في يمينك .

ثم حلفه بما أراد وانتقم الله من الساعي عاجلاً .

الثامنة :

عن محمد بن عبدالله الاسكندري قال : كنت من ندماء المنصور وخاصته فدخلت عليه فوجدته مغتما، فقلت : ما هذا يا امير المؤمنين ؟ فقال لي : يا محمد لقد قتلت من أولاد فاطمة مقدار مائة و بقي سيدهم وامامهم، فقلت له من ؟ قال : جعفر الصادق ،فقلت : يا امير المؤمنين انه رجل انحلته العبادة واشتغل بالله عن طلب الملك والخلافة ،فقال : يا محمد وقد علمت انك تقول به وبامامته ،ولكن الملك عقيم وقد آليت على نفسي أن لا امسي عشيتي هذه او افرغ منه ، قال محمد : ثم دعا سيافاً وقال له : إذا أنا أحضرت أبا عبدالله وشغلته بالحديث ووضعت قلنسوتي من رأسي ، فهي العلامة بيني و بينك فاضرب عنقه ، ثم أحضر أبا عبدالله فرأيت المنصور يمشي بين يديه واستقبله واجلسه على سريره . ثم قال : سل حاجتك

يا ابن رسول الله قل : اسألك أن لا تدعوني ... الخ (١) .

* * *

ونحن نستظهر من هذه الحوادث عدة امور :

١ — ان حنق المنصور على الامام ومحاولته الفتك به لم يكن لباعث عداء متأصل ، ولكن حذره ـ على ملكه من خطر العلويين ـ يدعوه لان يقضي على أعظم شخصية منهم تتجه اليها انظار العالم الاسلامي ، فقد كان موقف الامام ـ في عصر انتشار العلم وشهرته التي ملأت الآفاق ـ تقض مضجع المنصور وتنكد عليه عيشه ، فوجود الامام الصادق كان من أخطر المشاكل التي تواجهها دولة العباسيين ، لانهم جلبوا قلوب الناس بالغضب على امية ، لسوء السيرة التي ارتكبوها مع ابناء علي ، فنالوا بذلك السلطان الذي ساعدهم الحظ على الحصول عليه ، فتظاهروا بالدين مع أن أعمالهم لا يمكن التوفيق بينها وبين نظم الاسلام الواقعية ، والامام الصادق لعظيم منزلته كانت تتجه اليه الانظار ، فبمجرد انكاره على الدولة يشتد جانب المنكرين من العلويين وغيرهم ، فيتسع ميدان المؤاخذات . والدولة في دورها الجديد لا يمكنها أن تقف تجاه حزب العلويين وغيرهم ، لذلك ترى المنصور وقف بين السلب والايجاب فى قضية الامام الصادق ، فهو يعزم على قتله مجازفاً فى ذلك ولكن دهاؤه وحذره من سوء العاقبة يدعو الى التريث ، فكان يتظاهر بالعطف ، حتى حان الزمن وحصلت الفرصة .

٢ — اتضح لنا ـ من حديث اضبارة الكتب المزورة ـ أن ذلك العمل يدل على وجود قوة متكاتفة من الدخلاء فى الاسلام على السعي بكل جهد لتفريق الامة ، وايقاد نار الفتنة بتزوير الكتب على الامام الصادق ، وانتحال الاقوال

(١) من البحار ج ١١ ص ١٢٤ باختصار .

التي بسلب لب المنصور سماعها ، ويخرج عن حدود الانسانية ، فيخاطب الامام بتلك اللهجة القاسية التي لا تصدر إلا عن جاهل لا يعرف ما يقول .

وان كنت لا استبعد التزوير من المنصور نفسه ، أو من رجال بلاطه . وعلى أي حال ، فان الدخلاء في صفوف المسلمين يجهدون في ايقاد نار الفتنة لحصول ثورة دموية ، فيقفون موقف المتفرج وانيما أصابت فتح ، فأنهم يأملون - بقتل الامام الصادق - حصول اضطراب وحوادث تؤدي الى ضعف الدولة الفتية وانحلالها ، لانهم يعلمون ما لاهل البيت - في قلوب المسلمين - من الولاء ، وأن الامام الصادق هو الذي تجب طاعته ، وتحرم مخالفته ، وهم الذين يسميهم المنصور بالاوغاد . وفي الحقيقـــة هم علماء دار الهجرة ، وفيهم خيرة الشباب النابه ، وكذلك في سائر الامصار . والمحصل إن مسألة تزوير الكتب لا تخلو من اثنين : إما هؤلاء القوم الذين يريدون ضعف الامة الاسلامية، وإما المنصور ورجالاته أرادوا أن يكون لهم طريقاً لقتل الامام وعذراً به يعتذرون للمنكرين عليهم ، ولكن الله رد مكر الجميع ، وخيب سعيهم . وكان عليه من الله جنة واقية .

٣ — يظهر - من رواية صفوان الجمال المتقدمة - ان الامام الصادق دخل بغداد ، وأفاد الناس بها من علمه (وان بالجانب الغربي من بغداد - على ضفة الفرات شمال جسره الغربي اليوم المعروف بالجسر القديم - مكان يعرفه الناس بمدرسة الصادق ، وليس فيه اليوم أثر بيّن ، ولعله أفاد الناس فيه - عند مجيئه الى بغداد - على عهد المنصور .)(١) .

---

(١) حياة الامام الصادق لشيخنا المظفر .

والغريب ان الخطيب البغدادي (١) لم يذكره ، ولكن لا يستغرب ذلك ممن نشأ في عصر احتدام التعصب الطائفي ، ولا تجهل نفسية الخطيب .

٤ — إن المنصور ـ مهما بلغت به الحالة من الشذوذ والانحراف عن الامام الصادق ، ومهما بلغ من عدائه وبغضه ـ لا يجهل منزلة الامام ، ويعرف له قدره . ولقد حاول أن يستميله ويجلب وده ، ولكن الامام ابتعد عنه ، وأعلن سخطه عليه وعلى ولاته ، كما اتضح من سيرته ، فكان اهتمام المنصور بامره أعظم من كل أحد ، لأن الملك عقيم ، ولا يقف أمام تركيز دعائمه شيء ، فقد أسرف المنصور في سفك الدماء في سبيل ذلك ، حتى قتل أقرب الناس اليه وأمسهم رحماً به ، فقد قتل عمه عبدالله بن علي . يحدثنا المسعودي : أن المنصور سلم عبدالله بن علي الى ابي الازهر المهلب بن ابي عيسى ، فلم يزل عنده محبوساً ، ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ومعه جارية له ، فبدأ بعبدالله، فخنقه حتى مات ، ثم مده على الفراش ، ثم أخذ الجارية ليخنقها ، فقالت : يا عبدالله قتلة غير هذه ، فكان ابو الازهر يقول : ما رحمت أحداً قتلته غيرها ، فصرفت وجهي عنها ، وأمرت بها فخنقت ، ووضعتها معه على الفراش (٢) . الى غير ذلك من الجرائم ، كما يتضح لنا أن المنصور كان يخشى دعوة الامام الصادق ، وكان يتهيبه في نفسه ، فهو يشعر بالتصاغر أمام هيبة الامام ، مهما

(١) هو احمد بن علي بن ثابت بن احمد بن مهدي البغدادي ، ابو بكر الخطيب المتوفى سنة ٤٦٣ تفقه على مذهب الشافعي ، ورحل الى نيسابور في سنة ٤١٥ ، لاضطراب الاحوال ببغداد ، وحدوث التعصب بين المذاهب ، وقد آذاه الحنابلة واستتر في فتنة البساسيري ، وخرج الى الشام ، لأنه كان على مذهب احمد بن حنبل قال ابن الجوزي : فمال عنه اصحابنا لما رأوا من ميله الى المبتدعة ، وآذوه ، فانتقل الى مذهب الشافعي وتعصب في تصانيفه عليهم . الخ كما ان الحنفية حملوا عليه وفسقوه .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣٠ .

بلغت هيبة المنصور المصطنعة ، ومهما كانت عظمته في ملكه .

وقد كان الامام الصادق مجاب الدعوة وعرف الناس عنه ذلك . فهو يلجأ الى الله تعالى في كل ما يهمه ، ويفزع اليه في شدائده ، إذ الدعاء سلاح المؤمن ومخ العبادة .

وقد شاهد المنصور كثيراً من ذلك ، كدعاء الامام الصادق على حكيم ابن عياش الكلبي شاعر الأمويين مفتخراً بقتل زيد بن علي بقوله :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب
وقستم بعثمان علياً سفاهة وعثمان أزكى من علي واطيب

قال ابن حجر في الاصابة ج ١ ص ٣٩٥ : فجاء رجل الى جعفر الصادق ، فقال : هذا ابن عياش ينشد الناس هجاءكم بالكوفة ، فقال : هل علقت بشيء منه ؟ قال : نعم ، فانشده الابيات ، فرفع جعفر يديه ، فقال : اللهم إن كان كاذباً ، فسلط عليه كلبك ، فخرج حكيم ، فافترسه الأسد .

مع الولاة :

وكانت له مواقف مع ولاة المنصور الذين كانوا يتحدون مقامه ، ويحاولون ايقاع الاذى تبعاً لرئيسهم ، وامتثالاً لامره ، منها : —

أن أحد ولاة المدينة خطب يوم الجمعة ، وكان الامام حاضراً ، فحمد الله ، ثم ذكر علياً وتعرض له ، فقام أبو عبدالله الصادق بذاك الحفل ، وقال له : ونحن نحمدالله ونصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين . أما ما قلت من خير ، فنحن اهله ، وما قلت من سوء ، فانت وصاحبك به أولى ، فاختبر يا من ركب غير راحلته ، وأكل غير زاده ! ارجع مأزورا ، ثم أقبل على الناس ، فقال :

ألا انبئكم باخلى الناس ميزاناً يوم القيامة ، وابينهم خسراناً ، من باع آخرته بدنيا غيره ، وهو هذا الفاسق . فسكت الوالي ، ولم ينطق بحرف ، وخرج من المسجد .

ومثل هذا لا يتحمله المنصور ، لأنه لا يخفى عليه ، فان الرصد والعيون يوصلون اليه كل مايصدر من الامام الصادق ، فهو يتقد بنار غيظه ، ويتحين الفرص لاطفائها عندما يظفر به .

ولما كان داود بن علي والياً على المدينة ، بالغ في ايذاء العلويين ، وتتبع أنصارهم . وفي أيامه قتل المعلى بن خنيس ، قتله السيرافي صاحب شرطة داود ، وكان المعلى رحمه الله من موالي جعفر بن محمد واتباعه ، وصودرت امواله ، وتحمل ما تحمل في سبيل نصرة أهل البيت . وقد ذكروا في سبب قتله أقوال : منها – أن المعلى طلب منه داود أن يدله على المخلصين من شيعة أهل البيت ، فامتنع ، وهدده بالقتل ، واصر على امتناعه وتفانيه واخلاصه لأهل البيت ، فأمر داود بقتله .

ومنهم من يرى أن قتله كان بسبب القيام بالدعوة لمحمد بن عبدالله ذي النفس الزكية ، وكان لهذا الحادث الأثر العظيم في نفس الامام الصادق « وقد رأى في هذا الاعتداء اعتداءاً على حقه ، وحرباً معلنة عليه ، يدل على ذلك عنف الاحتجاج الذي احتج به على الامير ، والتهديد الذي هدده به ، فقد اجمعت روايات الباحثين في سيرته على أنه مشى الى ديوان الامير ، وهو محنق على خلاف عادته ، والقى خطاباً موجزاً قال فيه : « قتلت مولاي ، واخذت مالي ، اما علمت أن الرجل ينام على الثكل ، ولا ينام على الحرب ؟ وقد جرى إثر الخطاب أخذ ورد – بين الامام والامير – لا يخلوان من العنف ، ولكن الامير حاول التنصل واحالة التقصير على صاحب شرطته . فكانت الحجة واهية .

ولم يكن للامير مهرب من القود ، فأمر بقتل السيرافي ، ولما أخذ ليقتل ، صرح قائلا يأمروني بقتل الناس فأقتلهم لهم . فيأمرون بقتلي .

وهي كلمة تدل على أن القاتل كان مأموراً بازهاق روح المعلى بن خنيس وانه امتثل أمر الامير داود بذلك (١) .

وكما قلنا ان الامام الصادق كان يلجأ الى الله في مهماته ، فقد أهمه قتل المعلى ودعا على داود حتى سمعوه يقول : الساعة الساعة ، فما استتم دعاؤه حتى سمعت الصيحة في دار داود . وفي الكافي انه قال في دعائه : اللهم إني أسألك بنورك الذي لا يطفى ، وبعزائمك التي لا تخفى ، وبعزك الذي لا ينقضي ، وبنعمتك التي لا تحصى ، وبسلطانك الذي كففت به فرعون عن موسى (٢) .

وهكذا بقي أبو عبدالله يتحمل ضروب الاذى وانواع المحن وكان الخطر محدقاً به ، ويدل على ذلك حديثه المشهور وكلمته الخالدة : « عزت السلامة حتى لقد خفي مطلبها » .

وكان سفيان الثوري يكثر الدخول عليه قبل أن يشتد الأمر على الامام ، ولما دخل عليه في تلك الأيام يطلب منه أن يحدثه قال : يا سفيان أنت رجل يطلبك السلطان وأنا رجل اتقي السلطان قم فاخرج غير مطرود .

وخلاصة القول إن الامام الصادق لقي في ايام المنصور محناً وواجه صعوبات لم يلق بعضاً منها في العهد الاموي ، كما أن المنصور اقتضت سياسته عند اشتداد ملكه أن يقضي على الامام الصادق ، واتخذ شتى الوسائل في ذلك . فمرة يحضره للفتك به كما تقدم وكانت سلامته في تلك المواقف اعجوبة ، لان المنصور لا يتوقف

---

(١) انظر مؤرخ العراق ابن الفوطي .

(٢) ج ٢ ص ٥٥٧ ط ٢ .

عند حد وليس له وازع ديني يحجزه عن اراقة الدماء ، ولكن عناية الله وعينه التي كانت ترعى الامام دفعت عنه كيده .

يحدثنا علي بن ميسرة ، قال : لما قدم أبو عبدالله على أبي جعفر أقام أبو جعفر مولى له على رأسه ، وقال له : اذا دخل جعفر بن محمد فاضرب عنقه ، فلما دخل أبو عبدالله نظر الى ابي جعفر وأسر شيئاً في نفسه ثم أظهر : « يا من يكفي خلقه كلهم ولا يكفيه أحد اكفني شر عبدالله بن علي ... الخ . » فسلمه الله من شره واستجاب دعاءه (١) .

وكان يعرف كيد المنصور ووسائله التي اتخذها ضده ، فمرة يرسل الموالاً الى العلويين على يد رجال من اعوانه يتظاهرون بأنهم غرباء من أهل خراسان ، فاذا دفعوا المال الى أحد من العلويين يأخذون منه كتاباً بوصول المال ، وجاء أحد هؤلاء الرجال الى الامام الصادق ، وقد أرسل معه المنصور مالاً جزيلا ليدفعه اليه والى عبدالله بن الحسن ، فجاء الرجل الى المسجد وكان الصادق يصلي فيه فجلس خلفه ينتظره ، فالتفت الامام اليه وقل : ياهذا اتق الله ، وقل لصاحبك ـ يعني المنصور ـ اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد ، فانهم قريبوا العهد بدولة بني مروان ، وكلهم محتاج ... الخ (٢) .

وكذلك كان المنصور يكتب رسائل مزورة على لسان بعض شيعة أهل البيت ويرسلها بيد اعوانه ، ويحاول أن ينال غرضه عندما يحصل على جواب من الامام لتلك الكتب والرسائل ، ولكنه لم يظفر بشيء من ذلك للخطة التي اتخذها الامام ، ولنظره الصائب ورأيه السديد .

(١) الكافي ج ٢ ص ٥٦١ .
(٢) ابن شهراشوب ج ٢ ص ٣٠٢ .

وكثرت السعايات به الى المنصور ، واجتهد الوشاة بكل حيلة ان ينالوا قصدهم وغرضهم بذلك التقرب الى المنصور بما يرفعونه اليه من أخبار الامام التي تدور حول اتصاله بانصاره واوليائه في الحجاز والعراق وخراسان ، وانهم كانوا يحملون زكاة أموالهم اليه ، وقد زوروا على لسانه كتباً الى هؤلاء الانصار يدعوهم فيها الى خلع بني العباس .

وعلى أي حال فان المنصور كان يهتم بأمر العلويين عامة ، وبجعفر بن محمد خاصة ، لان شبح الثورة يلوح على الدوام فى مخيلته ، فهو يقض ولا يقرّ له حال ، ويبذل كلما فى وسعه لتحصيل غايته .

سياسة المنصور :

اقتضت سياسة المنصور أن يعامل العلويين معاملة قاسية ، لم يشهد التاريخ مثلها ، لانه يعلم ويعلم كل أحد أن الامة ترى أهلية أهل البيت للخلافة ، وهم أولى بالأمر من غيرهم ، لقربهم من رسول الله (ص) نسباً ، ولما اتصفوا به من المؤهلات لذلك من وفور العلم والتمسك بالدين ، وقد برهنوا على عدلهم فى الحكم .

وقد كان العباسيون والعلويون من قبل يجمعهم السخط على اعمال الامويين كما ملأ سمع الدنيا انتصار العباسيين لابناء عمهم ، فقد اظهروا للناس التودد لأهل البيت ، وكانوا يتفجعون لما نالهم من الامويين ويمسحون دموعهم المصطنعة بتلك الايدي التي خضبوها من دمائهم فيما بعد ، وكانوا يظهرون للناس انكارهم الشديد على الامويين لاعمالهم السيئة ، وما قابلوا به أهل البيت بوجوه لا تعرف الخجل ، وقلوب لا عهد لها بالرحمة ، كما اوضحوا ذلك فى كثير من مواقفهم

وأقوالهم ، وقد قطعوا على انفسهم عهداً في نصرة آل محمد . ولما تم الأمر ونالوا غايتهم ونجحت خططهم التي دبروها في استغلال تلك الفرصـــة ، وتم لهم ما أرادوا نراهم يذيقون العلويين أنواع الاذى وضروب المحن ، وعاملوهم أعظم مما كان الامويون يعاملونهم به .

فقد كان المنصور يطارد العلويين ويضّيق عليهم الدنيا ، ويذيقهم انواع العذاب ، ولنا بما فعله مع اسرائهم منهم كفاية على عظيم ما كان يتحمله من الغيظ والحقد .

فقد جمع منهم جماعة فى الربذة واثقلهم بالحديد ، وضربهم بالسياط ، حتى اختلطت بدمائهم ولحومهم ، ثم حملهم الى العراق على اخشن مركب وتوجه بهم الى الكوفة ، فكانت خاتمة مطافهم ذلك السجن الضيق الذي لا يعرفون فيه الليل من النهار ، وسلط عليهم شرطة ابتعدوا عن الرقة كابتعاده عن الانسانية فقد عذبوهم بامره ، كما انه أمر أن تترك أجساد الموتى منهم فى السجن . فاشتدت رائحة الجثث على الاحياء ، فكان الواحد منهم يخر ميتاً الى جنب اخيه . ولما قتل ابراهيم بن عبدالله أرسل برأسه الى ابيه مع الربيع وهو في السجن ، وكان ابوعبدالله يصلي فقال له أخوه ادريس : اسرع فى صلاتك يا أبا محمد فالتفت اليه وأخذ رأس ولده ، وقال : أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم ، والله لقد كنت من الذين قال الله عز وجل فيه : (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ... الخ .) فقال له الربيع : كيف أبو القاسم فى نفسه ؟. قال : كما قال الشاعر :

فتى كان يحميه من الذل سيفه ويكفيه أن يأتي الذنوب اجتنابها

ثم التفت الى الربيع فقال : قل لصاحبك قد مضى من بومنا أيام والملتقى

القيامة ، فمكثوا في ذلك السجن لا يعرفون أوقات صلاتهم إلا باجزاء من القرآن ، حتى كانت نهاية أمرهم أن أمر المنصور بهدم السجن على الاحياء(١) ليذوقوا الموت من بين ألم القيود وثقل السقوف والجدران ، وكان منهم من سمر يديه في الحائط . وهكذا اقتضت سياسة المنصور أن يعامل العلويين بهذه المعاملة القاسية ، وقد امر ببعضهم فوضع بالبناء حياً .

ولما خشي المنصور عاقبة فعله مع ابناء الحسن خشي الانكار عليه ، فقام خطيباً بالهاشمية فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : يا أهل خراسان انتم شيعتنا وانصارنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا ، وان ولد ابن ابي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير الى أن يقول : ثم وثب بنو امية علينا فاماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا ، والله ما كانوا لهم عندنا ترة يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا بسببهم وخروجهم – يعني العلويين – فنفونا من البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالسراة ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وانصاراً ، فاحيا الله شرفنا وعزنا بكم وأظهر حقنا ، واصار الينا ميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقر الحق في قراره واظهر الله مناره واعز انصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرت الامور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل ، وثبوا علينا حسداً منهم ، وبغياً لهم بما فضلنا الله به عليهم واكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه « الى آخر خطبته »(٢).

ولا يخفى ما في هذه الخطبة من الامور المخالفة للواقع ، وإنما استعمل هذه اللهجة وسيلة لارضاء انصاره ، وخشية من انكارهم عليه ، فهو يحاول أن يحل

(١) انظر اخبارهم في الطبري وابن الاثير ومروج الذهب وغيرها .
(٢) انظر المسعودي ج ٣ ص ٣٠٧ .

تلك المشكلة بهذه اللهجة الباردة ، والواقع ان العلويين لم ينهضوا حباً للملك وطمعاً في السيادة ، وإنما كانت مواقفهم مشرفة يدعوهم للنهوض إباؤهم للظيم ورعايتهم لمصلحة الامة .

ويعلل ابن الساعي نهضة العلويين بقوله : ان من يمعن النظر كل الامعان بتاريخ الاسلام يعلم علماً يقيناً ان كل من خرج من أهل البيت ما كان ذلك إلا عن مصيبة نابتة وذل اهانة ، فان الامويين كانوا يمنون على الموالي وصعاليك العرب بمئآت الالوف من الدنانير ، ويعطونهم الاقطاع والضيعات ، ويستعملونهم على الممالك ، ويستوزرونهم ، ويقترون على الفاطميين حتى يصير الفطمي فى ضيق ومحنة شديدة ، ويرى الذين يفرطون لبني امية ويتمسخرون لهم فى مجالسهم ويشاركونهم فى شرابهم وفسقهم وفجورهم يتقلبون بانواع الرفاهة . فهنالك يهز الجماعة الفاطمية شرفهم ونخوتهم ، فيخرجون لاخروجاً عن الطاعة ولا نقضاً لبيعة . ولكن يقولون ارض الله واسعة ،فيها جرأ حدهم الى ناحية من الارض فيها قوم من امة جده ، فاذا وصلهم حركتهم نخوة الدين فاحترموه واكرموه وألفته قلوبهم واجتمعوا عليه ، فمتى بلغ خبره الامويين قالوا خرج ورب الكعبة ، وساقوا عليه القواد والجنود ولا يزالون حتى يتركوه شهيداً . وكذلك بنو العباس ... الخ(١)

ويجب هنا أن نلحظ الفرق بين خطة الامويين فى معاملة أهل البيت وبين خطة العباسيين فانهم يختلفون عن الامويين .

فاولئك قد تظاهروا بالعداء لأهل البيت بكل ما للتظاهر من صورة واقعية . ولم يتكتموا فى شيء من عدائهم . وهل بعد قتل الحسين عليه السلام وسبي نسائه واعلان سب امير المؤمنين وجعل ذلك سنة متبعة من شيء يدعو

(١) انظر تاريخ ابن الساعي ص ٣٦ ط ١ .

الى التحكم ؟ ولكن العباسيين لم يسلكوا ذلك الطريق . ولم يعلنوا بغضهم لاهل البيت فى بادىء الامر . بل اتخذوا طرق المجاراة والعطف والتظاهر في التقرب اليهم . ولكنهم يعملون على القضاء عليهم من وراء الستار . واتخذوا طرق الاقناع ليسيطروا على عقول السذج في تبرير اعمالهم التي ارتكبوها مع العلويين وغيرهم .

وقد حدثناك عن بعض اعمال المنصور معهم بما اقتضته السياسة التي اتخذها فى معاملة العلويين واليك حديث الخزانة .

حديث الخزانة :

وحديثها شجون ، فقد احتفظ المنصور بخزانة ادخرها (ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون) ادخرها (ليوم الفصل) ، (يوم يعض الظالم على يديه) . أجل ما هذه الخزانة التي احتفظ بها فى حياته ، واوصى بها للمهدي بعد وفاته ، ودفع مفتاحها الى ريطة زوجة المهدي وأوصاها أن لا تدفعها إلا بيده عندما يصح لها موت المنصور ؟ ولما مات المنصور وآن لريطة أن تنفذ وصيته بفتح تلك الخزانة ، ولعلها كانت تأمل انها تحتوي على نفائس من الجوهر تحلي بها جيدها ؛ فوق ما وهبتها الكف الظالمة كما حظت ببغيتها من الخزائن الاخرى فجاءت مع المهدي ولا ثالث معهما إلا عين الله الذي لا تخفى عليه خافية فى الارض ولا في السماء . فاستبقا بكل بهجة وسرور لفتح تلك الخزانة العظيمة فوجــدوا هناك اشلاء مطرحة وجثثاً هامدة ، واليك حديثها بالنص : حدّث الطبري في تاريخه قال :

لما عزم المنصور على الحج دعا ريطة بنت ابي العباس امرأة المهدي . وكان المهدي بالري قبل شخوص ابي جعفر . فاوصاها بما أراد وعهد اليها ودفع

اليها مفاتيح الخزائن . وتقدم اليها وأحلفها ووكد الايمان ان لا تفتح بعض تلك الخزائن ولا تطلع عليها احداً إلا المهدي . ولا هي إلا أن يصح عنده موته ، فاذا صح ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة . فلما قدم المهدي من الري الى مدينة السلام دفعت اليه المفاتيح واخبرته عن المنصور انه تقدم اليها فيه ألا يفتحه ولا يطلع عليه احداً حتى يصح عندها موته ، فلما انتهى الى المهدي موت المنصور وولي الخلافة فتح الباب ومعه ريطة ، فاذا ازج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين وفي آذانهم رقاع فيها انسابهم ، واذا فيهم اطفال ورجال شباب ومشايخ عدة كثيرة ، فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى ، وامر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليها دكاناً . هكذا حدث الطبري (١) في تاريخه .

هذه بعض اعمال المنصور وسياسته . وبالطبع انه يشعر بهذا الخطأ ويحس بانكار الامة عليه ، ولكنه أخذ بمقتضى سياسته أن يخادع الناس مرة ، ويسير بالارهاب والعسف مرة اخرى .

صبغة الدولة :

إن المنصور يشعر بخطأه كما قلنا ، والامة تنكر اعماله المخالفة لنظام الاسلام ومخالفته لما يدعيه من نقد السياسة الاموية ، ولكنه حاول أن يصبغ الخلافة بصبغة دينية ويتصف بصفات التقوى ويتظاهر بالمحافظة على الدين ، وانه يحكم بأمر الله ولا يتبع الهوى ، وانه رجل عدل وسلطان حق ، فكان يلبس لباس الزهد ويتحلى بالتخلي عن الدنيا ويرقع ثيابه بيده .

---

(١) انظر تاريخ الطبري ج ٩ ص ٣٢٠ حوادث سنة ١٥٨ الطبعة الاولى و ج ٦ ص ٣٤٤ ط ٢ .

قيل لجعفر بن محمد : إن أبا جعفر يعرف بلباس جبة هروية مرقوعة وانه يرقع قيصه . فقال جعفر : الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسه فى ملكه (١) .

وضرب كاتبه محمد بن جميل خمس عشرة درة لانه لبس سراويل كتان وقال له : إن هذا من السرف ، وهو يحاول بذلك أن يفهم الناس بانه أمين على أموال الامة ، ودينه يمنعه بان يرى كاتبه يسرف في لباسه .

وخطب في يوم عرفة فقال :

أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فيئه اعمل بمشيئته ، واقسمه بارادته واعطيه باذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً اذا شاء أن يفتحني لاعطياتكم وقسم فيئكم فتحني ، واذا شاء أن يقفلني اقفلني ، فارغبوا الى الله أيها الناس وسلوه ـ في هذا اليوم الشريف (٢) ـ أن يوفقني للصواب ويسددني للرشاد ، ويلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم ويفتحني لاعطياتكم !

فهو يحاول أن يتبرأ من عهدة بخله وتلاعبه وطهارة ثوبه مما علق به من الدماء ، وانه أمر يعود الى الله وبأمره ، إذ هو سلطانه فيتبع الحق ويخالف الباطل ، ولكن الواقع غيرما يقول . ثم نراه يصل الى درجة اخرى من القداسة بموافقة اعماله لما يرضي ، ولكنها امور ادعائية لا صلة لها بالواقع . فهو يقول في خطبة اخرى :

الحمد لله أحمده واستعينه واؤمن به واتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . فاعترضه معترض عن يمينه فقال : أيها الانسان

(١) الكامل لابن الاثير ج ٦ س ١٣ ط ١ .
(٢) حذفنا بعضها اختصاراً انظر الطبري ج ٦ س ٣٣٠ .

اذكرك من ذكرت به ؟ فقطع الخطبة ، ثم قال : سمعاً سمعاً لمن حفظ عن الله وذكر به ، واعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً . ثم التفت اليه قائلاً له : وإياك وإياكم معشر الناس اختها فان الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت فردوا الأمر الى أهله توردوه موارده وتصدروه مصادره ، وعاد الى خطبته ، فقام اليه أبو الجوزاء وقرأ (يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون) .

ومن هذا نستدل على أن تلك المحاولات لم تخف على اكثر الناس ، وان اعتراض ابي الجوزاء عليه اعتراض يقول به كل أحد ، لانه يدعي أن العباسيين هم أهل الامر دون غيرهم ، وان الحكمة نزلت عليهم ، وهذه امور اختص بها أهل بيت الرسول كما يذهب اليه كثير من الناس وهو الامر الذي لا خفاء عليه ، ولكن المنصور يحاول تغيير الواقع وقلب الحقائق ، وقد ساعده من حوله من العلماء وايدوا ما يدعيه ، وأقاموا أدلة على ذلك وهي مغالطات ولغة السياسة .

فى مجالس الوعظ :

ومن دواعي سياسة المنصور أن يقرب العلماء ويطلب منهم أن يعظوه ويذكّروه بالآخرة ليظهر للناس تدينه وتمسكه بالدين ، وقد سار على ذلك اكثر احفاده جرياً للظروف واتباعاً لمقتضيات الزمن . فكان المنصور عند سماعه الوعظ يبكي ولكنه بدون اتعاظ ، ويجري دموعه ولكنه بدون خشوع ، وإنما هو كف تذبح واخرى تسبّح .

دخل عليه عمر بن عبيد (١) وعنده ولده المهدي بعد أن بايع له ببغداد

(١) عمر بن عبيد بن باب ابو عثمان البصري المتوفى سنة ١٤٤ كان مذموم الرأي ينسب الى القول بالقدر ، وكان نساجاً وأظهر النسك والعبادة ، وقد كذبه غير واحد من —

فقال المنصور : يا أبا عثمان عظني ، فقال عمر بن عبيد : يا أمير إن هذا الذي أصبح في يدك لو بقي في يد غيرك لم يصل اليك فاحذرك ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده ثم انشد ابياتاً :

والنفس هاربة والموت يرصدها ... فكل عثرة رجل دونها أجل

والمرء يسعى بما يسعى لوارثه ... والقبر وارث ما يسعى له الرجل

فبكى المنصور بكاءً شديداً ، ودخل عليه مرة اخرى فقال له : عظني فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

« بسم الله الرحمن الرحيم والفجر وليال عشر ... الى آخر السورة » . فبكى المنصور بكاءً شديداً وتظاهر بالحزن والجزع . وهذا لون من ألوان السياسة وطريقة مصطنعة لاغراء العامة وجلب القلوب ، والا فاعمال المنصور لا تتفق مع هذه الحالة الشاذة ، وانه يحمل قلباً يلين الصخر ولا يلين ، ولقد سار على ذلك اكثر احفاده .

ولو كان قلبه يلين لشيء لكان آل محمد اولى بذلك ، فقد طاردهم بصورة وحشية ، ولرق لحال محمد بن عبدالله عند ما اشتد في طلبه ، وأمر عامله أن يجد في تتبعه والقاء القبض عليه ، فاجتهد العامل فى الطلب فاخبروه انه فى شعاب مكة ، فوجه العامل اليه من يقبضه فهرب محمد راجلاً فافلت وله ابن

—— حفاظ الحديث وعلماء الرجال ، وكان المنصور يقربه ويكرمه حتى انه رثاه عند موته بقوله:

صلى الإله عليك من متوسد ... قبراً مررت به على مران

وكان من موالي بني تيم من ابناء فارس ، قال النسائي ليس بثقة ولا يكتب حديثه ، وقال يونس كان عمر يكذب فى الحديث وكذبه حماد وغيره ، اذاً فلا يستغرب تقديم المنصور له ولامثاله من علماء الدولة . انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٦٦ — ١٨٨ .

صغير مع جارية له فسقط الولد من الجبل فقطع فلما نظر اليه محمد قال :

شرده الخوف فازرى به كذاك من يكره حر الجلاد (١)

ولو كان للمنصور قلب يعرف الرحمة لرحم ابنة عبدالله بن الحسن عند ما تعرضت له تستعطفه بأرق عبارة ،وقد مر موكبه بها وهو يريد الحج فخاطبته بقولها :

ارحم كبيراً سنه متهـــدم في السجن بين سلاسل وقيود
ان جدت بالرحم القريبة بيننا ما جـــدنا من جدكم ببعيد

فكان جوابه اذ كرتنيه ثم أمر به فاهدر بالمطبق . هذا هو المنصور الذي يبكي من خشية الله ويتظاهر بالاتعاظ .

والغرض ان سياسة المنصور اقتضت أن يكون فظاً غليظ القلب لا يُعرف فيه للرحمة موضع ، ولكنه يتظاهر بما لا يتصف به فتراه يفتك بآل محمد فتكا ذريعاً ولم يرع له حرمة القرابة من رسول الله ، واذا به يحتفظ بحصير بال قد مرت عليه السنون ، ويتبرك به لانه يقال قد كان لرسول الله . فالمنصور يظهر للناس شدة اهتمامه بالمحافظة على آثار النبي عند ما يحتفظ بذلك الحصير الذي أخذه من خزائن بني امية ، وجعل له موضعاً خاصاً يحمله اوقات الصلاة حتى عرف بصاحب المصلى فاين هذا من ذاك واين هذا الاهتمام بحفظ آثار النبي وقد فرش ارض سجن الهاشمية باجساد ابناء الرسول ؟!

محاولة فاشلة :

حاول المنصور في معاملة أهل البيت ومطاردتهم بالعنف والشدة ان يقضي عليهم ، ويمحو ذكرهم من الوجود ، ليحتفظ بالمركز الديني الذي يحاول ربطه

(١) انظر ابن الاثير ج ٥ ص ٢٤٦ .

بدولته ، لتكون له السلطة التشريعية والدينية .

وهو يعلم أنها محاولة فاشلة ، ومهمة شاقة ، ومشكلة هي من أخطر المشاكل إذ أن من الواضح ان الزعامة الدينية منوطة باهل البيت كما هو الاعتقاد السائد والامر الواقع ، فلا يمكن لاي قوة أن تقف في وجه الامة لكي تحولهم عن هذا الاعتقاد ، والمسلمون بصورة عامة يحتفظون لأهل البيت بالولاء ويعترفون لهم بتلك المنزلة .

ولكنه استطاع بكثير من العزم أن يسيطر على عقول السذج وان يقنع آخرين بمجاراته لهم بشتى وسائل الاقناع وأقواها عامل الارهاب والسطوة ، وان الناس حول آل محمد ثلاثة أصناف كما قسمهم الامام الباقر (ع) بكلمته الخالدة حيث يقول :

صنف يأكلون الناس بنا ، وصنف كالزجاج يتهشم ، وصنف كالذهب الأحمر كلما دخل النار ازداد جودة . فهذا الصنف لم تؤثر فيه نيران الحرب ، ولا ظلمة السجن ، ولم يزعجه التهديد ، والتوعيد ، والمطاردة والتشريد ، بل وقف هدفاً لسهام النقمة حتى احرز النجاح ونال الغاية ووصل الى الغرض .

والغرض ان غرض المنصور المباشر أن تكون حكومته تقوم على مركز ديني وعقيدة تشد ازرها وهو يتمسك بالحق الشرعي ووراثة النبي ، وكيف يتم له ما أراد وأهل الحق هم غيره وورثة النبي هم خصومه .

لقد كان مجداً في هذه الغاية ولكن لا يمكن تحصيلها ، لذلك قد ثقل عليه أن يترأس الحركة العلمية ـ في عاصمة العلم ودار الهجرة ـ جعفر بن محمد الصادق ، ويثقل عليه ان يلهج العلماء بقول : حدثنا جعفر بن محمد ، وكان يجن جنونه ، ويخرج عن اتزانه عندما يملأ سمعه بل سمع الدنيا ذكر جعفر بالثناء والاعتراف

له بعلو المنزلة واتساع مدرسته ، وقد ضمت ابناء المهاجرين والانصار ، واعيان الامة وكثرت اليها الهجرة ، والامام الصادق يزودهم بتعاليمه القيمة ، ويوضح لهم ما أشكل عليهم ، ويلقي عليهم دروس الحكمة ، ومكارم الاخلاق ، ويدعوهم الى دعوة الناس الى الحق ، ومناصرة العدل ، ومحاربة الظلم ، ومساعدة المظلوم ، والابتعاد عن الظلمة الذين تربعوا على دست الحكم وامتصوا دم الامة وفرقوا الاموال لغاياتهم الدنيئة ، وقد كان عصر المنصور قد تجسم فيه الظلم بصورة تشمئز منها النفوس كما وصفه ذلك الرجل الذي سمعه المنصور يهتف بالبيت شاكياً الى الله تعالى ؛ وذلك عند ما حج المنصور حجته التي مات فيها ، فبينما هو يطوف إذ سمع قائلا يقول : اللهم إني اشكو اليك ظهور البغي والفساد فى الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا بالقائل فسأله عن قوله ، فقال : يا امير المؤمنين إن أمنتني أنبأتك بالامور على جليتها ، فقال : أنت آمن على نفسك ومالك .

فقال : إن الذي دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله هو أنت فقال : ويحك فكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء عندي ؟! فقال : يا امير المؤمنين لان الله استرعاك المسلمين واموالهم ، فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد ، وحجاباً معهم من الاسلحة ، وامرتهم أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان ، ولم تأمر بايصال المظلوم ، ولا الملهوف ، ولا الضعيف ، ولا الفقير ، ولا الجائع ، ولا العاري ، وما منهم إلا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجبي الاموال فلا تعطيها ، وتجمعها فلا تقسمها ، قالوا : هذا قد خان الله تعالى فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه ، فاتفقوا على أن لا يصل اليك

من اخبار الناس إلا ما ارادوا ، ولا يخرج لك عامل إلا اقصوه ونفوه ، حتى تسقط منزلته ، فلما اشتهر هذا عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم ، فكان أول من صانعهم عمالك فى الهدايا ، ليقووا بهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة ، لينالوا بهم ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وفساداً ، وصار هؤلاء شركاؤك فى سلطانك وانت غافل ، فان جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول عليك ، فان أراد رفع قصته اليك وجدك قد منعت من ذلك وجعلت رجلاً للمظالم ، فلا يزال المظلوم يختلف اليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك ، واذا صرخ بين يديك ضرب ليكون نكالاً لغيره ، وانت تنظر ولا تنكر فما بقاء الاسلام على هذا (١) .

وقدم عبد الرحمن بن زياد الافريقي على المنصور فاقام ببابه شهراً لا يمكنه الدخول ، ثم دخل عليه ، فقال : ما أقدمك ؟ قال : ظهر الجور ببلادنا فجئت لا علمك ، فاذا الجور يخرج من دارك ، ورأيت اعمالا سيئة ، وظلماً فاشياً ظننته لبعد البلاد منك ، فجعلت كلما دنوت منك فكان الامر أعظم . فغضب المنصور وأمر باخراجه (٢) ، وغير ذلك من الشواهد على انتشار الظلم وعنف الولاة ، وجورهم في الحكم وظلمهم الرعية ، والمنصور لا يهمه ذلك ، ولكن يهمه امر جعفر ابن محمد ، لا خوفاً على ملكه منه وانه ينازعه الامر ، ولكن وجوده فى المدينة ومركزه الديني ومدرسته المنتشرة وتعاليمه التي اصبحت دروساً خالدة كانت تقض مضجع المنصور وتسلب قراره ، فليس من صالح الدولة بقاؤه والسكوت عن زعماء العلوية الذين لهم اهلية الحكم واقامة العدل الذي طلبته الامة في ذلك

(١) تاريخ ابن الساعي ص ١٩ باختصار .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٢١٥ .

الانقلاب ، وهو يرى نفسه لا تستطيع أن تقيم العدل كما لا تستطيع أن تترك جعفر بن محمد وقد ظهرت أقواله وحفظها الناس فى الدعوة الى الاصلاح ومحاربة الفساد . وكان يقول :

إن الامامة لا تصلح إلا لرجل فيه ثلاث خصال : ورع يحجزه عن المحارم ، وحلم يملك به غضبه ، وحسن الخلافة على من ولي حتى يكون له كالوالد الرحيم .

والمنصور يرى نفسه لا يتصف بواحدة من هذه الصفات ، فهو فى نظر الامام الصادق ليس اهلا للخلافة ولا تجب طاعته ، وهذا المعنى لا يخفى على المنصور كما لا يخفى عليه قول الامام فى حكمته الخالدة : من روع مؤمناً بسلطان ليصيبه منه مكروه فاصابه فهو مع فرعون وآل فرعون .

وهذه الامور التي تبلغه عن الامام الصادق هي فى نظر المنصور خروج عن الطاعة ودعوة الى الالحاد فى السلطان ، وهو يريد أن يكبت الشعور ويكم الافواه ، ويمضي فى سبيل شهواته وينتحل وراثة النبوة وامامة الحق والخلافة الراشدة ، ولا شيء من ذلك . إذاً يعظم عليه دعوة الناس للخير وحثهم على المصلحة العامة والسعي وراء منفعة الامة ، وأهل بيت النبي هم دعاة الخير وهداة الانام ودعوتهم لله وحده ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون الناس لذلك ، كما قال الباقر (ع) :

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الانبياء ومنهاج الصلحاء ، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتأمن المذاهب وتحل المكاسب وترد المظالم وتعمر الارض ، وينتصف من الاعداء ، ويستقيم الامر ، فانكروا بقلوبكم ، والفظوا بالسنتكم ، وصكوا بها جباههم ، ولا تخافوا فى الله لومة لائم ، فان اتعظوا

والى الحق رجعوا فلا سبيل عليهم ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم ، هنالك فجاهدوهم بابدانكم غير طالبين سلطاناً ولا باغين مالاً ، ولا مريدين لظلم ظفراً ، حتى يفيؤا الى أمر الله ويمضوا على طاعته .

فهذه التعاليم لا يستطيع المنصور أن يسمعها ، وليس لجعفر بن محمد ذنب في دولة المنصور إلا انه داعية صلاح ورجل علم وتقوى ، يعلم الناس الخير ويدعوهم للصلاح ، ويحارب المفاسد التي اضرت بالمجتمع ، وينبه الناس على اخطاء الحكام ، وحرم عليهم أن يعادوهم ليتعظوا ويعودوا للحق ويقلعوا عن الباطل ، وهو الزعيم المتفرد بزعامة الدين وسيد أهل البيت . هذا هو ذنب جعفر بن محمد الى المنصور حتى أذاقه العذاب وألوان المحن ، وجلبه للعراق ليجعله تحت مراقبته ويمنعه من دعوة الحق ، ولكنه فشل في محاولته وخابت مساعيه ، وقد أراد شيئاً وأراد الله غيره ولا راد لمشيئة الله .

عداء موروث :

كان المنصور يظن خطأ انه يستطيع أن يصل هدفه بتلك المحاولات ويقضي على أهل البيت ، وبالاخص بعد وفاة الامام الصادق ، لذلك اتجه نحو علماء المدينة بعد تلك المقاومة التي قابلهم بها في انتصاره لاهل الرأي وانضمامه لجانب الموالي في معركة أهل الحديث وأهل الرأي ، وقد حاول أن يضرب سلطانه على العلماء ويكون هو الموجه لسير العلم ، ونقم على كثير منهم عندما ابتعدوا عنه ولم يعاونوه ، وظن ارتفاع الحواجز التي تحول بينه وبين غرضه ولكنه في غفلة عن الالتفات لخطأه ، فان أهل البيت لهم مكانة في المجتمع الاسلامي

تعترف كل قوة بالعجز عن تحويلها ومحوها ، والمسلمون لا تزول عقيدتهم في وجوب حب أهل البيت وان اختلفت آراؤهم ومذاهبهم . فمحاولة المنصور ذهبت إدراج الرياح ولم تثمر الفائدة التي أرادها .

وبعد أن مضى لسبيله ورث ابناؤه وأحفاده تلك السياسة الخرقاء ، وساروا على ما خطه لهم فى العداء لأهل البيت ومحاربة انصارهم وتحقيق الغرض الذي يريدونه ، وهو ابراز دولتهم بصبغة الدين ، وجعل اعمالهم لها تمام الارتباط بالاسلام ، ويريدون أن يوجدوا لهم في قلوب الناس اعتقاد القدسية ، ويمنحونهم الثقة التامة في اهلية الخلافة ورعاية المسلمين ، فكانوا يحلون انفسهم بصبغة الشرع والتدين فيكرمون العلماء ويطلبون منهم أن يعظوهم ويذكروهم الآخرة ، ويجرون الدموع كما كان يفعل المنصور . وكان الرشيد يطلب من أبن السماك وغيره ،عندما يدخلون عليه أن يعظوه .

دخل ابن السماك (١) على الرشيد وطلب منه أن يعظه فقال له : إن لك بين يدي الله مقاماً ، وان لك من مقامك منصرفاً فانظر الى اين منصرفك، الى الجنة أم الى النار ؟ فبكى الرشيد بكاءً شديداً حتى كاد أن يموت (٢) .

وغير ذلك مما كانوا يفعلونه اغراءً للناس حسب مقتضيات السياسة ودواعي السلطة وأنهم لن يعدموا من ناصر لهم يساعدهم فى مهمتهم التي يريدون تحقيقها ، وهي ارتباط الدين بدولتهم ، وابراز انفسهم بصفات التقوى ، وقد وضعوا الاحاديث عن النبي (ص) لاعلاء شأن الدولة وتركيز دعائمها ، كحديث :

---

(١) ابن السماك هو محمد بن صبيح الواعظ المتوفى سنة ١٨٣ روى عنه احمد وغيره كان مشهوراً بالوعظ يعظ الناس أيام الرشيد .

(٢) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٧٣ .

اللهم اغفر للعباس ولولد العباس ولمن أحبهم (١) .

وبصورة اخرى : اللهم اغفر للعباس وولد العباس ولمن احبهم ، اللهم اغفر للعباس ما أسر وما أعلن وما ابدى وما اخفى ، وما كان وما يكون منه ومن ذريته الى يوم القيامة (٢) .

وبهذا يريدون أن يكونوا في سلامة من المؤاخذة وعليهم حصانة من العقاب ، كما حاولوا أن تكون دولتهم هي الدولة الصالحة التي يبشر بها النبي (ص) ، فرووا عن ابي سعيد الخدري مرفوعاً : يخرج منا رجل في انقطاع من الزمن وظهور من الفتن يسمى السفاح (٣) وبلفظ آخر عن المهدي بن المنصور عن آبائه مرفوعاً : ليكونن منا السفاح والمنصور والمهدي (٤) .

يقول الدكتور احمد امين : فوضعت الاساطير حول العباس ، وعبدالله ابن العباس ، وغيرهما من آل العباس ، من مثل ما يروى أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس عام الرمادة لما اشتد القحط ، فسقاهم الله تعالى به ، واخصبت الارض ، فقال عمر : هذا والله الوسيلة الى الله والمكان منه ـ ولما سقي الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون له : ساقي الحرمين (٥) .

وتصوير بعض المؤرخين بأنه ـ أي عبدالله بن العباس ـ سياسي محنك قدير كان يرسم الخطط لعلي بن ابي طالب ، مع ان اكبر مزية له في الواقع هي سعة علمه الى غير ذلك (٦) .

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٣٩ .
(٢) انظر شرح الهمزية لابن حجر ص ٣١٨ .
(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٤٨ .
(٤) نفس المصدر .
(٥) اسد الغابة ج ٣ ص ١١١ .
(٦) ضحى الاسلام .

وقد حقق الحفاظ هذه الاساطير وتلك الموضوعات فنصوا على كذبها(١) وقد ساروا على تلك الخطة وقربوا دعاة الباطل وعلماء السوء انتصاراً لدولتهم ومعارضة لأهل البيت عليهم السلام .

استمر عداء العباسيين لآل علي ،ومثلوا بهم وباتباعهم وبذلوا أقصى جهودهم فى مقاومتهم ، واستعملوا كل وسيلة يأملون من ورائها نجاح مهمتهم مجاراة للناس من طريق الدين عندما اكرموا العلماء وقربوهم ونشروا العلم ووسعوا دائرته وبذلك يحاولون أن يضيقو دائرة انتشار ذكر أهل البيت، ومنعوا الناس من الحديث عنهم ووسموا انصارهم وشيعتهم بالخروج عن الدين ، واتهموهم بالزندقة والالحاد ليتوصلوا الى حلية دمائهم ونهب أموالهم ، ورد رواياتهم ، وهذا اجمال نفصله بعض التفصيل فيما بعد .

والغرض أن المنصور شرع لرجال دولته مقاومة أهل البيت وحلية دمائهم ، وقد مثل دوره فى حياته كما مر بيان بعضه ، فالسياسة التي سار عليها مع الامام الصادق وبقية العلويين هي السياسة التي سار عليها ابناؤه بصورة أوسع وافضع، حتى كدروا صفو اخوة المسلمين ، واوقدوا بينهم نار العصبية ، وخلقوا مشكلة المذاهب التي هي أعظم المشاكل فى تاريخ الاسلام . وقد مر بيان قسم من ذلك .

ولا نقف طويلاً فى تتبع تلك الحوادث واستعراض تلك الادوار .

وصفوة القول ان جهودهم في مقاومة أهل البيت لم تثمر الثمرة التي كانوا يطلبونها ، ولم يستطيعوا أن يقضوا على مبادئهم وان المسلمين مهما بلغت بهم عوامل التفرقة ،فهم يحتفظون لأهل البيت بالولاء وان كثرت معارضة السلطة لهم ، وقوبت

(١) انظر تاريخ بغداد ، واللآلى المنظومة .

دعايتهم ضد أهل البيت ، وخرجوا عن الواقع المحسوس ، واستعملوا الخرافات والاباطيل ليضلوا الناس عن طريق الحق ونهج الرشاد .

ونحن نأمل كما يأمل كثير من الناس ان تهزم خرافات الاجيال الماضية بقوة العلم ، وتخضع تلك الاشباح الهائلة على التقهقر ، فقد وقفت فى طريق وحدة المسلمين واتفاقهم لتعود لواقعها من حيث هي ، وتنكشف الحقائق ويظهر لجيلنا المثقف خطأ الوضع ، فانه لا يكاد يخضع لتلك الخرافات التي هيمنت على عقول الاجيال زمناً طويلاً .

وان فى حديثنا عن الامام الصادق إنما هو حديث عن أعظم شخصية اسلامية فى عصره وبعد عصره ، ولم تكن موهبته وعبقريته ادعائية بل الواقع ذلك ، ولـكن سير حوادث الزمن واغراض السلطة الحاكمة وسياستهم الملتوية شاءت ان تغير مجرى الواقع وتشوه الحقائق باشياء لا تستطيع الثبوت امام التثبت والبحث الصحيح ، فهو عليه السلام معلم أئمة المذاهب ورئيسهم الاول ، وهو موجه الامة الى طريق الحق ليطفىء نائرة الفساد وقد قاوم المعتدين على حقوق الامة ، وثبت امام المقاومات ليحقق الغرض الذي تتطلبه مصلحة المسلمين وما له مساس فى حياة المجتمع .

ولا نريد أن نكبر من شخصية الامام الصادق أو نزيدها اعظاماً في النفوس عنـــد ذكرنا لبعض صفاته ، فليست هي بعيدة عن الواقع ، بل لا بد من الاعتراف بالعجز عن إدراك صفاته ومعرفة شخصيته . وكما يحاول الباحث ان يصل الغرض في بحثه يجد نفسه فى أول نقطة من سيره وهو في البداية لا النهاية . وسنعود انشاء الله للحديث عنه وها نحن ذا نقف عند هذا الحد وننتقل الى البحث عن حياة الامام مالك بن انس الاصبحي الامام الثاني من الائمة الاربعة ، ونتعرف عليه ملتزمين البحث التاريخي بدون تعصب له أو عليه .

الامام مالك بن انس

تمهيد

تقدمت الاشارة في الجزء الاول لمعركة أهل الحديث وأهل الرأي وما أحدثه ذلك النزاع فى صفوف الامة ، وكان من نتائجه أن تظهر شخصية الامام مالك فى الحجاز ، وشخصية أبي حنيفة في العراق . كما أنه لم تخف اغراض السياسة من وراء انتصارها لأهل الرأي وسخطها على أهل الحديث .

وعلى كل فقد افترق المسلمون الى فرقتين : أهل الحديث وأهل الرأي ، وزعيم الفرقة الاولى مالك ، والثانية أبو حنيفة ، حتى أدت النتائج الى الخروج عن حدود العلم ، وتخطت الى الهجاء والقذف والسباب ، ولكن تلك المعركة لم تطل أيامها ، فقد رأينا بعد قليل تلتقي أطراف ذلك الافتراق ، ويجتمع أهل الحديث وأهل الرأي ، وكأن القضية كانت لتحقيق امر وقد حصل ذلك . فكان الامام مالك بن أنس عرضة لسخط الدولة ، حتى منعوه من الحديث ، وضربوه بالسياط لأجل فتوى أفتاها لم توافق غرض الدولة ، ولكنه بعد قليل من الزمن أصبح مقدماً فى الدولة ملحوظاً بالعناية ، محفوفاً بالكرامة ، وكانت بابه تزدحم عليها الناس كأنها باب الأمير ، بل كان الامراء يتهيبون شخصه ، وتقصر خطاهم عن الوصول اليه ، وهذا التحول الغريب يحملنا على التساؤل : هل ان الدولة كانت تبغضه لشيء فتركه تقية أو تبدل رأيه عن ذلك ؟ أم أنه ثبت على ما يراه وتحملت الدولة لذلك ، ووجدت نفسها مضطرة الى مجاراته ؟ أم ان هناك شيء آخر ؟ ويمكننا أن نستحصل الاجابة عن هذه الاسئلة عند دراستنا لحياته ووقوفنا على عوامل شخصيته وبواعث انتشار ذكره ، إذاً لنتعرف على الامام مالك وندرس شخصيته دراسة تاريخية ، ونستعرض حوادث عصره وسياسته لنكون على بينة من الامر ودنواً من الواقع :

من هو الامام مالك ؟

هو ابو عبدالله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمر بن الحارث وهو ذو اصبح من حمير بن سباء ، وهي قبيلة يمنية ، وامه ازدية وهي العالية بنت شريك الازدية . فعلى هذا فان امه وأباه عربيان .

وهنا تقف امامنا مشكلتان لا يمكن أن نتخطاهما بدون اشارة لهما ، ليتجلى لنا الامر ويتضح القول الصحيح .

الاولى : ـ إن الكثير من كتاب السير ذهبوا الى عدم صحة هذا النسب ، وان مالكا لم يكن عربياً وإنما هو من موالي بني تيم . فهو على هذا من موالي قريش وليس بعربي ، وقد روي عن ابن شهاب انه قال : حدثني نافع بن مالك ـ وهو عم مالك بن أنس ـ مولى التيميين (١) ان أباه حدثه عن ابي هريرة ... الخ.

وان شهاب الزهري هو استاذ مالك وأعرف بحاله ، فهو يعتبر مالكا من الموالي لانه اعتبر عمه نافعاً كذلك .

وقال ابن عبدالبر : إن محمد بن اسحاق الواقدي زعم أن مالكا وأباه وجده واعمامه موالى لبني تيم بن مرة ، وهذا هو السبب في تكذيب مالك لمحمد بن اسحاق وطعنه عليه .

فبهذا يصبح مالك هو من الموالي لا من العرب ، وقد كان شائعاً فى عصر مالك ، لذلك وقف تجاه هـــذه الدعوى مكذباً لها وانكرها أشد الانكار ،

(١) انظر الانتقاء ص ١١ .

وكذب من يدعيها عليه ، وكذلك أبو سهيل عم مالك قام في انكارها وقال : نحن قوم من ذي أصبح ، قدم جدنا المدينة فتزوج في التيميين ، فكان معهم ونسبنا اليهم . وهذا يدل على خمول ذكرهم وعدم اشتهار عشيرتهم ، وقد أصر ابن اسحاق على صحة تلك الدعوى وتكذيب انتسابهم الى العرب ، وقد ادعى أن حصول هذه الشبهة في نسب مالك وعدم كونه عربياً : أن مالك بن ابي عامر قدم المدينة متظلماً من بعض ولاة اليمن ، فمال الى بعض بني تيم بن مرة فعاقده ، وصار معهم .

وهذا يختلف مع ما يقوله نافع بن مالك فانه يدعي ان الحلف كان مع أبي عامر جدهم لا مع ابنه مالك جد مالك بن أنس .

ويروي ابن عبدالبر عن البخاري بسند عن نافع بن مالك بن ابي عامر قال : قال لي عبدالرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي ـ وهو ابن اخي طلحة ـ : هل لك الى ما دعانا اليه غيرك ، فابينا عليه أن يكون هدمنا هدمك ودمنا دمك ترثنا ونرثك (١) ؟ وينسب هذا الى الربيع بن مالك ايضاً (٢) .

ومهما يكن فان نسب مالك للعرب لم يخل من طاعن فيه ، لانه من الموالي وهو بين مثبت ونافٍ .

وكما طعن في اب مالك وعدم صحة عروبته ، فكذلك الحال في امه العالية ، فقيل : إنها أزدية يمنية وهي بنت شريك بن عبدالرحمن بن شريك الازدية ، وقيل انها طليحة مولاة عبيدالله بن معمر حكاه القاضي عياض (٣) وعلى هذا يكون نسب مالك من الطرفين الى الموالي ، ولا علقة له بالعرب .

---

(١) الانتقاء ص ١١ .
(٢) تزيين الممالك للسيوطي ص ٣
(٣) مناقب مالك للسيوطي .

الثانية : ـ قضية بقائه فى بطن امه ، قيل سنتين وقيل ثلاث سنين وقيل أربع سنين ، وقال ابن سعد فى الطبقه السادسة من تابعي أهل المدينة : اخبرنا الواقدي قال : سمعت مالك بن أنس يقول : قد يكون الحمل ثلاث سنين ، وقد حمل ببعض الناس ثلاث سنين يعني نفسه .

وقال ابن عبدالبر : وقد ذكر غير الواقدي أن ام مالك حملت به ثلاث سنين (١) .

وهذا بعيد كل البعد عن الصحة ، لان الطب يقرر أن الحمل لا يمكن أن يمكث فى بطن امه اكثر من سنة ، على أن الاستقراء مع المراقبة الدقيقة يجعلنا نؤمن بان الحمل لا يمكن أن يمكث في بطن امه اكثر من تسعة أشهر ، مع انا لم نقف على تاريخ وفاة ابيه ، فنقارن النسبة بين الولادة والوفاة ، وهذه الدعوى من شذوذ الطبيعة ولا نتعرض الى إقامة البرهان على عدم بقاء الطفل فى بطن امه اكثر مما هو المتعارف .

ويذهب بعضهم الى أن هـذه الرواية : وضعها المعجبون بمالك ، لانهم يريدون أن يقرنوا حياته بالعجائب والغرائب ، لبيان أنه صنف من الناس ممتاز اقترنت مميزاته بمولده ، إذ انه حمل به ثلاث سنين على حين يحمل بكل مولود تسعة أشهر ، فكانت هذه منقبة اقترنت بميلاده ، كما كانت حياته كلها مناقب، كما سيأتي بعضها . وليس من البعيد أن يتقبل المعجب بشيء كلما له علاقة فيه وإن خالف الحق ولم يؤيده العلم وشذ عن العقل ومجرى العادة ، على أن مثل هذا لا يرتفع به مقام مالك وكان الاجدر رفضها دون قبولها .

---

(١) الانتقاء ص ١٢ ومناقب مالك للسيوطى ص ٦ .

ولادته :

اختلفت الروايات فى سنة ولادة مالك كالاختلاف فى مدة حمله ، فقيل: إنه ولد سنة ٩٠ وقيل سنة ٩٣ وقيل سنة ٩٤ وقيل سنة ٩٥ وقيل سنة ٩٦ فى المدينة المنورة ، وتختلف الروايات في أول من نزل المدينة من اسرة مالك ، فقيل: إن أول من نزل هو أبو عامر وانه صحابي وشهد المغازي مع النبي (ص) ما عدا بدراً ولم يذكره أحد فى عداد الصحابة . قال الذهبي : في التجريد لم أر من ذكره فى الصحابة ، والصحيح أنَّ أول من انتقل إلى المدينة هو مالك ابن أبي عامر جد مالك بن أنس وهو من التابعين كما رواه ابن عبد البر ، وتدل عليه رواية ابو سهيل عم مالك المتقدمة في بيان نسبهم ، ولكن المالكية ذهبوا الى اثبات الصحبة لابي عامر وليس لهم على ذاك دليل ، لذلك لم يقبله المحققون ولم يثبتوا له صحبة . فابن حجر فى الاصابة لم ينقل عنه شيئاً إلا أنه نقل عبارة الذهبي ، وابن عبد البر فى الاستيعاب لم يتعرض لذكره . وهذه الدعوى وليدة ظروف متأخرة اثبتتها كتب مناقب مالك ، كما أن انس بن مالك والد مالك – صاحب المذهب – لم يكن له ذكر فى كتب الرجال ولم يعرف عنه انه اشتغل بالعلم ، وليست له معرفة فيه ، ولو كان يؤثر عنه شيء لكان مالك أولى بروايته . نعم ورد فى بعض الكتب رواية مالك عن ابيه عن جده عن عمر بن الخطاب عن النبي (ص) انه قال : ثلاث يفرح لهن الجسد فيربو عليهن : الطيب ، والثوب اللين ، وشرب العسل ، ولكن المحققين من علماء الحديث قالوا إن هذا الخبر لا يصح عن مالك (١) .

---

(١) تزيين الممالك ص ٥ .

وبهذا لم يكن لأنس رواية في الحديث ولا رواية واحدة .

قال الخطيب في المتفق بعد ذكر الحديث المتقدم : لا أعلم . روى عن مالك من هذا الوجه وفيه نظر ، فهو يطعن بصحته ، وقال ايضاً : لم يروه عن مالك غير يوسف بن هارون تفرد به القشيري ، واخرجه ابن حبان في الضعفاء ، وقال هذا لم يأت به عن مالك غير يونس ـ وهو أحد رواة الحديث المتقدم ـ وقد روى عجائب لا تحل الرواية عنه . وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك وقال : هذا لا يصح عن مالك ، ويونس ضعيف .

فائدة :

ربما يتوهم أن والد مالك بن أنس هو الصحابي الشهير ، لان المتسمين بأنس ابن مالك هم خمسة :

١ — أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الانصاري ابو حمزة المدني المتوفى سنة ٩٣ وهو خادم رسول الله (ص) .

٢ — أنس بن مالك الكعبي القشيري ابو اميعة ، نزل البصرة ، وروى عن النبي (ص) حديثاً واحداً .

٣ — أنس بن مالك شيخ حمصي ، ذكره ابو بكر احمد بن محمد بن عيسى البغدادي في تاريخ الحمصيين ، وليس له في الحديث شيء .

٤ — أنس بن مالك أبو القاسم الكوفي حدّث عن عبدالرحمن ابن الاسود وحماد بن ابي سليمان وغيره ، واحاديثه قليلة .

٥ — أنس بن مالك والد الامام مالك هذا ، ولم يكن له ذكر في كتب الحديث ، ولم يفصح التاريخ عن شيء من حياته ولا تاريخ وفاته ، بل هو مجهول ، كما

انا لم نقف على شيء من حياته لتتحقق نشأة مالك تحت رعايته وتربيته ، ولعله مات قبل أن يولد مالك بمدة ، ويقال إن مالك نشأ تحت رعاية غيره من اسرته ، ويدعي انها مشهورة بالعلم ، ولا نعرف منهم إلا نافع بن مالك بن ابي عامر الاصبحي ابو سهيل المتوفى في سنة ٣٤ ـ ٣٥. روى عن ابن عمر وانس ، وعنه ابن اخيه مالك بن انس والزهري ، ولم يكن له كثير حديث .

وأما اخوه النضر بن انس اخو مالك ، فقد روى عن ابيه وابن عباس وعنه بكر المزني ، ويقال ان مالكا كان ملازماً له ، ولا يعرف إلا باخيه ، فيقال عند تعريفه : اخو النضر لشهرة اخيه دونه ، ولم يكن غير هؤلاء في اسرة مالك من عرف عنه الحديث ، ولا يصح أن توصف هذه الاسرة من الاسر العلمية في المدينة ،فيكون لها الاثر في توجيه مالك الى طلب الحديث والفتيا ، لان الناشىء تتغذى مواهبه ومنازعه من منزع بيته وما يتجه اليه ، فتترعرع تحت ظلها المواهب وتتجه المنازع ، على انهما لم يكونا بتلك المنزلة من الشهرة العلمية ، ولم تكن لهما كثير رواية .



المناقب

من الامور التي تستدعي النظر والاهتمام هو الغلو في المناقب ، وذلك لقوة نزعة التعصب ، وبالاخص عند احتدام النزاع والتخاصم بين الفرق ، فكل يحاول تأييد مذهبه وتعزيز رأيه ، ويتخذ شتى الوسائل لتكون له الغلبة على غيره ، حتى كان الحق في جانب والمغالون في جانب آخر مما أدى الى حصول عقبات دون الباحث الذي يريد أن يتعرف على شخصية من شخصيات التاريخ . وقد تقدم بعض تلك المناقب التي انتحلوها لابي حنيفة تعزيزاً لمركزه وتقويماً لشخصيته حتى ذهبوا الى أبعد حد من ثبوت العبقرية الادعائية من وفور علمه ، وعلو منزلته ، وشرف بيته حتى قالوا : إن أهل الكوفة كلهم موالي لابي حنيفة - أي عبيد فاعتقهم (١) - وما ذلك إلا من عواصف الشعوبية ، وهل ينكر أحد أن أبا حنيفة كان عبداً لبيت من بيوت الكوفة ، ولهم ولاؤه ؟ ولكن المغالطات والادعاءات الفارغة لا حدّ لها ولا نهاية ، فهي واسعة بمقدار اتساع الغرض ، وتسير طيعة للهوى والنزعة التي تقتضيها ، ويعود ذلك الى المعركة الجدلية التي جرت في القرن الرابع وبالاخص بين الحنفية والشافعية ، فملأت كتب المناقب بالاغراق والمبالغة ، حتى بلغت مغالاة امة من الحنفية أن امامهم أعلم من رسول الله (٢) وحدث علي بن جرير : أن رجلين تماريا في مسألة فقال أحدهما : قال رسول الله (ص) ، فقال الآخر : كان أبو حنيفة أعلم بالقضاء (٣) وهذا

---

(١) انظر مناقب ابي حنيفة المكي ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) انظر تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤١٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٤١٤ .

منتهى الاغراق في الغلو وقد مر قسم من ذلك في الجزء الاول .

أما المالكية فانهم أهون عن تقحم الخطر على مركب الغلو من الحنفية في وضع المناقب ، وقد خلت كتبهم من التحامل والطعن على غيره على انهم لم يخلوا من شائبة الغلو والمدح والاطراء بما لا يخلو من اضطراب ، كما انهم اكثروا في الاطياف والرؤيا بما يعود لمالك وعلو منزلته بما يحصل فيه لشخصية امتياز عن غيره ، وتلك مبالغات مصدرها الغلو وحب الغلبة والشهرة . واليك بعضاً من مناقبه :

عالم المدينة :

لما كانت المدينة المنورة مهداً للعلم ومصدراً للتشريع ، فلابد أن يكون لعلمائها منزلة دون غيرهم من علماء الاقطار ، وقد ورد حديث عالم المدينة فجعلوه ينطبق على مالك وحده ، وكأن المدينة لم ينبغ بها عالم حتى يكون مصداقاً للحديث غير مالك بن انس .

فلابد لنا أن نتكلم عن صحة الحديث وعن انطباقه على مالك دون غيره .

أخرج الترمذي بطريق عن أبي هريرة مرفوعاً : يوشك أن يضرب الناس اكباد الابل فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة . وجعلوا المراد به مالك ابن أنس دون غيره . قال ابن ابي الحوت في اسنى المطالب : خبر (ابي حنيفة سراج امتي) موضوع باطل ؛ ولم يرد في أحد من الأئمة نص لا صحيح ولا ضعيف كخبر : عالم قريش يملأ طباق الارض علماً ، وحمل على الشافعي ، وكذا خبر : يكاد يضرب الناس اكباد الابل ... الحديث . سمعته من المالكية ولم أره ، وحمل على مالك ويظهر عليه التكلف ، ولا حاجة بنا الى نقل الاقوال

في تفنيده ، ومع التسليم لصحة الحديث ، فمن البعيد حمله على مالك بن انس .
قال الخطيب البغدادي عند ذكر هذا الحديث : قال أبو موسى الانصاري : قلت لسفيان :إن ابن جريج يقول نرى انه مالك ، فقال سفيان : إنما العالم من يخشى الله . وقد نقل عن ابن عيينة : أنه المراد به عبدالعزيز العمري .

ومع هذا فان الحديث لا يخلو من خدشة في السند إن لم نقل فى الواسطة الاولى ، فان أبا الزبير وهو أحد رواة هذا الحديث ، قد تكلموا فيه وطعنوا عليه . وإذا أردنا أن نسلم لصحة هذا الحديث فان انطباقه على مالك بعيد جداً ودونه خرط القتاد ، فالمدينة المنورة قد ضمت علماء الاسلام الذين كانوا أعلى درجة من مالك وأرفع منزلة منه ، ولو راق للسلطة غير مالك لحملوه عليه ولكنهم أرادوا ذلك ، والناس تبعاً لما أرادوا .

وإن فى المدينة من العلماء فى ذلك العهد قوم هم شيوخ مالك ، وهم أعلم منه ، منهم — عبدالعزيز العمري .

وزيد بن أسلم المتوفى سنة ١٣٦ وعنه أخذ مالك .

وابو حازم سلمة بن دينار المتوفى سنة ١٣٥ وهو من شيوخ مالك .

وصفوان بن سليم المتوفى سنة ١٣٢ وهو من شيوخ مالك .

وعبدالرحمن بن ابي الزناد المتوفى سنة ١٧٤ وهو من شيوخ مالك .

وعبدالله بن ذكوان المتوفى سنة ١٣١ » » » » »

وربيعة الرأي المتوفى سنة ١٣٦ وهو من شيوخ مالك .

ويحيى بن سعيد بن قيس المتوفى سنة ١٤٣ وهو من شيوخ مالك .

وابو الحارث محمد بن عبدالرحمن المتوفى سنة ١٦٠ ، كان أفضل من مالك وكان يشبه سعيد بن المسيب .

ومحمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤ ، وهو من شيوخ مالك .

وغيرهم من علماء المدينة ممن لم يتعلق غرض السلطة فى معارضتهم ، ولم تقف أمامهم على ربوة العداء والخصومة ، على أن المسألة لم تكن مسألة علم وعدمه ، بل حظوظ ودعاية كما يقول ربيعة الرأي وهو استاذه ومعلمه . قال ابو بكر عبدالله الصنعاني : اتينا مالك بن انس فحدثنا عن ربيعة الرأي فكنا نستزيده ، فقال لنا ذات يوم : ما تصنعون بربيعة وهو نائم فى ذاك الطاق ؟ فاتينا ربيعة فقلنا : كيف يحظى بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك ؟ فقال : أما علمتم ان مثقالا من دولة خير من حملي علم (١) وذلك ان الدولة رفعته بعد غضبها عليه ، ولذلك نرى مبادلة العواطف بين المنصور ومالك بن انس .

فكان المنصور يقول لمالك : انت والله أعقل الناس وأعلم لان بقيت لاكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولابعثن به الى الآفاق فاحملهم عليه . وهذا غاية فى التعظيم والاجلال وأقوى عامل لرفع مالك وعلو منزلته وكان مالك يقول: وجدت المنصور أعلم بكتاب الله وسنة رسوله وآثار من مضى .

وستأتي أخبار مالك مع المنصور .

وبالجملة فان هذا الحديث لا ينطبق على مالك ولذا لم يعتن به اكثر من كتب عن مالك ، ولكن المالكية جعلوه دليلا لهم على لزوم الأخذ عن مالك وهو كما ترى يبني على الظنون والتكهن ، وهذا لا يجدي ، ولان صح الحديث فلا مصداق له سوى حملة العلم واعلام الامة وورثة الرسول الأعظم ، فهم أئمة الهدى ، وان لهم فى صحيح الآثار وأصدق الأخبار عن الصادق الامين كفاية عن التمحل والتكلف بامثال هذا ونحوه .

(١) طبقات الفقهاء لابن اسحاق ص ٤٢ .

امين زمانه :

ليس من الغريب أن تصل يد الوضع والانتحال الى ارتكاب ما لا يقبله العقل ولا يقره الوجدان والتتبع ، ولا يتسق مع الواقع ، وقد ورد ذلك في منقبة لمالك ، هي بعيدة كل البعد عن الصحة ، ولا يمكن قبولها بالمرة .

وذلك أنهم ادعوا أن الامام الصادق أوصى الى مالك عند وفاته ، واليك نص هذا الافتعال :

روى الشيخ عيسى بن مسعود الزاوي بلا سند ومستند ، في كتاب مناقب مالك قال (١) :

دخل على الامام الصادق قوم من أهل الكوفة في مرضه الذي توفي فيه ، فسألوه أن ينصب لهم رجلاً يرجعون اليه في أمر دينهم فقال :

عليكم بقول أهل المدينة فانها تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد ، عليكم بآثار من مضى ، فاني أعلمكم إني متبع غير مبتدع ، عليكم بفقه أهل الحجاز عليكم بالميمون المبارك في الاسلام المتبع آثار رسول الله ، فقد امتحنته فوجدته فقيهاً فاضلا متبعاً مريداً لا يميل به الهوى ، ولا تزدريه الحاجة ، ولا يروي إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول الله (ص) فان اتبعتموه أخذتم بحظكم من الاسلام ، وان خالفتموه ضللتم وهلكتم ، فانه قد أخذ عني كلما يحتاج اليه فلا يميل بكم الهوى فتهلكوا ، أي احذركم عذاب الله يوم القيامة (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من اتى الله بقلب سليم) ، احذركم فقد ارشدتكم الى رجل نصبته لكم فانه امين مولود في زمانه . قالوا من هو بيّنه لنا ؟ قال : (ذلك مالك ابن انس) عليكم بقول مالك .

---

(١) انظر مناقب مالك ص ١٠ .

هكذا قال الزاوي ، وهكذا نقل . ولا أقول انه هو الذي وضعها أو افتعلها ولكنه ناقل عن غيره ، ونحن لا ننكر أثر الخلافات التي حصلت بين الطوائف ، ووجود قوة عاملة على ايجاد الخلاف وايقاد نار الفرقة ، فاصبح كل يذهب لتأييد مذهبه بشتى الوسائل والاجتهاد في تحصيل ما ينال به الظفر على خصمه ، وأي ظفر أعظم من الحصول على شهادة أعظم شخصية علمية كان مالك يتشرف باستماع حديثه ويغتنم فرصة الحضور عنده ، ويتلقى تعاليمه في مدرسته كما مر بيانه . تلك هي شخصية الامام الصادق الذي ترأس أعظم مدرسة اسلامية شهدها التشريع الاسلامي ، لولا عوامل السياسة التي وحدت جهودها في معارضته ، ولم تنل النجاح المطلوب ، وبقيت آثاره مفخرة الدهر وحديث الاجيال ، فكانت أقواله تؤخذ بيد القبول والاعتبار ، فقوله الفصل وحكمه العدل . لذلك نرى كثيراً من الأقوال تنسب اليه طلباً لتأييد رأي أو ثبوت حكم ، وقد حققها المنقبون من متبعي آثاره والذين يرجعون اليه في أخذ الأحكام الشرعية .

ومن هذا القبيل تلك الافتعالات التي انتحلها اصحاب المذاهب ، وقد سبق للحنفية مثل ذلك في مدح ابي حنيفة كما مر بيانه (*) وهذه المنقبة التي ذكرها الزاوي من ذلك النمط . ويمكنك ان تقف على سيرة الامام مالك لتعرف ابتعاده عن الصادق في آخر عهده لانحيازه لجانب السلطة ، مما لا يتفق مع آراء الامام الصادق وسيرته التي سار عليها مدة حياته .

ولا حاجة لنا في اطالة الوقوف عند مناقب مالك ، واعطائها زمناً من البحث كقولهم مكتوب على فخذ مالك بقلم القدرة : مالك حجة الله في ارضه ، وقولهم

(*) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٣٠١ — ٣٠٤ تحت عنوان غياث الكل ملهوف وهي رواية ابي البختري رئيس القضاة وشيخ الكذابين في عصره

في ورعه إنه لا يدخل الخلاء إلا في كل ثلاثة ايام مرة ، ويقول : استحييت من كثرة دخولي للخلاء .

وهذا امر لا دخل له تحت قدرة الانسان وسلطته ، إذ هو من الامور القهرية على البشر ، ولو تأتى لكل احد لفعل ، ولكن شذوذ الآراء يثبت شذوذ الطبيعة ، كما ادعوا انه القى كتابه الموطأ في الماء عندما اتهم نفسه فيه فالقاه في الماء وقال : ان ابتل فلا حاجة لي به فلم يبتل منه شيء ، الى غير ذلك من الخرافات والاقوال الفارغة التي تدل بنفسها على نفسها بالكذب .

المنام

ما اكثر وضع المنامات لتأييد رأي ، أو رفعة شخص ، او حط كرامة من آخر ، انها دعايات كما قلنا وافتراءآت كما ذكرنا ، اتخذها القصاصون ليسيطروا على عقول السذج من الناس واستعملها كثير ممن كتب في اكثر الشخصيات ، حتى اتخذوا تلك الخرافات وهي اكثر من أن تحصى .

وقد وضع المالكية منامات فى تأييد مذهب مالك ، وعلو شأنه نذكر البعض منها :

قال العدوي : لما مات شيخنا شيخ الاسلام اللقاني رآه بعض الصالحين في المنام فقال : ما صنع الله بك ؟ فقال : لما اجلسني الملكان فى القبر يسألاني أتاني الامام مالك فقال : مثل هذا يحتاج الى سؤال في ايمانه ؟ تنحيا عنه ، فتنحيا عني (١) .

ومنها : ان النبي (ص) هو الذي سمى كتاب مالك بالموطأ وانه سئل

---

(١) مشارق الانوار للعدوى ص ٢٨٨

صلى الله عليه وآله في المنام : ان مالك والليث يختلفان في المسألة فايهما اعلم ؟ فقال : مالك وارث جدي يعني ابراهيم عليه السلام (١) ، وانه سئل (ص) مرة اخرى في المنام : من نسأل بعدك يا رسول الله ؟ فقال : مالك بن أنس. كما وضع اهل الاندلس في تأييد مذهبه وتشجيع عالمهم سحنون وهو ناشر مذهب مالك في الاندلس : ان القيسي رأى النبي (ص) يمشي في طريق وابو بكر خلفه ، وعمر خلف ابي بكر ، ومالك بن أنس خلف عمر ، وسحنون خلف مالك . وفي هذا اشارة للاتباع والاقتداء (٢).

وكثير من هذا النمط . ولا حاجة الى ذكره ، ولا اعتبار باثباته أو نفيه. وإنما المعتبر معرفة شخصيته من قبل معاصريه ، ومن هم أدرى الناس به ، فان لاقوالهم تمام الأثر في التعرف عليه ، فلننظر الواقع في مرآة الماضي ، لان هذه الامور المستحدثة إنما هي وليدة عصور متأخرة لا نستطيع منها استخلاص صورة متناسقة ، لانها نتيجة جدل وخصام واثارة فتن وتطاحن بين المذاهب . قال ابوعمر : قد الف الناس في فضائل مالك واكثروا ، واتوا بما لا فضيلة في بعضه حشوا بها كتبهم .

اقوال العلماء :

وهنا نقف بين طائفتين من الاقوال المأثورة عن علماء عصر مالك ، فبعضها من نسق ما ذكرناه ، وهي كثيرة مثبتة ، والبعض الآخر لم يكن بدرجة من الحط بكرامته وانتقاصه ، وإنما هي مؤاخذاة علمية وأقوال صريحه . وآراء حرة . واليك منها :

(١) مناقب مالك الزاوي ص ١٨ .
(٢) انظر هذه الاطياف في مناقب مالك الزاوي ص ١٧ — ١٨ وغيرها.

قال الشافعي : الليث أفقه من مالك ، إلا أن أصحابه لم يقوموا به (١)

وقال سعيد بن ايوب : لو أن الليث ومالكاً اجتمعا ، لكان مالك عند الليث ابكم ، ولباع الليث مالكا فيمن يريد (٢) .

وسأل علي بن المديني يحيي بن سعيد : أيما أحب اليك رأي مالك أو رأي سفيان ؟ قال : رأي سفيان لا يشك في هذا ،

وقال : سفيان فوق مالك في كل شيء (٣) .

وقال يحيي بن معين : سمعت يحيي بن معين يقول : سفيان احب اليَّ من مالك في كل شيء (٤) .

وقال سفيان الثوري : ليس له حفظ . يعني مالكا .

وقال ابن عبد البر : تكلم ابن ذويب فى مالك بن أنس بكلام فيه جفاء وخشونة كرهت ذكرها (٥) .

وتكلم في مالك ابراهيم بن سعد وكان يدعو عليه ، وكذلك تكلم فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وابن ابي يحيي ، ومحمد بن اسحاق الواقدى ، وابن ابي الزناد ، وعابوا أشياء من مذهبه .

وقال سلمة بن سليمان لابن المبارك : وضعت شيئاً فى رأي ابي حنيفة ، ولم تضع فى رأي مالك ؟ قال : لم اره علماً (٦) .

وقال ابن عبد البر — فى مالك — إنهم عابوا اشياء من مذهبه .

---

(١) الرحمة الغيثية لابن حجر ص ٦ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٦٤ .
(٤) نفس المصدر
(٥) جامع فضائل العلم ج ٢ س ١٥٨ .
(٦) نفس المصدر ص ١٥٧

وعن عبد الله بن إدريس ، قال قدم علينا محمد بن اسحاق ، فذكرنا له شيئاً عن مالك . فقال : هاتوا علمه ، فانا بيطاره .

وعابه قوم في إنكاره المسح على الخفين فى الحضر والسفر ، وفى كلامه في علي وعثمان (*) .

وقال يحيي بن صالح : قال لي ابن اكثم : قد رأيت مالكا وسمعت منه ورافقت محمد بن الحسن ، فأيهما كان افقه ؟ فقلت : محمد بن الحسن – فيما يأخذه لنفسه – أفقه من مالك (١) .

وقال أبو محمد بن أبي حاتم يقول : عن أبي زرعة عن يحيي بن بكير أنه قال : الليث أفقه من مالك ، إلا أنه كانت الحظوة لمالك (٢) .

وفى رسالة الليث بن سعد التي بعث بها الى مالك يناقشه فيها – في بعض آرائه – مناقشة قوية ، ويرد عليه ، فيقول فى بعضها :

ومن ذلك إنك تذكر أن النبي « ص » لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ، ومنعه الفرس الثالث . والامة كلهم على هذا الحديث : اهل الشام ، وأهل مصر ، واهل العراق ، واهل أفريقية لا يختلف فيه اثنان – وان كنت سمعته من رجل مرضي – أن تخالف الامة أجمعين .

وقال أحمد بن حنبل : كان ابن ابي ذويب يشبه سعيد بن المسيب ، وكان أفضل من مالك ، إلا أن مالكا أشد تنقية للرجال منه (٣) .

(*) سيأتي بيان ذلك

(١) الخطيب ج ٢ س ١٧٥

(٢) الرحمة الغيثية

(٣) تذكرة الحفاظ ج ١ س ١٧٦

وقال أيضاً : هو أروع وأقوم بالحق — يعني ابن ابي ذويب — من مالك ، دخل على المنصور فلم يهبه ان قال له الحق : وقال الظلم يبابك فاش ، وابو جعفر ابو جعفر — يعني في قوته وجبروته واشتداد سلطانه وعظمته وبطشه .

ونقف عند هذا الحد من استعراض آراء العلماء وأقوالهم في مالك ، مما تدل على عدم امتيازه بموهبة يصبح بها أهلاً للمرجعية دون غيره . ولا حاجة بنا إلى غربلة الأقوال الاخر ومناقشتها . وإنما ذكرنا هذا كانموذج ومقدمة لما نريد أن نذكره في الموازنة فيما بعد عند انتهائنا من التعرف على شخصيات أئمة المذاهب

مع الخلفاء والولاة

أدرك مالك بن أنس من العهد الاموي أربعين سنة ، ومن العهد العباسي ستاً وأربعين سنة ، لان ولادته سنة ٩٣ ووفاته سنة ١٧٩ على اختلاف الاقوال فى ذلك ، وبهذا فقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، وقد كانت ولادة مالك في عهد الوليد بن عبد الملك .

ولم نعرف عن نشأته الاولى شيئاً ، حتى نتكلم عن حياته فى العهد الأموي ، لان مالكا لم يكن من البرزين في ذلك العصر ، فيسجل التاريخ قضاياه في العهد الاموي ، ولم يكن لبيته نشاط سياسي ولا علمي حتى يكون معرضا لأخطار الدولة ، وإنما يأتي الحديث عنه في العهد العباسي الذي يبتدىء من سنة ١٣٣ ، وهو تاريخ سقوط الدولة الاموية وانهيارها ، كما ان عهد ابي العباس السفاح خال عن ذكره وانما يبتدىء حديثه من خلافة المنصور .

ولم يكن لمالك بن انس شهرة الا بعد اشتداد الخلاف بين أهل الرأي ، وأهل الحديث ، وبعد وقوعه في المحنة . والشيء المهم ـ الذي يجب أن يلاحظ ـ هو تطور حياة مالك وانتقاله من دور الغضب عليه ـ من قبل الدولة ـ إلى دور الرضا عنه ، ومن عهد المحنة والشدة الى عهد التبجيل والرفاهة . وقد اختلفت الاقوال في سبب محنته وضربه بالسياط .

فمن قائل : إن مالكا كان يجاهر بمخالفة ابن عباس فى جواز نكاح المتعة ، ويقول : إنه حرام . ويروون أنه حمل الى بغداد وسئل عن نكاح المتعة ، فقال : هو حرام ، فقيل له في قول ابن عباس فيها ، فقال : كلام

غيره فيها اوفق لكتاب الله ، وأصر على القول بتحريمها ، فطيف به على ثور مشوَّهاً ، فكان يرفع القذر عن وجهه ، ويقول : يا أهل بغداد ! أنا مالك ابن انس فعل بي ما ترون لاقول بجواز المتعة (١) .

وهذا بعيد عن الواقع ، لان ضرب مالك بالسياط أو محنته ـ كما يقولون ـ كانت في المدينة لا في بغداد ، ولئن كان سبب محنته قوله بجواز المتعة ـ الامر الذي اوجب الغضب عليه من الدولة ـ فهل أصرَّ مالك على رأيه فيها بعد ؟ ووافقته الدولة ، وعرفت خطأها ، فقربته ؟ أم أنه وافق رأيها وتنازل عن اصراره وترك ما وافق كتاب الله لما وافق آراءهم ؟ فهذا امر يبعث على الاستغراب . ولعلهم أرادوا اتساع دائرة ذكره بتعدد صورها .

ومنها ـ ما يذكره بعضهم : أن السبب هو عدم رضا بعض الطالبيين عنه ، لتفضيله عثمان على علي (ع) . وهذا بعيد كالاول وان كان يذهب مالك لذلك .

والصحيح ـ في ذلك وان اختلفت الاقوال فيه ـ أن سبب ضربه بالسياط هو فتواه بما لا يوافق غرض السلطة بأي صورة كان وبأي سبب حصل ، وذلك في زمن ولاية جعفر بن سليمان سنة ١٤٦ ، فانه جرد مالكا ومده وضربه بالسياط حتى انخلعت كتفاه ، وقيل : إن المنصور قد نهى مالكا عن الحديث (ليس على مستكره طلاق) ثم دس اليه من يسأله عنه ، فحدث به مالك ، فضرب بالسياط (٢) حتى انخلعت كتفه . قال ابراهيم بن حماد : كنت انظر الى مالك إذ اقيم من مجلسه حمل بيده اليمنى او بيده اليسرى بالاخرى .

كما أن مالك قد تظاهر بالدعوى لمحمد بن عبدالله ذي النفس الزكية وبالجملة

(١) الشذرات ج ١ ص ٢٩٠ .
(٢) انظر الانتقاء لابن عبد البر ص ٤٣ — ٤٤ في اسباب ذلك والاختلاف فيه .

فان مالك الى حدود سنة ١٤٦ هو فى دوره الاول ، ثم انتقل بعد ذلك الى دور الجفاوة والتجلة .

مع المنصور :

لمالك مع المنصور أخبار كثيرة : (منها) ـ قبل اتصاله الوثيق به . و (منها) ـ بعد ذلك . ونأتي بالبعض من الطرفين في ذلك :

دخل عبد الله بن طاووس اليماني (١) على المنصور ، ومعه مالك بن انس ، فقال المنصور : حدثني عن ابيك . قال : حدثني ابي : ان اشد الناس عذابا ـ يوم القيامة ـ رجل أشركه الله في سلطانه ، فادخل عليه الجور فى حكمه . فأمسك المنصور ، قال مالك : فضممت ثيابي خوفاً من أن يصيبني دمه . ثم قال المنصور : ناولني الدواة . فلم يفعل ، فقال : لم لا تناولني الدواة ؟ فقال : اخاف ان تكتب بها معصية . قال المنصور : قوما عني .

قال عبد الله : ذاك ما كنا نبغيـه . قال : مالك فما زلت أعرف فضله (٢) .

ودخل مالك هو وابن ابي ذؤيب وابن سمعان على المنصور عندما ولي الخلافة ، وكان منظر المجلس يملأ القلب رعباً ، كما يحـدث مالك ويصف ما دخله من الخوف عندما نظر الى الجلاوزة يحملون السلاح .

فالقى المنصور سؤالاً مشتركا ، فقال بعد كلام طويل : أي الرجال

---

(١) عبد الله بن طاووس اليماني ابو محمد اليماني روى عن ابيه وعكرمة بن خالد ، وروى عنه خلق كثير ، وهو من رجال الصحاح . وقد اخطأوا فى تعيين سنة وفاته فى سنة ١٣٣ وبهذا لا تصح هذه الحكاية . والصحيح أنه متأخر عن هذا الوقت .

(٢) الشذرات ج ٢ ص ١٨٨ .

انا عندكم ؟ أمن أئمة العدل أم من أئمة الجور ؟ قال مالك بن انس : فقلت : يا امير المؤمنين أنا متوسل إليك بالله تعالى واتشفع اليك بمحمد صلى الله عليه وسلم وبقرابتك منه الا ما اعفيتني من الكلام في هذا . قال : قد اعفاك امير المؤمنين من هذا ، ثم التفت الى ابن سمعان ، فقال له : أيها القاضي : ناشدتك الله تعالى أي الرجال انا عندك ؟ فقال ابن سمعان : انت والله خير الرجال ، والله يا امير المؤمنين تحج بيت الله الحرام وتجاهد العدو ، وتؤمن السبل ويأمن الضعيف بك أن يأكله القوي ، وبك قوام الدين ، فانت خير الرجال ، واعدل الامة .

ثم التفت الى ابن ابي ذؤيب (١) فقال له : ناشدتك الله أي الرجال انا عندك ؟ قال : انت والله عندي شر الرجال ، استأثرت بمال الله ورسوله ، وسهم ذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، واهلكت الضعيف واتعبت القوي ، وامسكت اموالهم ، فما حجتك غداً بين يدي الله ؟ فقال ابو جعفر : ويحك ماتقول انظر ما أمامك ! ! قال : نعم رأيت اسيافاً وانما هو الموت ، ولا بد منه عاجله خير من آجله (٢) . وخرج آمناً لم ينله شيء . اما مالك بقي عند المنصور . ويا ليت مالكاً أجاب المنصور بجواب وسطاً لا كابن سمعان الذي خالف الحق ولا يستبعد منه ، فهو يعيش على بساط الدولة ويشغل وظيفة القضاء ، ويتمنى بقاء المنصور .

(١) هو ابو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن ابي ذئب او ذويب العامري المدني المتوفى سنة ١٥٩ . قال الواقدي ولد سنة ٨٠ ، وكان من اورع الناس وافضلهم ، وقيل : إن المهدي حج فدخل مسجد النبي فقام الناس الا ابن أبي ذئب ، فقيل له : قم فهذا امير المؤمنين ، فقال : انما يقوم الناس لرب العالمين ، فقال المهدي : دعوه فقد قامت كل شعرة على بدني .

(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٥٣ .

ويعـــد أيام الشهور ليوم تعـــداد النقود

ولا كجواب ابن ابي ذئب الذي هو بكمال الصراحة والجرأة الأدبية التي فقدها مالك . ولم يحدثنا التاريخ بموقف مشهود له تتجلى به شجاعتـــه واقدامه ، كغيره من العلماء الذين واجهوا المنصور في أحرج المواقف ، كعبدالله ابن مرزوق ،عندما التقى بأبي جعفر في الطواف ، وقد تنحى الناس عنه . فقال له عبد الله : من جعلك أحق بهذا البيت من الناس تحول بينه وبينهم وتنحيهم منه ؟ فنظر أبو جعفر في وجهه فعرفه . فقال : يا عبد الله بن مرزوق !؟ من جرأك علي هذا ، ومن أقدمك عليه ؟ فقال عبد الله : وما تصنع بي ؟ أبيدك ضرر أو نفع ؟ والله ما أخاف ضرك ولا أرجو نفعك ، حتى يكون الله عز وجل يأذن لك فيه ، فقال المنصور : إنك أحللت بنفسك ، واهلكتها . فقال عبد الله : اللهم إن كان بيد أبي جعفر ضري ، فلا تدع من الضر شيئاً إلا أنزلته علي ، وان كان بيده منفعتي ، فاقطع عني كل منفعة منه ، أنت يارب بيدك كل شيء ، وأنت مليك كل شيء . فامر به أبو جعفر فحمله الى بغداد ، فسجنه بها ثم أطلقه (١) .

هكذا كان موقف ذي الصراحة والجرأة الأدبية . أما مالك فلم يحدثنا التاريخ أنه أقدم على شيء من ذلك مع المنصور . ومع هذا فقد وصفوه : بأنه كان يدخل على الامراء والخلفاء ويعظهم ويرشدهم ويدعوهم الى الخير ، وانه كان يحث العلمـاء على ارشاد الخلفاء والامراء ، وقول الحق لهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

نعم يمـكن أن ذلك كان يصدر منـه مع امراء المدينة بعدما حظي باقبال المنصور عليه وقربه منه ، فقد نقل أنه كان يطلب من مالك أن يبدي رأيه

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٥٦ .

فى ولاته على الحجاز ، وقال له في ذلك :

إن رابك ريب من عامل المدينة ، أو عامل مكة ، أو أحد من عمال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك أو سوء أو شر في الرعية ، فاكتب إلي بذلك ، أنزل بهم ما يستحقون .

ولذلك نرى أن الولاة كانوا يحترمونه غاية الاحترام ، ويخشونه كخشيتهم من المنصور ، فعظمت بذلك منزلة مالك ، وتقرب الناس اليه ، وازدحموا على بابه كازدحامهم على أبواب الامراء .

وهذا هو السبب فى هيبة مالك في النفوس ، لأن الحكام كانوا يهابونه ، حتى أنهم يحسون بالصغر في حضرته ، كما حدث الشافعي عندما قدم المدينة يحمل كتابا لواليها من والي مكة ، ويطلب منه أن يوصله الى مالك ، فقال الوالي : يافتى إن مشيي من جوف المدينة الى جوف مكة حافياً راجلا أهون علي من المشي الى باب مالك ، فلست أرى الذلة حتى اقف على باب داره (١) فاذا كان الولاة هذه حالتهم معه ، فالناس اولى بذلك . وكيف لا يهابه الولاة وبيده أمرهم من عزل وتعيين ؟ هذا هو سر هيبة مالك مرجعها لقوة المنصور التنفيذية ، لا لقوة مالك الروحية ، فانا نجد كثيراً من العلماء لم يعتن الولاة بامرهم ولم يهابوا منزلتهم .

ولكن مالكا قد ساعده الحظ ، فاقتضت سياسة المنصور اختياره دون غيره ، وأعلن للملأ انه اعلم من على وجه الارض ، ومن ذا يتأخر عن قبول هذا الاعلان ؟ فلا يقول : إن مالك حجة الله فى ارضه ، وهو اعلم المسلمين .

(١) انظر معجم الادباء ج ١٧ ص ٢٧٥

اتصاله به :

والذي يظهر ان اتصال مالك بالمنصور وتقريبه اياه كان في سنة ١٦٢ على ما يرويه ابن قتيبة : أن المنصور كتب الى مالك أن وافِ الموسم في العام القابل ان شاء الله ، فاني خارج الى الموسم . فلما حج المنصور فى سنة ١٦٣ ودخل عليه مالك ، فاعتذر المنصور اليه مما ناله من الضرب والاهانة وقال له بعد كلام طويل : ولقد امرت ان يؤتى بعدو الله من المدينة على قتب — يعني جعفر بن سليمان الذي ضرب مالك — وامرت بضيق مجلسه ، والمبالغة فى امتهانه ، ولابد ان انزل فيه من العقوبة اضعاف ما نالك منه . فقال مالك : عافى الله امير المؤمنين ، واكرم مثواه ، قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله (ص) ثم منك . وبهذا يتضح ان هذا الاجتماع هو اول اجتماع بعد ضرب مالك واهانته ، ثم امره ان يضع كتابا يحمل الناس عليه ، ويبثه فى الامصار ويأمر الناس بالعمل به ، وان لا يقضي بسواه . فقال مالك : إن أهل العراق لايرضون علمنا ، ولا يرون فى علمهم رأينا ، فقال ابو جعفر : يحملون عليه ونضرب عليه هاماتهم بالسيف وتقطع طي ظهورهم بالسياط ، فعجل بذلك وسيأتي المهدي فى العام المقبل . وقد فرغت من ذلك .

ثم أمر له بالف دينار عيناً ذهباً وكسوة عظيمة ، ثم أمر لابنه بالف دينار(١)

وطلب المنصور من مالك أن يذهب معه الى مدينة السلام ، وقال له : اذهب معي فلا أقدم عليك أحداً ، فقال مالك : ان تكن عزيمة من أمير المؤمنين — يعني شيئاً واجباً — فلا سبيل الى مخالفته ، وان تكن غير ذلك ، فقد قال

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٩٥

رسول الله (ص) : والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، فقال له المنصور : فلا أحمل عليك شيئاً تكرهه ، ثم أجازه بثلاث صرر : كل صرة الف دينار ، فلما خرج مالك ، قال ولد المنصور لأبيه : أتدني رجلا من رعيتك حتى يجلس منك هذا المجلس ؟ فقال له المنصور : ماعلى وجه الارض اليوم رجل يستحي منه إلا مالك وسفيان الثوري (١) .

وقال المنصور لمالك : يا أبا عبد الله ! ذهب الناس ولم يبق غيري وغيرك، ودخل مالك بن أنس على المنصور،فقال : يامالك،مالي أراك تعتمد على قول ابن عمر دون اصحاب رسول الله (ص) ؟ فقال مالك : يا أمير المؤمنين إنه آخر من بقي عندنا من اصحاب رسول الله (ص) فاحتاج الناس اليه ، فسألوه وتمسكوا بقوله . فقال : يامالك عليك بما تعرف إنه الحق عندك ، ولا تقلدن علياً وابن عباس .

ويمكن ان تكون كلمة ابن عباس من الزوائد التي الحقت بالعبارة لتبرير موقف المنصور عن النهي عن تقليد علي فى الاحكام الشرعية، لانه بعد أن كان علم علي مفخرة لبني العباس ، ويجاهرون بفضله وبعلمه ، أصبح عند اشتداد ملكهم وقوة سلطانهم لا يروقهم أن يروي أحد عن علي وأهل بيته ، وقد شاركوا الامويين في هذه النزعة ، بل بصورة أشد وأعظم في المؤاخذة .

وما من شك في أن المنصور اتجه لمالك بتمام العناية ، واشتدت بينهم الروابط والصلات ، تلك الروابط التي اوجدت في مالك شخصية له حق رعاية حكام الحجاز وولاته مما جعلهم يخشون مخالفته ، ويتهيبون مقامه ، وبذاك اتجهت الانظار اليه وتكوّنت شخصيته ، وعلت منزلته دون غيره من علماء دار الهجرة ، وغيرهم من علماء المسلمين .

---

(١) مناقب مالك للزاوى ص ٢٥

ونحن لا نريد أن نظلم مالكاً إن قلنا : إن من الظلم تقديمه على علماء المدينة ، وجعل الفتوى منوطة به دون غيره ، فما هي المؤهلات التي جعلته أن يكون كذلك ؟ نعم لا شيء هناك إلا ان سياسة الدولة اقتضت ذلك . فقد كان مالك لا يعرف عن نفسه ما عرفته به الدولة بانه أعلم منْ على وجه الارض .

حدث مالك قال : قال لي ابو جعفر يوماً : أعلى ظهرها أحد أعلم منك ؟ قلت: بلى . قال : فسمهم لي . قلت : لا أحفظ أسماءهم ، قال ابو جعفر : قد طلبت هذا الشأن ـ أي العلم ـ فى زمن بني امية وقد عرفته .

وبهذا رأينا مالكاً يعترف بوجود من هو اعلم منه ، ولكن لا يصرح باسمه ، لعلمه بما وراء ذلك ، لانه يعرف المنصور وسياسته ، كما ان المنصور نفسه اعترف بوجود من هو اعلم من مالك على ظهر الارض ، ولكن لا يستطيع ان يشيد بذكره ويوجه الانظار اليه .

وقد كان مالك يُسأل عن كثير من المسائل الشرعية ، فكان اكثر جوابه بلا ادري .

وقد قصده رجل من العراق باربعين مسألة ، فاجاب عن خمس وثلاثين بلا أدري . وقد أنكر مالك على اهل مصر بانهم عرفوا البيوع وهو لا يعرفها ، إذ كانوا يرجعون اليه ، على أننا نجد فى علماء المالكية من يتعجب من قول لا أدري .

فهذا محمد بن عبدالحكم المتوفى سنة ٢٦٨ كان يقول : أتعجب ممن يقول: لا أدري ، وله كتاب فى الرد على الشافعي فيما خالف الكتاب والسنة .

وقال عبد الرحمن بن المهدي : كنا عند مالك فجاءه رجل فسأله فقال : لا أحسن، فقال الرجل : وأي شيء أقول اذا رجعت الى بلادي ؟ قال تقول لهم :

قال مالك بن انس : لا أحسن .

والغرض أن مالكا نال حظاً وافراً في آخر دولة المنصور مما جعله يحاول أن يجمع الناس على علمه ، ومن يخالف تضرب عنقه .

وجاء من بعده المهدي ، فكانت منزلة مالك في دولته عظيمة . وقد أمره بأن يضع للناس كتباً يحملهم عليها . وكان يحترمه ويجله ويوصله بهدايا جزيلة وعطاء وافراً ، ويقرب مجلسه ، ويظهر للناس شأنه وعلو منزلته . وكان المهدي يطلب من مالك أن يزوده بوصاياه لينتفع بها .

فقال له مالك : أوصيك بتقوى الله وحده ، والعطف على أهل بلد رسول الله (ص) وجيرانه ، فانه بلغنا أن رسول الله (ص) قال : « المدينة مهجري ، وبها قبري ، وبها مبعثي ، وأهلها جيراني ، وحقيق على امتي حفظي فى جيراني ، فمن حفظهم كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة » .

وعلى اثر هـــذه الوصية أخرج المهدي عطاءً كثيراً ، وطاف بنفسه على دور المدينة ، ولما أراد الخروج ، دخل عليه مالك فقال له : أني محتفظ بوصيتك التي حدثتني بها .

ولما جاء دور الرشيد ، سار على تلك الخطة التي سار عليها آباؤه ، فاحتفظ بمكانة مالك ، وعظمه غاية التعظيم ، ولما قدم المدينة جاء الرشيد الى منزل مالك بنفسه ، فاجلسه مالك على منصته التي كان يجلس عليها للحديث ، ثم أراد مالك أن يظهر من الرشيد فيه الملأ اعظم من ذلك ، فقال له : يا أمير المؤمنين ما أدركت أهل بلدنا إلا وهم يحبون أن يتواضعوا لله . فنزل الرشيد عن المنصة وجلس بين يدي مالك ، تواضعاً لعلمه وانقياداً لقوله .

ويطول بنا الحديث اذا حاولنا أن نشبع الموضوع في علاقة مالك بالخلفاء

والولاة ، وأردنا ان نقيس حياته الاولى التي قضاها في خمول ، لبعده عن سلطان عصره ، مع حياته الثانية التي خطى بها الى ميدان الشهرة والتفوق على غيره ، حتى اصبح موضع عناية الدولة ، وكان المنصور يطلب منه مزاملته للحج ، ويسميه بركن الاسلام ، وينوط امر ولاته به ، والرشيد يأمر عامله بأن لا يقطع أمراً دون مالك ، فوقعت هيبته في النفوس ، وهابته تلامذته ، حتى انه ليدخل عليه الرجل الى مجلسه فيلقي السلام عليه ، فلا يرد عليه أحد إلا همهمة واشارة ، ويشيرون اليه الا يتكلم مهابة واجلالا ، ولا يستطيع احد ان يستفهمه أو يدنو منه ، وكان على رأسه سودان يأتمرون بأمره ، فاذا اشار اليهم باخراج أحد أخرجوه (١) .

وكان في مجلسه ضجاع ونمارق مطروحة يمنة ويسرة في سائر البيت لزائريه — الى غير ذلك — مما حدثتنا به كتب مناقبه ويجب ألا يغيب من بالنا مقاصد الدولة من وراء هذا الاتجاه .

اذاً فليس من الغريب أن تتسع أقوال المدح فيه ، وان يتقرب الناس اليه برؤيا النبي فهذا يأتي اليه ويقول له : كنت راقداً في الروضة فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله متوكئاً على ابي بكر وعمر فقلت: يارسول الله من اين اقبلت ؟ فقال مضيت الى مالك فاقمت له الصراط المستقيم (٢) .

ويقدم عليه آخر وهو جالس في المسجد . فيقول: ايكم مالك بن انس ؟ فقالوا : هـذا . فسلم عليه . فاعتنقه وقبله بين عينيه وضمه الى صدره وقال : رأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الموضع فقال : هاتوا مالكا

---

(١) انظر مناقب مالك للزاوي ، والانتقاء لابن عبد البر .

(٢) تزيين الممالك للسيوطي ص ٤٤ .

فأتي بك ترعدفرائصك فقال: ليس بك بأس ابا عبد الله وكناك . وقال: اجلس : وقال: افتح حجرك فملأه مسكا منثوراً . وقال: بثه في امتي . فبكى مالك طويلا وقال : الرؤيا تسر ولا تضر إن صدقت رؤياك . فهو هـــذا العلم الذي اودعني الله (١) .

ومن هذا ونحوه مما يتقرب به المتقربون ، أو يفتعله المغالون فيه ويجعلونه من دواعي أهليته ، بل مؤهلاته ، والسياسة من وراء ذلك .



---

(١) مناقب مالك للزاوى ص ١٧

مالك

شيوخه وتلامذته ، علمه ومكانته ، مذهبه وانتشاره

— ١ —

ازدهر عصر مالك برجال العلم ولمعت فيه اسماء رجال تحدث الناس عنهم لشهرتهم العلمية ومكانتهم فى المجتمع الاسلامى ، وأصبحت المدينة يؤمها طلاب العلم من مختلف الاقطار الاسلامية ، وامتازت بالتمسك بالحديث ، ومحاربة الرأي والقياس ، كما كانت صبغة الكوفة هي الميل الى الرأي والقياس ، وعظم بين البلدين انشقاق أدى الى خصومة وعداء ، خرج عن نطاق البحث العلمي إذ تعصب كل لبلده .

وكانت المدينة تزدهر بمدرسة الامام الصادق ، وقد تهافتت الوفود اليها ، عندما وجد الناس فرصة الاتصال بأهل البيت ، ورفع عراقيل المؤاخذة على ذلك ، وكانت مدرسة الامام الصادق متمسكة بالحديث ، لاتجعل للرأي والقياس دخل فى الاحكام الشرعية كما مر بيان ذلك .

وكان مالك بن أنس هو احد المنتمين لمدرسة الامام الصادق مدة من الزمن وعنه اخذ الحديث ، فالامام الصادق هو من اكبر شيوخ مالك بن انس ، كما مر بيانه وذلك قبل أن يناقض اهل البيت فى طريقته ويخالفهم فى منهجه .

وقد أخذ مالك أيضاً عن عدة شيوخ من علماء المدينة وغيرهم : منهم عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، وزيد بن اسلم ، وسعيد المقبري وابي حازم ،

وصفوان بن سليم ، وصالح بن كيسان ، واسماعيل بن ابي حكيم ، وحميد بن قيس المكي . وقد اختص مالك بالاخذ عن جماعة منهم ، ولازمهم ملازمة تامة : وهم ابن هرمز ، ونافع مولى ابن عمر ، وابن شهاب الزهري ، وربيعة بن عبدالرحمن المعروف بربيعة الرأي، وابو الزناد . فهؤلاء أخص مشايخ مالك ولابد من الاشارة الى كل واحد منهم .

ابن هرمز :

١ — وتطلق هذه الكنية (ابن هرمز) على رجلين ، أحدهما عبدالرحمن ابن هرمز ، ولقبه الأعرج وكنيته ابو داود ، وكان قارئاً محدثاً توفي سنة ١١٧ .

وثانيهما عبد الله بن يزيد بن هرمز وكنيته ابو بكر توفي سنة ١٤٨ .

اما الأول : فهو عبد الرحمن بن هرمز مولى بني هاشم ابو داود توفي سنة ١١٧ بالاسكندرية ، روى عن أبي هريرة ومعاوية وابي سعيد ، وعنه الزهري وابو الزبير ، وابو الزناد ، وروى له اصحاب الصحاح الستة .

وقد اختلف فيمن اختص مالك من هذين ، هل هو ابن هرمز المتقدم أم هذا ؟ وقد حقق ذلك بعض الباحثين انه الاول ، ولم يكن هو هذا ، ويمكن أن يكون هو الصحيح لأن ولادة مالك سنة ٩٨ على الاختلاف ، فيكون عمره عند وفاة استاذه ١٩ سنة ، وفي هذا الدور لا يمكن أن يوصف بالملازمة الشديدة له وكسب المواهب التامة منه على انه يمكن ان خروج ابن هرمز للاسكندرية متقدم ، فيكون عمر مالك أقل. اللهم إلا ان يكون بطريق المنقبة وانه ابن ١٩ أو ١٧ نال درجة العلم ، كما انهم ادعوا ان مالك عقدت له حلقة درس في المدينة وهو ابن ٢٣ سنة .

نافع :

٢ — نافع العدوي مولى عبد الله بن عمر المتوفى سنة ١١٧ ـ ١٢٠ .

روى عن مولاه عبد الله بن عمر ، وابي لبابة وابي هريرة وعائشة ، وعنه ابناه ، وابن جريج ومالك . وهو أحد حلقات السلسلة (الذهبية) كما يقولون إن أصح الاسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ، فهو شيخ مالك ، وعنه اخذ قضايا ابن عمر وفقهه ، ونافع من رجال الصحاح الستة .

الزهري :

٣ — ابن شهاب الزهري هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب المتوفى سنة ١٢٤ .

وكانت له منزلة عند خلفاء بني امية ، وولاه يزيد بن عبد الملك القضاء ، وكتب عمر بن عبد العزيز الى الآفاق : عليكم بابن شهاب فانكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه ، وقد روى مالك انه اول من دون أحاديث رسول الله (ص) بامر من عمر بن عبد العزيز . وهو أحد تلامذة الامام زين العابدين والامام الباقر عليهما السلام .

وقد كتب اليه الامام زين العابدين (ع) رسالة يعظه بها ويحذره اولئك الحكام الذين استمالوه وقربوه لاغراضهم، ونرى من الخير ذكر بعض تلك الرسالة الحكيمة الخالدة .

الرسالة :

كفانا الله وإياك من الفتن ، ورحمك من النار ، فقد اصبحت بحال ينبغي

لمن عرفك أن يرحمك ، فقـد اثقلتك نعم الله بما اصح من بدنك ، وأطال من عمرك . وقامت عليك حجج الله بما حملك من كتابه . وفقهك فيه من دينه ، وعرفك فيه من سنة نبيه . فانظر أي رجل تكون غداً اذا وقفت بين يدي الله فسألك عن نعمه عليك كيف رعيتها . . . ولا تحسبن الله قابلا منك بالتعذير ، ولا راضياً منك بالتقصير ، هيهات هيهات ليس كذلك ، اخذ على العلماء في كتابه إذ قال: « لتبيننه للناس ولا تكتمونه » واعلم ان ادنى ما كتمت وأخف ما احتملت ان آنست وحشة الظالم . وسهلت له طريق الغي بدنوك منه حين دنوت . واجابتك له حين دعيت . فما أخوفني بأثمك غداً مع الخونة . وأن تسئل عما اخذت باعانتك على ظلم الظلمة . انك اخذت ماليس لك ممن اعطاك . ودنوت ممن لم يرد على أحد حقاً ولم ترد باطلا حين أدناك ، وأحببت من حاد الله . أوليس بدعائه إياك حين دعاك جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم ، وجسراً يعبرون عليك الى بلاياهم ، وسلماً الى ضلالهم ، داعياً الى غيهم ، سالكا سبيلهم ، يدخلون بك الشك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهال اليهم ، فما أقل ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك ، وما أيسر ما عمروا لك فكيف ما خربوا عليك ، فانظر لنفسك فانه لا ينظر اليها غيرك ، وحاسبها حساب رجل مسئول ، وانظر كيف شكرك لمن غذاك فى نعمه صغيراً وكبيراً ، فما أخوفني عليك أن تكون كما قال الله تعالى فى كتابه : « فخلف من بعدهم خلف . . . الآية » الى آخر الرسالة الخالدة (١) .

ونكتفي بمواد هذه الرسالة القيمة عن زيادة فى البيان لتعريف شخصية ابن شهاب الزهري ، فقد أعطتنا الرسالة عنه صورة طبق الأصل ، وإن سياسة عدم التعاون مع الظلمة هي التي سار عليها اهل البيت واحداً بعد واحد وكان حرصهم

(١) انظر تحف العقول .

شديداً على حث الامـة والزامهم مقاطعة الظالمين وهجرهم ليتنبهوا لاخطائهم التي يرتكبونها فى سياستهم الجائرة ، وهم بحكم هذه القاعدة لابد وأن يكونوا مضطرين الى العدل وفي العدل ، سلامة البلاد وراحة العباد .

ابو الزناد :

عبد الله بن ذكوان مولى بني امية ابو الزناد المدني المتوفى سنة ١٢٠ ، روى عن ابن عمر مرسلا ، وعن الاعرج فاكثر ، قال الليث : رأيت ابا الزناد وخلفه ثلثمائة طالب ، وقد ولي بعض امور بني امية ، وكان من الموالي الذين رفعت الدولة الاموية شأنهم ، وقدمتهم على غيرهم ، وقد أخذ عنه مالك قليلا وكان اكثر اتصاله واخذه عن ابن هرمز والزهري .

ربيعة الرأى :

ربيعة بن عبدالرحمن بن فروخ ، ويكنى أباعثمان وهومن موالي آل المنكدر توفى بالانبار سنة ١٣٦ في مدينـــة الهاشمية ، تقدمت ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب .

وقـد أخذ مالك عن ربيعة وحضر عنده وهو صغير السن ، عندما وجهته امه لطلب العلم ، كما ان آراء ربيعة واضحة في فقه مالك .

تلامذته :

لقد بالغ كتاب المناقب بالكثرة لتلامذة مالك ، واضافوا اليهم من ليسوا منهم ، واخذوا يعدون من هم اكبر منه سناً ومن تقدم بهم الزمن عليه ، ويعدون احيانا اخرى من رواته شيوخه الذين تلقى عليهم وروى عنهم .

ولا غرابة أن يروي الشيخ عن تلميذه ، ولكن اذا كان لذلك حقيقة واقعة فلا غضاضة في قبولها ، وان كان لمجرد المبالغة في التقدير والتوثيق فليس من العلم قبوله ، بل يجب رده (١) .

ولقد ادعوا أن الزهري قد روى عنه ، فيذكر القاضي عياض : أن من التابعين الذين رووا عنه محمد بن مسلم الزهري . وقد نفى ذلك ابن عبد البر . كما قالوا إن ابا حنيفة من تلامذته لرواية اشهب انه قال : رأيت اباحنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي ابيه . وعلى أي حال فنحن نذكر كبار تلامذته وناشري علمه وفقهه .

١ - ابن وهب :

عبد الله بن وهب بن مسلم البربري نسباً القرشي ولاءً ابو محمد المصري المتوفى سنة ١٩٩ .

روى عن يونس بن يزيد ، واسامة الليثي ، ومالك ، والثوري ، رحل الى مالك سنة ١٤٨ ، ولم يزل في صحبته الى ان توفي مالك ، وكان أعلم اصحاب مالك ، إلا انه يروي عن الضعفاء ، وكان مالك يكرمه ويجله . وما أحد من تلامذة مالك إلا وزجره مالك، إلا ابن وهب، وقد رحل لمصر ونشر مذهب مالك هناك ، وفى المغرب أيضاً .

ابن القاسم :

٢ — عبد الرحمن بن القاسم ابو عبد الله العتكي ،ولاهم المتوفى سنة ١٩١

(١) محمد ابو زهرة فى حياة مالك ص ٢٢٩ .

روى عن مالك ، والليث وابن الماجشون ، ومسلم بن خالد ، وغيرهم . رحل الى مالك بعد ابن وهب ، ببضع عشرة سنة وطالت صحبته له ، واختص بعلم مالك دون غيره ، حتى كان أثبت أصحابه به ، وكانت له آراء يخالف بها شيخه مالك . قال ابن عبد البر : كان فقيهاً قد غلب عليه الرأي ، كما أنه خالف مالكا في ابتعاده عن السلطان وعدم قبول جوائزهم ، وكان يقول : ليس في قرب الولاة ولا في الدنو منهم خير .

أشهب :

٣ — أشهب بن عبد العزيز القيسي ابو عمرو العامري المتوفى سنة ٢٠٤ انتهت اليه الرياسة بمصر بعد ابن القاسم ، صحب مالكا ولازمه وتفقه عليه ، وله مدونة تسمى مدونة أشهب أو كتب أشب ، وكان يدعو على الشافعي ويتمنى موته ، وتوفي بعد الشافعي بايام .

عبد الله بن الحكم :

٤ — عبد الله بن الحكم بن الليث مولى عثمان بن عفان المتوفى سنة ٢١٠ واليه أفضت الرياسة بعد أشهب .

ابن الفرات :

٥ — أسد بن الفرات بن سنان المتوفى سنة ٢١٣ . أصله من خراسان ، وولد بحران من ديار بكر ، ورحل لمالك وسمع موطأه ، ثم رحل الى العراق فلقي ابا يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وأسد بن عمرو ، واصحاب ابي حنيفة ،

فتفقه بهم ، وسمع ابو يوسف منه موطأ مالك ، وتولى قضاء القيروان واقتصر في العمل على مذهب ابي حنيفة ، فانتشر بسببه مذهب ابي حنيفة هناك ، وله مدونة على مذهب مالك .

الليثي :

٦ — يحيي بن يحيي بن كثير الليثي المتوفى سنة ٢٣٤ ، كان أصله من البربر وأسلم جدهم (وسلاس) على يد يزيد بن عامر الليثي ، فهو من موالي الليثيين ، وسمع يحيي من مالك بن أنس وهو أحد رواة الموطأ ، وسمع من الليث بن سعد وغيره ، وتفقه باصحاب مالك كابن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم العتكي ، وانتهت اليه الرياسة في الاندلس ، وبه اشتهر مذهب مالك ، لمكانته من السلطان . قال ابن حزم :

مذهبان انتشرا فى بدء امرهما بالرياسة والسلطان : مذهب ابي حنيفة ، فانه لما ولي القضاء ابو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى أقصى عمل افريقية ، فكان لا يولي إلا اصحابه ، والمنتسبين لمذهبه ومذهب مالك عندنا بالاندلس ، فان يحيي بن يحيي كان مكيناً عند السلطان ، مقبول القول فى القضاة ، وكان لا يولى قاض في اقطار الاندلس إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا باصحابه ومن كان على مذهبه — والناس سراع الى الدنيا — فاقبلوا على مايرجون بلوغ اغراضهم به . (١)

حتى قيل : إنه لم يعط أحد من أهل الاندلس — منذ دخلها الاسلام — ما اعطي يحيي من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر . وقالوا : إنه كان مجاب

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٠ .

الدعوة وقبره يستسقى به بقرطبة (١) .

ابن الماجشون :

٧ — عبدالملك بن عبدالعزيز بن الماجشون مولى بني تيم المتوفى سنة ٢١٢، كان ابوه قريناً لمالك ، وهو الذي قيل انه كتب موطأ قبل مالك ، ودارت الفتوى على عبد الملك فى زمانه ، تفقه بابيه وبمالك ، قال يحي بن اكثم : عبد الملك بحر لا تكدره الدلاء ! وأثنى عليه ابن حبيب كثيراً ، وهو من أهل مذهبه ، وتفقه به خلق كثير : كاحمد بن المعذل وابن حبيب وسحنون ، وكان مولعاً بسماع الغناء .

هؤلاء عظماء أصحاب مالك وناشري مذهبه . ونسبتهم اليه نسبة المعلم من المتعلم . وله تلامذة آخرون ليس لهم مزيد أثر فى نشر مذهبه . وقد ذكر السيوطي منهم عدداً كثيراً نسبتهم اليه بالأخذ والرواية فقط .

كتب المذهب :

للفقه المالكي طريقان : (أحدهما) كتابه الموطأ الذي رواه عنه الكثيرون ممن تلقوا عنه (إلا أن في رواياتهم اختلافاً من زيادة ونقص، واشهر رواة الموطأ يحي بن يحي الليثي ، وهي النسخة التي تقرأ منها ، وهي المطبوعة بمصر، وهناك موطأ يرويه محمد بن الحسن ، وهو مطبوع ببلاد الهند) . (٢) وقد روى الموطأ بروايات مختلفة عدها بعضهم ثلاثين (٣)

---

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٣ .

(٢) تاريخ التشريع الاسلامى ص ٣٠٥ .

(٣) الزرقانى ج ١ ص ٧ .

وثانيها تلاميذه ، فقد كانوا هم المصدر الثاني لفقهه ، وكانوا يدونون ما يفتي به في المسائل . قال في المدارك للقاضي عياض : (كان مالك اذا تكلم بمسألة كتبها أصحابه) .

واشهر كتب المذهب أربعة : المدونة ، والواضحة والعتبية والموازية .

المدونة :

فالمدونة : هي أصح الكتب المعتبرة في المذهب ، وأصل هذه المدونة هي الاسدية التي دوّنها اسد بن الفرات بالتلقي عن ابن القاسم ، وذلك أن ابن الفرات رحل الى مالك وتلق عليه ، ثم رحل الى محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ، وأخذ عنه كتبه وتعلم فقه العراقيين ولما عاد الى مصر، كان مالك قد مات، فاراد ان يجمع بين الفقه المالكي والفقه الحنفي ، فأتى بالمسائل الى اصحاب مالك الذين لازموه ، فالتجأ أولا الى ابن وهب ، وقال له : هذه كتب ابي حنيفة ، وسأله أن يجيب فيها على مذهب مالك ، فتورّع ابن وهب وابى ، فالتجأ الى ابن القاسم، فاجابه الى ماطلب ، فاجابه فيما حفظ عن مالك بقول مالك ، وفيما شك من حفظه قال : اخال ، وأحسب ، وأظن . و (منها) — ما كان يقول فيه بالقياس على رأي له فى مثله ، فكان يقول : « سمعته يقول فى مسألة كذا كذا ، ومسألتك مثله ومنه ماقال فيه باجتهاده على أصل قول مالك . وجمع تلك الاجوبة وسماها الأسدية » (١) .

والاسدية هذه هي الاصل لمدونه سحنون ، لأنه تلقاها عن أسد بن الفرات . وقد تكلم بعض الناس فيها ، لاشتمالها على أخال ، وأظن ، وأحسب ، وقالوا له :

---

(١) مالك لمحمد أبو زهرة .

جئتنا بأخال وأظن وأحسب ، وتركت الآثار وما عليه السلف .

ولما تلقى سحنون الأسدية ، ارتحل الى ابن القاسم وعرضها عليه . واسقط ما كان ظنياً ، فاقبل الناس على كتب سحنون ، وهجروا كتب أسد بن الفرات ، ونظر سحنون بعد ذلك فى كتبه بعد أن استوثق برواية ما هو رواية منها ، وماهو رأي مخرج على أصل مالك ، ورتبها وزاد عليها خلاف كبار أصحاب مالك له ، وذيل أبوابها بالحديث والآثار ، فاصبحت المدونة هي الاصل الثاني للفقه المالكي (١) .

وأنت ترى ان الفقه المالكي تأثر بالفقه الحنفي ، ودخله الرأي من أصحاب ابي حنيفة ، كما أن مالك نفسه كان يلجأ الى الرأي ، ويعمل بالقياس ، كما يأتي بيانه .

ثم جاء العلماء المالكية ، فشرحوا المدونة ووسعوها بما علقوا عليها . فالمدونة هي مجموعة لمسائل عن مالك ، واجتهاد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه فى وضع أحكام المسائل على قواعد مالك ومبادئه . وقد احتج سحنون لبعض مسائلها بالآثار ، من روايته من موطأ ابن وهب وغيره ، وبقيت منها بقية لم يتم سحنون فيها هذا العمل (٢) واتبع الناس مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب ، فكانت تسمى المدونة والمختلطة ، وعكف أهل القيروان على هذه المدونة ، وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية ، وكذلك اعتمد أهل الأندلس على العتبية ، وهجروا الواضحة وما سواها (٣) .

(١) مالك لمحمد ابو زهرة .

(٢) التشريع الاسلامى ص ٣٠٦ .

(٣) ابن خلدون ص ٢٤٥ .

الواضحة :

والواضحة : ألفها عبد الملك بن حبيب (*) وقد أخذ عن ابن القاسم وطبقته ، وبث مذهب مالك في الاندلس .

والعتبية : ألفها محمد بن أحمد العتبي القرطبي المتوفى سنة ٢٥٥ ، وقد أكثر فيها من الروايات المطروحة ، والمسائل الشاذة ، وكان يأتي بالمسائل الغريبة ، فاذا اعجبته قال : أدخلوها في المستخرجة . قال ابن وضاح : في المستخرجة خطأ كثير . وقال محمد بن عبد الحكم :رأيت جلها كذبا ومسائل لا أصل لها . ولكنها مع هذا الطعن وما فيها من الكذب والخطأ ، فان لها عند أهل العلم بافريقية القدر العالي والطيران الحثيث ، قاله ابن حزم .

والموازية : هي لمحمد بن ابراهيم ابن زياد الاسكندري المعروف بالمواز المتوفى سنة ٢٦٩ . قال القاضي عياض عن كتاب الموازية : هو أجل كتاب الفه المالكيون ، وأصحه مسائل ، وأبسطه كلاماً ، وأوعبه ، وذكره ابو الحسن القابسي ، ورجحه على سائر الامهات .

هذه هي امهات كتب المذهب المالكي ، والمعول عليها في العمل . وقد خالف اصحاب مالك في اكثر المسائل ما ذهب اليه مالك ، كما خالف ابو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني أبا حنيفة ، وكما خالف المزني والبويطي الشافعي .

(*) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمة بن عباس بن مرداس السلمي ابو مروان المتوفى سنة ١٣٨ له تآليف كثيرة غير الواضحة : منها غريب الحديث ، وتفسير الموطأ ، وطبقات الفقهاء ، وغيرها . قال ابن ابابة : لم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من سقيمه ، ويفرق مستقيمه من مختلفه ، وكان غرضه الاجازة . وكان يعرف بعالم الاندلس . انظر ترجمته في نفح الطيب ج ٦ ص ١٥ .

فانت ترى ان مجموع ما عليه العمل في المذهب لم يكن من قول صاحب المذهب وحده ، وإنما هو مجموع آراء . وقد كانوا مستقلين في تفكيرهم ويوضح لنا ابن خلدون حالة هذه الكتب واستعمالها بقوله :

رحل من الاندلس عبدالملك بن حبيب ، فاخذ عن ابن القاسم وطبقته ، وبث مذهب مالك في الاندلس ، ودوّن فيه كتاب الواضحة ، ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية ، ورحل من افريقية أسد بن الفرات ، فكتب عن اصحاب ابي حنيفة اولا ، ثم انتقل الى مذهب مالك ، وكتب على ابن القاسم في سائر ابواب الفقه ، وجاء الى القيروان بكتابه وسماه الاسدية نسبة الى اسد بن الفرات ، فقرأها سحنون على اسد ، ثم ارتحل الى المشرق ، ولقي ابن القاسم واخذ عنه ، وعارضه بمسائل الاسدية ، فرجع عن كثير منها ، وكتب سحنون مسائلها ، ودونها واثبت ما رجع عنه ، وكتب لاسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك ، فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الابواب ، فكانت تسمى المدونة والمختلطة ، وعكف اهل القيروان على هذه المدونة ، واهل الاندلس على الواضحة والعتبية ، ثم اختصر ابن ابي زيد المدونة والمختلفة في كتابه المسمى بالمختصر ، ولخصه ايضاً ابو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب ، واعتمده المشيخة من اهل افريقية ، واخذوا به وتركوا ما سواه . وكذلك اعتمد اهل الاندلس كتاب العتبية ، وهجروا الواضحة وما سواها . ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الامهات بالشرح ، والايضاح والجمع ، فكتب اهل افريقية على المدونة ما شاء الله ان يكتبوا مثل ابن يونس ، واللخمي ، وابن محرز التونسي وابن بشير وامثالهم . وكتب اهل الاندلس على العتبيه ما شاء الله

ان يكتبوا مثل ابن رشد وامثاله . وجمع ابن ابي زيد جميع ما في الامهات من المسائل والخلاف والاقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع اقوال المذاهب وفروع الامهات كلها في هذا الكتاب ، ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة ، وزخرت بحار المذهب المالكي في الافقين الى انقراض دولة قرطبة والقيروان ، ثم تمسك بهما اهل المغرب بعد ذلك الى ان جاء كتاب ابي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق اهل المذهب في كل باب ، وتعديد اقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج المذهب (١) .

***

ولقد كان اهل الاندلس يغالون في مالك وفقهه . قال البيهقي : إن الشافعي إنما وضع الكتب على مالك : أنه بلغه أن بالاندلس قلنسوة لمالك يستسق بها ، وكان يقال لهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : قال مالك . فقال الشافعي : إن مالكا بشر يخطىء ، فدعاه ذلك الى تصنيف الكتاب في اختلافه معه (٢) .

وعلى الجملة فان انتشار مذهب مالك في الاندلس يعود امره الى قوة السلطان (فانه قد حمل اهل مملكته عليه) (٣) وقد كانوا يعملون بمذهب الاوزاعي . وكان يحيي بن يحيي الليثي مقدماً مكيناً عند السلطان فنشر المذهب هناك ، إذ جعل اليه تعين القضاة ، فلم يول الا من كان على مذهبه ، حتى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٧ المطبعة الازهرية .

(٢) توالي التأسيس الحافظ ـ ابن حجر ص ٧٦ .

(٣) انظر نفح الطيب ج ٦ ص ٤٥ .

اضطر القضاة الذين كانوا على غير مذهب مالك ان يلتزموا الفتوى به ، نظراً لالزام السلطة » .

فهذا القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة المتوفى سنة ٣٥٥ كان يتفقه بمذهب الظاهري ، ويقضي بمذهب مالك واصحابه ، لانه الزم بالعمل به من قبل السلطان (١) .

ويعود ذلك إلى ثناء مالك على ملك الاندلس عندما سئل عن سيرة الملك ، فذكر له عنها ما أعجبه ، فقال مالك : نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم ، فلما بلغ قوله الى الملك حمل الناس على مذهبه بالقهر (٢) .

ويقول المقريزي : لما ولي المعز باديس حمل جميع اهل افريقيا واهل الاندلس على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه ، فرجع اهل افريقيا واهل الاندلس كلهم الى مذهبه رغبة فيما عند السلطان وحرصاً على طلب الدنيا ، إذ كان القضاء والافتاء في جميع تلك المدن لمن سمى بمذهب مالك ، فاضطرت العامة الى احكامهم وفتاواهم ففشى هذا المذهب هناك (٣) .

فالمذهب المالكي محفوف بعناية السلطة وعوامل السياسة من جميع جوانبه .

ولا بد ان نلحظ الشبه بين المذهب المالكي والمذهب الحنفي .

١ — ان كلاً منهما انتشر بالقوة والقهر من قبل السلطات على ايدي القضاة .

٢ — وان كلاً من رئيسي المذهب قد أسعده الحظ بالقبول عند

---

(١) انظر نفح الطيب ج ٦ ص ٤٥ .

(٢) ميدان الاجتهاد .

(٣) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ١٤٦ في عوامل انتشار مذهب مالك .

سلطان عصره ، فكانت له المنزلة الرفيعة والدرجة العظيمة . فابو حنيفة انتصر المنصور له وقربه وأدناه لغاية في نفسه ، ولكنه فشل في محاولاته فآل امره الى ان يغضب عليه ويقتله .

ومالك قد حظي برضا المنصور والمهدي والهادي والرشيد ، ورفعوا من شأنه في حياته كما مر بيانه .

٣ — إن كل واحد منهما تأثر بالآخر فالمذهب الحنفي دخلت فيه آراء مالك ورواياته أدخلها ابو يوسف ومحمد بن الحسن وطبقوا آراءهم على الموطأ واستخرجوا لها شواهد من الآثار .

وكذلك المذهب المالكي تأثر بالرأي الحنفي ، أدخله عليه أسد بن الفرات كما مر ذكره .

٤ — إن اصول المذهبين ومسائلهما هما مجموعة آراء علماء كل من المذهبين التي قام عليها تخريج المسائل ، وينسب ذلك الى رئيس المذهب ، فاصبحت تلك المسائل هي الاسس التي يقوم بها وان كان فيها خلاف لمن نسب المذهب اليه . فان لتلاميذ مالك آراء بجوار آرائه ومنزلتهم منه كمنزلة المزني من الشافعي وكمنزلة محمد وأبي يوسف من ابي حنيفة :

وهنا لابد لنا من الاشارة الى بعض اصول المذهب المالكي

اصول الفقه المالكي

يختلف المذهب المالكي عن بقية المذاهب بكثرة اصول الفقه ، فان الاصول عند الحنفية الكتاب والسنة والاجماع والقياس والاستحسان والعرف .

والاصول عند الشافعية : الكتاب والسنة والاجماع والقياس .

أما الاصول عند المالكية فاقل عدد احصوه له تسعة الكتاب والسنة والاجماع والقياس والاستحسان والعرف واجماع اهل المدينة والمصالح المرسلة وسد الذرائع وقيل اكثر من ذلك .

ولقد ذكر القاضي عياض في المدارك الاصول العامة للفقه الاسلامي : وهي القرآن الكريم نصوصه وظواهره ومفهوماته ، والسنه متواترها ومشهورها وآحادها ، ويؤخذ أيضاً بنصوصها ثم ظواهرها ثم مفهوماتها ثم الاجماع ثم القياس . وبعد ذلك ذكر اصول مالك ومقامها من تلك الاصول العامة فقال :

وانت اذا نظرت لاول وهلة منازع هؤلاء الائمة ومآخذهم في الفقه واجتهادهم في الشرع وجدت مالكا رحمه الله ناهجاً في هذه الاصول منهاجها مرتباً لها مراتبها ومدارجها ، مقدماً كتاب الله على الآثار ، ثم مقدماً لها على القياس والاعتبار ، تاركاً منها مالم يتحمله الثقات العارفون لما تحملوه ، أو ما يجهلونه ، أو ما وجد الجمهور الجم الغفير من اهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه ولا يلتفت الى من تأول عليه بظنه في هذا الوجه سوء التأويل وقوله مالا يقوله بل صرح بانه من الاباطيل .

هذا ماذكره القاضي عياض في اصول مذهب مالك ، ذكر الكتاب والسنة ، وعمل اهل المدينة والقياس ولم يذكر غيرها ، فلم يذكر الاجماع ،

ولم يذكر القواعد التي امتاز بها مذهب مالك ، وهي المصالح المرسلة وسد الذرائع ، والعرف ، والعادات ، وغيرها واحصيت الى ستة عشر أصلا . ومهما يكن من شيء فان مالكا لم يدون اصوله التي بنى عليها مذهبه في منحاه الاجتهادي الذي استخرج فروع مذهبه منها ، فهو كأبي حنيفة فى ذلك كما تقدم بيانه في الجزء الاول . ولقد صنع فقهاء المذهب المالكي فى فقه مالك ما صنعه فقهاء المذهب الحنفي ، فجاؤا الى الفروع وتتبعوها واستخرجوا منها ما يصح أن يكون اصولا قام عليها الاستنباط فى ذلك المذهب العظيم ، ودونوا تلك الاصول التي استنبطوها على انها أصول مالك ، فيقولون مثلا : مالك يأخذ بمفهوم المخالفة وبفحوى الخطاب وبظاهر القرآن ، ويقول فى العموم كذا ، والحقيقة ان هذه ليست اقوالا له مأثورة قد ذكرها ورويت عنه ، بل هي مستخرجة من الفروع التي اثرت عنه وادلتها التفصيلية التي ذكرت بجوارها او ذكرها الفقهاء من بعده لها ولا يمكن الاستدلال بسواها (١) .

فاصبح ذلك المجهود الذي بذله علماء المالكية هو مجموع اصول المذهب المالكي ، وفي اكثرها مخالفة لرأي مالك ، أو تفردهم بما لم يرد من مالك اثر فيه ، فقد ظهرت بعد وفاته آراء لكبار تلاميذه خالفوه فيها ، ودونوا تلك المخالفة .

والشواهد كثيرة على مخالفة اصحاب مالك له من بعده ، فهذا يحيى الاندلسي يخالفه فى مسألة الشاهد ويمين صاحب الحق ، وهذا اشهب تروى مخالفته حتى ان أسد بن الفرات لما اراد أن يدون آراء مالك ولجأ الى اشهب لم يستطع عند التدوين التفرقة بين آراء التلميذ وشيخه مالك فعدل عنه وعاب

(١) انظر مالك لمحمد ابو زهره ص ٢٥٥ .

مسلكه ولجأ الى عبد الرحمن بن القاسم يأخذ منه ، فقد جاء فى مقدمات ابن رشد ما نصه :

قدم اسد يسأل مالكا رحمه الله فالفاه قد توفي ، فأتى اشهب ليسأله ، فسمعه يقول : أخطأ مالك فى مسألة كذا ، واخطأ في مسألة كذا فتنقصه بذلك وعابه ولم يرض قوله والتجأ الى ابن القاسم ليأخذ عنه آراء مالك وفقهه ، فقد كان ايضاً يخالف مالكا وقد دون ذلك ، فقد جاء في مدونة سحنون آراء صريحة فى مخالفة مالك .

واهم الاصول التي كان يعتمد عليها مالك فى منحاه الاجتهادي كثيرة منها :

١ — عمل اهل المدينة :

كان مالك قد اعطى ما جرى عليه العمل فى المدينة اهمية كبرى ، وهو يرد الحديث لانه لم يجر عليه عمل ، ويرى ان اهل المدينة ادرى بالسنة وبالناسخ والمنسوخ كما اشار لذلك في رسالته الى الليث بن سعد إذ يقول فيها :

فانما الناس تبع لاهل المدينة ، اليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن واحل الحلال وحرم الحرام ، إذ رسول الله بين اظهرهم ، الى أن يقول :

فاذا كان الامر بالمدينة ظاهراً معمولا به لم أر لاحد خلافه للذي في ايديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها ، ولو ذهب اهل الامصار يقولون : هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا ، لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة ، ولم يكن من ذلك الذي جاز لهم . . . الخ الرسالة .

وقد رد عليه الليث برسالة طويلة ناقشه فيها بمناقشة علمية ذكرها ابن القيم الجوزية فى أعلام الموقعين بكاملها .

وقال فى بعض فصولها : وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ماقد عرفت وحضرت قولك فيه ، وقول ذوي الرأي من أهل المدينة : يحيي ابن سعيد ، وعبيد الله بن عمر ، وكثير بن فرقد ، وغيره كثير ممن هو أسن منه حتى اضطرك ما كرهت من ذلك الى فراق مجلسه ، وذا كرتك أنت وعبدالعزيز بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك فكنتما من الموافقين فيما أنكرت .

وكان من ابن شهاب اختلاف كثير اذا لقيناه واذا كاتبه بعضنا فربما كتب اليه فى الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضاً ، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه فى ذلك . . . الخ الرسالة ، وقد ناقشه فيها بكثير من المسائل العلمية التي نقض بها قول مالك ، وكذلك الشافعي ناقش مالك مناقشة علمية قيمة فى كتاب الام ، لأن مالك لا يفرق فى لزوم اتباع أهل المدينة بين العمل النقلي ، والعمل الاجتهادي ، لذلك وجهوا اليه تلك المؤاخذات المعقولة .

« أما العمل النقلي فلا خلاف فى حجيته عند مفسري مذهب مالك كنقل أهل المدينة تعيين محل منبر النبي (ص) وقبره ومحل وقوفه للصلاة ، وتعيينهم مقدار المد والصاع والاوقية فى عهد رسول الله (ص) ، ونقلهم كيفية الأذان والاقامة . أما المسائل الاجتهادية فالأمر فيه سواء بين مجتهدي الصحابة . والتابعين من المدنيين والكوفيين والشاميين ، والمصريين (١) .

وقد رد ابن حزم على هذه القاعدة بقوله :

وأما من قال إن الاجماع اجماع أهل المدينة لفضلها ، ولأن أهلها شهدوا نزول الوحي فقول خطأ من وجوه . نذكر منها :

(١) انظر ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢١٢ والتشريع الاسلامى ص ٢٤١

١ — : ان الذين شهدوا الوحي ، إنما هم الصحابة رضي الله عنهم لا من جاء بعدهم من أهل المدينة ، وعن الصحابة أخذ التابعون من أهل كل مصر .

٢ — : إن الخلفاء الذين كانوا لا يخلو حالهم من أحد وجهين لا ثالث لهما .

اما ان يكونوا قد بينوا لأهل الامصار من رعيتهم حكم الدين أو لم يبينوا فان كانوا قد بينوا لهم الدين فقد استوى أهل المدينة وغيرهم في ذلك .

وإن كانوا لم يبينوا لهم فهذه صفة سوء أعاذهم الله تعالى منها ، فبطل قول هؤلاء بيقين .

٣ — : انه إنما قال ذلك قوم من المتأخرين ليتوصلوا بذلك الى تقليد مالك بن أنس دون علماء المدينة جميعاً ولا سبيل لهم الى مسألة واحدة أجمع عليها جميع فقهاء أهل المدينة المعروفون من الصحابة والتابعين خالفهم فيها سائر الأمصار (١) .

المصالح المرسلة :

ومن اصول مذهب مالك : القول بالمصالح المرسلة كما نسب الى الحنفية القول بالاستحسان ، وقد تسمى هذه المصالح بالاستصلاح ومعنى المصالح المرسلة : المصالح التي لم يشهد لها من الشرع بالبطلان ولا بالاعتبار نص معين ، ومحل النزاع فى العمل بها اذا صادمت دليلا آخر من نص أو قياس . ومثال ذلك : الضرب بالتهمة للاستنطاق بالسرقة ، فقد قال : بجوازه مالك ويخالفه غيره .

(١) النبذ لابن حزم ص ١٦ .

لأن هذه المصلحة تعارضها اخرى ، وهي مصلحة المضروب، لأنه ربما يكون بريئاً ، وترك الضرب في مذنب أهون من ضرب برىء ، فان كان فيه فتح باب يعسر معه انتزاع الأموال . ففي الضرب فتح باب الى تعذيب البرىء .

ومن ذلك المفقود زوجها اذا اندرس خبر موته وحياته وقد انتظرت سنين وتضررت بالعزوبة ، والمرأة تباعد حيضها سنين وتعوقت عدتها فى النكاح و بقيت ممنوعة منه، أخذ مالك برأي عمر فيها فقال : تنكح زوجة المفقود بعد أربع سنين من انقطاع الخبر مراعاة لمصلحة الزوجة ، وعدم التفات الى مصلحة الغائب ، وفي المتباعد حيضها تعتد بثلاثة أشهر بعد أن تمر عليها مدة الحمل وهي تسعة أشهر فالمجموع سنة راعوا مصلحة الزوجة مع المخالفة للنص الصريح ، وهو قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء » وهي لم تصل لسن اليأس حتى تعتد بالاشهر .

والخلاصة إن المصلحة المرسلة مصلحة ترجع الى حفظ مقصود شرعي بالكتاب أوالسنة أو الاجماع ، إلا انها لايشهد لها أصل معين بالاعتبار ، وإنما يعلم كونها مقصودة لا بدليل واحد بل بمجموع أدلة وقرائن أحوال وتفاريق الامارات. ومن أجل ذلك تسمى مصلحة مرسلة ، ولا خلاف عندهم في اتباعها إلا عندما تعارضها مصلحة اخرى ، وعند ذلك يكون الخلاف في ترجيح أحد المصلحتين (١).

الاستحسان :

كان مالك بن انس يأخذ بالاستحسان وروى ابن القاسم عن مالك انه قال : الاستحسان تسعة اعشار العلم ، وفى رواية اخرى عن مالك انه قال: تسعة

(١) انظر تاريخ التشريع الاسلامى ص ٢٤٢ .

اعشار العلم الاستحسان . وكان القرافي يفتي بالاستحسان ويقول فيه : « قال به مالك رحمه الله في عدة مسائل فى تضمين الصناع المؤثرين في الاعيان بصنعتهم وتضمين الحمالين للطعام والادام بدون غيرهم » .

وقد عرفه ابن العربي : « إن الاستحسان إيثار ترك مقتضى الدليل على طريق الاستثناء والترخيص لمعارضة ما يعارض به في بعض مقتضياته واقسامه أربعة :

١ ـ ترك الدليل للعرف ٢ ـ تركه للاجماع ٣ ـ تركه للمصلحة ٤ ـ للتيسير ورفع المشقة وايثار التوسعة » .

ويقول ابن الانباري : الذي يظهر من مذهب مالك القول بالاستحسان لا على المعنى السابق (أي تعريف ابن العربي له) بل هو استعمال مصلحة جزئية في مقابل قياس كلي ، فهو يقدم الاستدلال المرسل على القياس ، ومثاله لو اشترى سلعة بالخيار ثم مات فاختلف ورثته في الامضاء والرد ، قال أشهب : القياس الفسخ ، ولكنا نستحسن إذا قبل البعض الممضى نصيب الراد اذا امتنع البائع من قبوله أن نمضيه .

وعلى أي حال فان الاستحسان فى الفقه المالكي قد استعمل بكثرة ، ونقلوا ذلك عن مالك ، وقد اختلفوا فى تعريفه وفي بيان المواضع التي يجيز مالك الأخذ به ويعتمد عليه في بناء الاحكام ، وسيأتي بيان ذلك بصورة واسعة عند حديثنا عن اصول الفقه الجعفري ومقارنته مع غيره .

وقد حمل الشافعي على مالك في مسألة الاستحسان وعقد باباً فى (الأم) سماه كتاب إبطال الاستحسان .

ولقد بنى إبطال الاستحسان أولاً : على ان الشارع ما ترك امر الانسان سدى ، بل جاء فى الشريعة بما فيه صلاحه ونص على الاحكام الشرعية الواجبة

الاتباع وما لم ينص عليه قد اشير اليه وحمل على المنصوص بالقياس فلا شيء لم يبينه الشارع ، وترك بيانه للاستحسان ، وإلا كان ثمة نقص فى البيان .

ثانياً : لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا نزلت به حادثة لم يجد بها نصاً ولا حملا على نص سكت حتى ينزل وحي بالبيان ، كما فعل عندما جاءه من ينكر نسب ولد جاءت به امرأته فسكت حتى نزلت آية اللعان ، لأنه لم يجد نصاً ، ولا حملا على نص فانتظر ، ولو كان الافتاء بغير النص أو الحمل عليه جائزاً من احد لجاز من النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ثالثاً : ان الله سبحانه امر باطاعته سبحانه وتعالى واطاعة رسوله ، وذلك باتباع ماجاء في كتاب الله تعالى ، ثم ماجاء فى سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وان لم يكن نص فيهما كان الاتباع بالحمل على النص فى احدهما والاستحسان ليس واحد منهما .

رابعاً: ان النبي صلى الله عليه وسلم قد استنكر تصرف من اعتمد على استحسانه من الصحابة لأنه لم يعتمد على نص .

خامساً : ان الاستحسان لا ضابط له ولا مقاييس يقاس بها الحق من الباطل . فلو جاز لكل مفت أو مجتهد ان يستحسن فيما لا نص فيه لكان الأمر فرطاً ، ولاختلفت الأحكام في النازلة الواحدة على حسب استحسان كل مفت ، فيقال في الشيء ضروب من الفتيا والاحكام ، وما هكذا تفهم الشرايع ولا تفسر الاحكام الدينية (١) .

(١) انظر مالك لمحمد ابو زهرة س ٣٥٦ — ٣٥٦ .

القياس :

وهو اصل من اصول الفقه المالكي ، وقد اجمع المالكيون ان مالكا كان يقيس بعض المسائل التي تقع على مسائل قد علم فيها اقضية الصحابة ، كما قاس حال زوجة المفقود اذا حكم بموته فاعتدت عدة الوفاة وتزوجت بغيره ثم ظهر حياً ، بحال من طلقها زوجها واعلمها بالطلاق ثم راجعها ولم تعلم بالرجعة ، فتزوجت بعد انتهاء العدة ، وذلك لأن عمر افتى في هذه بانها لزوجها الثاني دخل او لم يدخل ، لأن الحالان متماثلان ، فلابد ان يكون الحكم متحداً ، وكثير ما كان يقيس على القضايا ، واكثر قياسه على قضايا عمر لأنه يجعل ذلك نصاً في الحكم كما على سائر الادلة ، إذ لم يقتصر قياسهم على الاحكام الثابتة من الكتاب والسنة بل يقيسون على الفروع المستنبطة ، والقياس حجة عند المالكية ، كما هو حجة عند الحنفية ولكن هناك فرق بين القياسين وان كان المدرك واحد إذ لا يختلفان إلا فى اتساع الدائرة وضيقها ، فابو حنيفة كان يتسع فى استنباطه فيبحث عن احكام المسائل التي لم تقع ، ويتصور وقوعها ، فهو يستنبط العلل الباعثة للاحكام ، والغايات المناسبة لشرعيتها ، ويبني عليها ويجعل العلل مطردة في كل ما تنطبق عليه ، وعلى هذا فاخذه بالراي لابد وان يجعل علة في القياس لأن قلة حديثه وسعت دائرة الرأي والقياس عنده كما يأتي بيانه انشاء الله .

وقد كان ابو حنيفة يقدم القياس على خبر الواحد فكذلك كان مالك ابن انس كما في كثير من فتواه التي نقلها اصحابه .

الرأى :

والشيء الذي يجب الالتفات اليه : ان الذين كتبوا فى تاريخ الفقه

الاسلامي قد قسموا الفقه الى فقه اثر وفقـــه رأي ويعدون مالـكاً فقيه اثر وابا حنيفة فقيه رأي .

وقد رأينا ابن قتيبة في معارفه يعد مالك بن انس فقيه رأي كما ذكرمنهم : ربيعة الراي استاذ مالك، والاوزاعي والثوري وابن ابي ليلى،وزفر ، وابو يوسف، وعد مالـكا من جملتهم (١) كما انه لم يذكره في اصحاب الحديث إذ عد منهم : شعبة وجرير بن حازم ، وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وغيرهم .

وزيادة على ذلك ان اشتهار مالك بالرأي كان معروفاً في عصره ، ويعتبرونه فقيه رأي ، حتى ليسأل بعضهم من للرأي في المدينة بعد ربيعة ويحي ابن سعيد ؟ فيجاب بان مالـكا من بعدهما .

يقول الاستاذ محمد ابو زهرة : وان مقدار أخـذ مالك بالرأي ليبدو جلياً في أمرين .

أحدهما في مقدار المسائل التي اعتمد فيها على الرأي سواء أ كان بالقياس ، أم بالاستحسان، أم بالمصالح المرسلة أم بالاستصحاب ، أم بسد الذرائع ... الخ .

وان ذلك الـكثير وافتح المدونة تجد الـكثرة بينة واضحـة بل ان تعدد طرائق الرأي عنده اكثر من غيره ، ليجعل له القدح المعلى فيه ، فان كثرتها تشير اشارة واضحة الى كثرة اعتماده على الرأي لا الى قلته .

ثانيهما عنـد تعارض خبر الآحاد مع القياس وهو أحد وجوه الرأي ، وهنا نجد انه يقرر الـكثيرون من المالـكية انه يقدم القياس ، وانهم بالاجماع يذكرون انه احياناً قـد اخذ بالقياس ، ورد خبر الآحاد ، ولقد احصى الشاطبي في الموافقات طائفة من المسائل أخذ فيهـا مالك بالقياس أ والمصلحة ،

---

(١) انظر المعارف ص ٢١٨ .

أو القاعدة العامة وترك خبر الآحاد ، لأنه رأى الاصول التي أخذ بها قطعية أو تعود الى اصل قطعي والخبر الذي رده ظني .

ومن ذلك حديث غسل الاناء من ولوغ الكلاب سبعاً احداهن بالتراب ، فقد قال فيه مالك : جاء الحديث ولا أدري ما حقيقته وكان يضعفه ويقول : يؤكل صيده فكيف يكره لعابه ؟! (*)

وقد رد خيار المجلس الذي يوجب أن يكون لكلا العاقدين الحق فى فسخ الخيار مادام المجلس لم يتفرق ، فقد قال مالك بعد روايته الحديث ليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول فيه (١) .

ولم يأخذ بخبر من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، ولا بالخبر الذي جاء عن ابن عباس ان امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت : يارسول الله إن امي ماتت وعليها صوم شهر ، فقال (ص) : أفرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته ؟ قالت : نعم ، قال : فدين الله أحق أن يقضى ، وقد رد

(*) ومن هذا الباب قضية أكل الكلاب فقد اشتهر عن المالكية جوازه كما يقول المقدسى فى أحسن التقاسيم : انها تباع فى المغرب جهراً وتطرح في عرائس مصر وقال ابن حزم فى المحلى — بعد ذكر حرمة أكل السباع ومنها الكلب — : وأنكر المالكيون تحريم أكل السباع ، وموهوا بان قالوا : قد صح عن عائشة انها سئلت عن أكل لحوم السباع ؟ فقرأت « قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً . . . » الآية وقال القرطبي : روى ابن القاسم عن مالك انها مكروهة ، وعلى هذا القول عول جمهور اصحابه وهو الرأى المنصور عندهم . وقد فرق أصحاب مالك بين كلب الماشية والزرع فاتفقوا على ان مالا يجوز اتخاذه لايجوز بيعه اما من أراده للاكل فاختلفوا فيه فمن اجاز أكله اجاز بيعه فهو عندهم طاهر العين غير محرم الاكل . انظر بداية المجتهد والمحلى فى باب الأطعمة وكتاب الطهارة والبيوع تجد هناك الاقيسة المعارضة للاثار الصحيحة .

(١) انظر الموطأ ج ٢ ص ٩٤ فى هامش مصابيح السنة .

مالك ذلك استناداً لقوله تعالى : « ولا تزروا وازرة وزر اخرى » .

ولم يعتبر للرضاع نصابا مقرراً عشراً ولا خمساً اطلاقا للقاعدة المستفادة من الآية الكريمة : « وامهاتكم اللاتي أرضعنكم » فالرضاع عنده على القليل والكثير فليس له حد أدنى .

ورد خبر المصراة وهو ماروي عن أبي هريرة ان رسول الله (ص) قال : لا تصروا الابل والغنم ومن ابتاعها بخير النظرين بعد أن يحلبها ان شاء امسك وان شاء ردها ، وصاعاً من تمر (١) .

وبهذا يتضح ان مالكا كان يعمل بالرأي والقياس ولم يكن الاختصاص فيه لأبي حنيفة . فالقول بان مالكا كان متمسكا بالحديث حتى عرف به غير وجيه . ومن هذا يتضح ان معركة اهل الرأي واهل الحديث كانت تحوم حول نقطة سياسية لا شرعية وهي معارضة مدرسة اهل البيت التي انهال الناس عليها في عصر الامام الصادق وقد تمسكت بالحديث ولم تجعل للقياس والرأي دخل في الاحكام الشرعية .

انكار الامام الصادق :

و كان الامام الصادق ينكر اشد الانكار على ذلك كما مر بيانه في اقواله لأبي حنيفة ونهيه له عن القياس والقول بالرأي .

ومن اقواله المأثورة : إن اصحاب المقائيس طلبوا العلم بالمقائيس فلم تزدهم المقائيس من الحق إلا بعداً .

وقال في رده على ابن شبرمة : لو علم ابن شبرمة من اين هلك الناس

(١) مالك ص ٣٠٠ — ٣٠١ باختصار ..

ما دان بالمقاييس ولا عمل بها .

وقال لأبي حنيفة : ويحك إن اول من قاس ابليس لما امره بالسجود لآدم، قال خلقتني من نار وخلقته من طين .

ودخل عليه ابان بن تغلب فقال : يا ابا عبد الله رجل قطع اصبع امرأة ؟ فقال فيها عشرة من الابل .

فقال ابان : قطع اثنين .

قال الصادق : فيهما عشرون من الابل .

قال : قطع ثلاث اصابع .

قال الصادق : فيهن ثلاثون من الابل .

قال : قطع اربعاً .

قال الصادق : فيهن عشرون .

قال ابان : أيقطع ثلاثاً وفيهن ثلاثون من الابل ، ويقطع اربعاً وفيها عشرون من الابل ؟!

قال : نعم ان المرأة اذا بلغت الثلث من دية الرجل سفلت المرأة وارتفع الرجل إن السنة لا تقاس ، ألا ترى انها تؤمر بقضاء صومها ، ولا تؤمر بقضاء صلاتها ، يا ابان اخذتني بالقياس وان السنة اذا قيست مُحق الدين .

الى كثير مما ورد عنه عليه السلام في شدة الانكار على العمل بالقياس والأخذ بالرأي ، وقد انتشر ذلك في عصره فوجه اليهم رسالة ينهاهم عن ذلك وبين لهم الاخطاء التي يؤدي اليها العمل بالرأي والقياس واليك نص الرسالة :

الرسالة :

اما بعد فانه من دعا غيره الى دينه بالارتياء والمقاييس لم ينصف ولم يصب حضه لأن المدعو الى ذلك لا يخلو من الارتياء والمقائيس ، ومتى مالم يكن بالداعي قوة فى دعائه على المدعو لم يؤمن على الداعي أن يحتاج الى المدعو بعد قليل ، لأنا قد رأينا المتعلم الطالب ربما كان فائقاً لمعلم ولو بعد حين ! ورأينا المعلم الداعي ربما احتاج في رأيه الى رأي من يدعو ، وفي ذلك تحير الجاهلون وشك المرتابون ، وظن الظانون ؛ ولو كان ذلك عند الله جائزاً لم يبعث الله الرسل بما فيه الفصل ، ولم ينه عن الهزل ، ولم يعب الجهل ، ولكن الناس لما سفهوا الحق وغمطوا النعمة، واستغنوا بجهلهم وتدابيرهم عن علم الله ، واكتفوا بذلك دون رسله، والقوامين بامره «قالوا لا شيء إلا ما أدركته عقولنا وعرفته البابنا ، فولاهم الله ما تولوا ، وخذلهم حتى صاروا عبدة أنفسهم من حيث لا يعلمون ، ولو كان الله رضي منهم اجتهادهم وارتياءهم فيما ادعوا من ذلك لم يبعث اليهم فاصلا لما بينهم ولا زاجراً عن وصفهم ، وانما استدللنا ان رضى الله غير ذلك ببعثه الرسل بالامور القيمة الصحيحة والتحذير عن الامور المشكلة المفسدة ، ثم جعلهم ابوابه وصراطه والادلاء عليه بامور محجوبة عن الرأي والقياس . فمن طلب ما عند الله بقياس ورأي لم يزدد من الله إلا بعداً ، ولم يبعث رسولاً قط وان طال عمره قابلا من الناس خلاف ماجاء به حتى يكون متبوعاً مرة ، وتابعاً اخرى ، ولم ير أيضاً فيما جاء به استعمل رأيا أو مقياساً حتى يكون ذلك واضحاً عنده كالوحي من الله ، وفي ذلك دليل لكل ذي لب وحجى ان اصحاب الرأي والقياس مخطؤن مدحضون ... الخ الرسالة .

والغرض ان مالكا كان يعد من أهل الرأي وقد نهاه استاذه ابن هرمز عن الاخذ به كما حدث مالك عنه قال مطرف : سمعت مالكا يقول :

قال ابن هرمز لاتستمسك على شيء مما سمعته من هذ الرأي إنما افتجرته انا وربيعة فلا تتمسك .

وكما صرح مالك بذلك في قوله : إن نظن إلا ظناً ومانحن بمستيقنين (١) وكذلك كان تلاميذه وحملة حديثه وناشري مذهبه يحذرون من الاخذ بآرائهم ، قال عبيدالله بن يحيي بن يحيي : كنت آتي ابن القاسم فيقول لي : من أين جئت ؟ فاقول من عند ابن وهب فيقول : اتق الله فان اكثر هذه الاحاديث ليس عليها العلم . ثم آتي ابن وهب فيقول : من أين ؟ فاقول : من عند ابن القاسم . فيقول : اتق الله فان اكثر هذه المسائل رأي (٢) .

وقال العقبي دخلت على مالك فى مرضه الذي مات فيه فسلمت عليه فرأيته يبكي فقلت : يا ابا عبد الله ما الذي يبكيك ؟ فقال لي : يابن قعنب ومالي لا ابكي ومن احق بالبكاء مني والله لوددت اني ضربت بكل مسألة سوطاً وقد كانت لي السعة فيما سبقت اليه وليتني لم افت بالرأي . (٣)

وعلى كل حال فان المذهب المالكي توسع فى استعمال القياس كالمذهب الحنفي ، كما انه توسع فى اعتبار المصلحة وجعلها اصلا قائماً بذاته .

وكذلك مذهب احمد بن حنبل كما يأتي بيانه ، فقد قرر ان نصوص الشارع لم تأت في احكامها إلا بما هو المصلحة ، وما كان بالنص عرف به .

بل لقد زاد بعض الحنابلة والمالكية فخصص النصوص القرآنية والنبوية

(١) جامع بيان العلم ج ٢ س ٣٣ .
(٢) نفس المصدر س ١٥٩ .
(٣) ابن خلكان ج ٣ س ٢٤٦ .

بالمصالح ، اذا كان موضوع هـــذه النصوص من المعاملات الانسانية ، لا من العبادات .

وقال الطوفي (١) ـ وهو احد علماء الحنابلة ـ : إن رعاية المصلحة إذا ادت الى مخالفة حكم مجمع عليه او نص من الكتاب والسنة وجب تقديم رعاية المصلحة بطريق التخصيص لهما بطريق البيان (٢) .

وقد رد الامام كاشف الغطاء ـ تغمده الله برحمته ـ على ذلك بمقال قيم ذكر فيه : (ان تقديم المصلحة على اطلاقها ففيها توسع غريب ادهى من توسع بعضهم في القول بالمصالح المرسلة ، وربما جر ذلك الى الهرج والمرج والفوضى في احكام الشريعة الاسلامية ، والتلاعب حسب الاهواء فيتسنى للفقيه على هذا أن يحكم بحلية الربا مثلا : لان فيه مصلحة ، والفائدة والمصلحة تعارض النص وتقدم عليه في المعاملات ، وهل ذلك الا الفوضى والتلاعب باحكام الشريعة ؟ (٣) الى آخر مقاله القيم اقتصرنا منه على هذه الجملة .

هذا ما يتعلق ببيان بعض اصول الفقه المالكي وسيأتي الكلام على ذكر بعض المسائل الفقهية عند حديثنا عن فقه المذاهب .

ولا بد لنا من الاشارة لعصر مالك وما فيه من التطور الذي نستطيع أن نعرف موقفه عند تلك الحوادث فقد كان من المنكرين على العباسيين اختصاصهم بالامر دون بني علي وهو كغيره من المفكرين الذين انكروا ذلك ونالوا جزاءهم .

(١) هو نجم الدين ابو الربيع سليمان بن عبدالقوى الحنبلي البغدادى المتوفى سنة ٧١٦ وقد اتهم في التشيع لتأليفه كتاب العذاب الواصب على ارواح النواصب ولقوله الشعر في مدح علي ، فعذب لذلك وعزر وطرد من وظيفة التدريس . انظر شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) انظر رسالة الاسلام السنة الثانية العدد الاول ص ٩٤ تحت عنوان من ذخائر الفكر الاسلامي .

(٣) انظر رسالة الاسلام العدد الثاني ص ١٩٣ .

مالك

عصره وحوادثه ، اراؤه واقواله

كانت ولادة مالك فى عهد الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٣ — ٩٩ ووفاته فى عهد الرشيد هارون سنة ١٧٩ فهو قد ادرك شطراً من العهد الاموي ومثله فى العهد العباسي وقد شاهد الكثير من حوادث العصر الاموي مما لا حاجة الى بيانه فقد مرت الاشارة اليه .

ولابد أن نشير هنا الى العهد العباسي اشارة موجزة لحوادث عصره فانه قد عاصر منهم السفاح والمنصور والمهدي والهادي وطرفاً من عصر الرشيد ، فهذا هو اهم عهد فى العصر العباسي الاول ، ففيه تم انتقال الحكم من الامويين الى العباسيين بعد اضطراب وحروب طاحنة ذهبت بكثير من النفوس والارواح ، وقد شاهد مالك اهم حوادث ذلك العهد ، وعرف نصيب المدينة المنورة من تلك الثورة الماحقة ، وذاك الانقلاب الهائل ، كما انه طمع كما طمع كثير من الناس ان ينال المجتمع سعادة تحت ظل دولة جاءت ساخطة على ظلم الامويين ، وسوء سيرتهم وجور عمالهم ، وانتهاكهم لحرمات الاسلام ، واعتدائهم على مقدسات الدين ، ومعاملتهم السيئة لاهل بيت الرسول ، وشاهد كما شاهد كثير من الناس اتحاد العباسيين والعلويين واتفاقهم على محاربة عدو مشترك ، ليعالجوا الوضع الذي عظم على المسلمين تحمله ، وكان العباسيون ينظمون لجانب اهل البيت ، ولكنهم ينظّمون حزبهم وسط ذلك الجو ، وهم اشد الناس انتقاداً لوضع الدولة ، ويتألمون

لما نال المسلمين بصورة عامة ولأبناء عمهم بصورة خاصة وهم موتورون من الامويين وناهيك بما في قلب الموتور من واتره ، وكانت الهتافات باسم الرضا من آل محمد وقد اتجهت الانظار اليهم ، وحامت عليهم الآمال ، واتسع نطاق الثورة باسمهم وتمت بيعة محمد بن عبد الله بن الحسن وقد بايعه العباسيون وكثير من العلويين ، وكان مالك ممن يرى لزوم تلك البيعة وصحتها . وعلى أي حال فقد استقر حكم بني العباس بعد ذلك الاضطراب وقامت دولتهم على اساس الانتماء لاهل البيت والانتقام من امية الظالمة .

وبطبيعة الحال أن يكون ذلك العصر مقروناً بتطورات وحوادث هامة ، وقد شاهد مالك اكثرها ، ولعلنا نستطيع أن نستكشف رأيه وموقفه عندما ننظر الى مظاهر الدولة الجـديدة التي كانت تنتقد اعمال الامويين واقامة عرشها على اطلال دولتهم .

فهل تبدل ذلك الوضع الذي بعث الاستياء فى نفوس العباسيين من الامويين فى معاملتهم القاسية مع اهل بيت النبي ؟ وهل وجدوا في ظل دولة ابناء عمهم راحة بعد ذلك العناء الذي شاهدوه فى عهد الامويين ؟ وهل ظفر الناس ببغيتهم فى اقامة دولة عادلة تحكم بكتاب الله ، وسنة نبيه . ؟ إذاً لابد من نظرة اجمالية وعرض موجز لبعض الحوادث التي نستطيع أن نستحصل الاجابة على هذه الاسئلة.

فى عهد السفاح :

كان عهد السفاح عهد حروب ومذابح ولكنه يعد فى الواقع احسن العهود وعصره خير عصر على اهل البيت وانصارهم وذلك واضح بيانه لان الدولة فى عهدها الجـديد لا يمكنها ارتكاب ما يكدر الصفو ويغير الوضع ، فيحدث

من ذلك خطر لا يمكن تلافيه ومع هذا فقد اعطانا ابو مسلم صورة عن سياسة السفاح بكتابه المنصور :

أما بعـد فقد كنت اتخذت أخاك — يعني السفاح — اماماً وجعلته على الدين دليلا لقرابته ، والوصية التي زعم انها صارت اليه ، فاوطأ بي عشوة الضلالة ، وارهقني في ربقة الفتنة ، وامرني ان آخذ بالظنة ، واقتل على التهمة ، ولا أقبل المعذرة ، فهتكت بامره حرمات حتم الله صونها ، وسفكت دماء فرض الله حقنها وزويت الأمر عن أهله ، ووضعته في غير محله . (١)

ويقول في كتاب آخر المنصور أيضاً :

اما بعد فاني اتخذت رجلا اماماً ودليلا على ما افترض الله على خلقـه ، وكان في محلة العلم نازلا ، وفي قرابته من رسول الله (ص) قريباً ، فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد تعافاه الله الى خلقه ، وكان كالذي دلى بغرور ، وامرني أن اجرد السيف وارفع الرحمـة ، ولا أقبل المعذرة ، ولا اقيل العثرة ففعلت توطيداً لسلطانكم ، حتى عرفـكم من كان يجهلـكم ، واطاعكم من كان عدوكم ، واظهركم الله بي بعـد الاخفاء والحقارة والذل ، ثم استنقذني بالتوبة . . . الخ (٢)

ونكتفي بهذا عن الزيادة في معرفـة السفاح وسياسته . والشيء الذي يلفت النظر في هذه المراسلة هو اعتراف ابي مسلم بخطأه ، في تأويل الآيات التي حاول العباسيون انطباقها عليهم تمويهاً على الناس ، كآية التطهير التي نزلت في آل محمد دون غيرهم ، وادعى العباسيون انهم أهل البيت الذين تنطبق عليهم هـذه الآية وغيرها كآية المودة لذلك تنبـه أبو مسلم لهذا الخطأ في التأويل وحاول أن يتدارك

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٢٠٨ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٤ .

أمره بالتوبة ، وارجاع الأمر لآل علي ، فراسل الامام الصادق — كما ذكره غير واحد — بأن يدعو له ، ويرجع الأمر اليه ، ولكن الامام رفض طلبه للامور التي مر بيانها ، فكان ذلك أعظم شيء على المنصور وقامت قيامته حتى استطاع أن يعجل على ابي مسلم قبل اتساع الخرق ، وانتشار الأمر . وهذا هو السبب الوحيد فى قتله بتلك الصورة كما قتل من قبله ابو سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد لأنه حاول ارجاع الأمر لآل علي فقتله السفاح غيلة .

المنصور :

وجاء المنصور من بعده وهو اليقظ الذي اعطته المشاكل درساً ، فكان قوي السطوة عظيم البطش يخشى زوال ملكه وتتصور امامه أيام محنته وكده ونكده يوم كان خائفاً متخفياً يسعى فى الارض لاثارة الشعور وتحريك عواطف الامة بما نال أهل البيت من الجور الاموي فسفكوا دماءهم ولم يراعوا بهم حرمة الدين وقرابة النسب من رسول الله (ص) وكان يتوجع لمصائب الامة ومحنها في عهدهم .

فلما نال غرضه وما يقصده من وراء ذلك فكان مثلا للظلم والعدوان وفتح على الامة ابواب الجور واطلق عليهم عقال الفتنة وخالف باعماله أقواله حتى انتشر الجور فى عهده ، وقد أسرف في اراقة الدماء حتى قال له عمه عبد الصمد :

لقد لججت في العقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو فقال المنصور : لأن بني مروان لم تبل رممهم وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم قد رأونا بالامس سوقة فكيف تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو .

فهو يحاول تركيز دعائم ملكه بتلك القسوة الهائلة من جهة وبالتظاهر

بالتدين من جهة اخرى ليدفع عن نفسه خطر المؤاخذات ، وقد كثرت عليه لاسرافه في القتل وسوء معاملته لأهل البيت حتى قال اكثر الناس : ماعلى هذا بايعنا آل محمد أن نسفك الدماء التي حرمها الله .

وانكر جماعة من القواد سياسة المنصور وقسوته فاظهروا الدعوة لآل علي فحاربهم عبد الجبار بن عبد الرحمن الازدي عامل خراسان سنة ١٤٠ فقتلهم وحبس منهم آخرين (١) . وعظم الأمر على الامة وسار العمال في العسف والجور كما كان في العهد الأموي .

قال عبد الرحمن بن زياد : كنت أطلب العلم مع ابي جعفر المنصور قبل الخلافة ، فلما ولي الخلافة وفدت اليه ، فقال : كيف سلطاني من سلطان بني امية ؟ قلت : مارأيت في سلطانهم من الجور شيئاً إلا رأيته في سلطانك ، فقال المنصور : إنا لانجد الاعوان . قلت : قال عمر بن عبد العزيز : إن السلطان بمنزلة السوق يجلب اليهم ما ينفق فان كان براً اتوه ببرهم وان كان فاجراً اتوه بفجورهم (٢) .

وقال له عمر بن عبيد : « إنه ماعمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه . قال المنصور : فما أصنع ؟ قد قلت لك : خاتمي بيدك فتعال واصحابك فاكفني ، قال عمر : ادعنا بعدلك تسخ انفسنا بعونك ، إن ببابك الف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم انك صادق » (٣) .

---

(١) ابن كثير ج ١٠ ص ٧٥ .

(٢) تاريخ الخلفاء ١٠٥ .

(٣) عيون الأخبار ٢ / ٣٣٧ .

الخراج :

اما مسألة الخراج التي عظم امرها في العهد الاموي، وانتقد العباسيون سياسة الامويين فيها وأوعدوا الناس خيراً وقطعوا على أنفسهم عهوداً فى تخفيفها والعمل فيها بما امرالله ورسوله. فكانت نتيجة الأمر أن يتضاعف البلاء ويكون الحال فيها أعظم مما كان في العهد الاموي ، حتى التجأ بعضهم الى الاحتماء باسم رجال الدولة كالوزير مقابل ذلك بمقدار من المال في السنة .

يقول الجهشياري : إن من أهل الخراج من يلجيء ارضه وضياعه الى خاصة الملك وبطانته لأحد امرين : إما للامتناع من جور العمال وظلم الولاة ، واما لدفع مايلزمهم من الحق والكسر له . ويعطي الجهشياري مثلا لذلك بقوله :

جاء رجل من أهل الاهواز الى ابي ايوب المورياني وهو وزير المنصور ، فقال له : إن ضيعتي بالاهواز قد حمل عليّ فيها العمال فان رأى الوزير أن يعيرني اسمه اجعله عليها وأحمل له كل سنة مائة الف درهم . فقال له : قد وهبت لك اسمي فافعل مابدا لك » . وفى العام التالي احضر الرجل المال ودخل على ابي ايوب وأعلمه انه قد انتفع باسمه، وانه قد حمل المال فسر أبو ايوب كثيراً (١) .

وكان أبو ايوب عبداً للمنصور اشتراه صبياً قبل الخلافة ، وقلده الوزارة في خلافته ، ثم غضب عليه فقتله سنة ١٥٣ واستصفى امواله ، وقلد الوزارة من بعده للربيع بن يونس مولى آل عثمان بن عفان، ولم يزل وزيراً الى أن مات المنصور(٢) .

وليس في وسعنا أن نتوسع في قضية الخراج وتلاعب الجباة فى ذلك

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٨٣ .

(٢) ابو ايوب اسمه سليمان المورياني من قرية موريان من قرى الأهواز .

وما نال أهل الخراج من الشدة والعذاب ، بالسباع والزنابير والسنانير (١) وذلك في عهدالمهدي العباسي،واشتد الأمر كلما امتد الزمن بالدولة العباسية، فقد كان عمال الخراج يستعملون وسائل الشدة وأنواع التعذيب كما وصفوا بانهم : عتاة ليس في قلوبهم رحمة ولا ايمان شر من الافاعي يضربون الناس، ويحبسونهم، ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يموت . ومن أظرف ماجرى في عهد الوزير ابن الفرات قصةملخصها: انهأراد اجراء الحساب مع محمدبن جعفر بن الحجاج سنة٢٩٦ فطالب رجلا لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فانتدب له رجل يكنى بابي منصور فاحضر ابن الحجاج بين يديه وشتمه ابو منصور وافترى عليه ، ثم امر بتجريده وايقاع المكروه به . وابن الحجاج يقول : يكفي الله ، ثم أمر أبو منصور بنصب دقل وجعل في رأسه بكرة فيها حبل، وأمر برفع ابن الحجاج الى أعلى الدقل وهو يستغيث ويقول : يكفي الله . فما زال معلقاً وابو منصور يقول : المال المال . وهو غضبان حتى اختلط من شدة الغضب ، وقال لمن يمسك الحبال : ارسلوا ابن الفاعلة وهو يرى انهم يتوقفون ويحاول بذلك تهديده ، فارسلوا ابن الحجاج وكان بديناً فسقط على عنق ابي المنصور ، فدقها وخرّ على وجهه وسقط ابن الحجاج مغشياً عليه ، فحمل ابو منصور الى منزله في محمل فمات في الطريق ، ورد ابن الحجاج الى محبسه وقد تخلص من التلف (٢) .

وكان أحد عمالهم يشتد فى المطالبة بالاموال، فكان يضع على بطون الناس أطسات الجمر ، ومنهم من يستعمل الدبابيس يضربون بها على رؤوس أهل الخراج ، الى غير ذلك من إعمال القسوة والشدة مما لم يكن اكثره فى العهد الاموي ،

(١) الجهشياري ص ١٠٣ .
(٢) الحضارة الاسلامية ص ٢٢٦ .

ولا يمكننا استعراضه . وقد أفصح التاريخ عن كثير من ذلك .

* * *

هـذه نظرة موجزة لسياسة العباسيين وسيرتهم التي ساروا فيها بالرعية ، ولا تسعنا الاطالة في ذلك .

والغرض ان الامة لم تحقق أمانيها فى ظل الدولة العباسية، وقد انكر الناس ذلك ، ولـكن ظلمة السجن حجبت شعاع الحرية ، ولغة السيف أخرست المتظلم ، ووقف أهل البيت في مقابلتهم موقف الحزم والبطولة ، ولم يتنازلوا عن معارضتهم وشدة الانكار عليهم ، فكانت معاملة بني العباس لهم ولانصارهم بقسوة متجردة عن معاني الرحمة ، وراقبوهم أشد المراقبة وضيقوا عليهم سعـــة الدنيا ليحملوهم على التنازل عن مبادئهم .

فكان نصيب بني العباس التمتع بمسرات الحياة ولذائذ الدنيا، وجمع الاموال ونشر السلطان ، وازهاق النفوس وحصد الرقاب .

ونصيب أهل البيت ألم الحديد ، ونقل القيود ، وظلمة السجون ، والتحلي بابراد الشهادة وهي مطرزة بدمائهم الزكية .

* * *

ولا نحتاج الى اكثر من هذا البيان لذلك العصر ومافيه من تبدل وتطور. والحقيقة ان الدولتان الاموية والعباسية سارتا على منوال واحد ، ولـكن هناك فرق بين السيرتين . فالدولة الأموية لم تجعل لمظاهر الدين مزيد اهتمام ، وانما اعتمدت على قوة بطشها ونفوذ سلطانها بالعسف والارهاب . أما الدولة العباسية فكانت تحاول ربط أعمالها بالدين ، وأن تكتسب ثقـة الامة بتلك المظاهر التي مر بيانها، ولـكنها ابتعدت عنه وتكشفت الحقائق ولم يكن هناك شيء من التكتم .

ولم يؤثر عن مالك بن انس معارضة للوضع ولا دعوة الى اصلاحه ، ويمكننا أن نستنتج رأيه فى الدولة بعد دراستنا لامتزاجه بهم وا كرامهم له هو : رأي الحسن البصري فى الدولة الاموية. وقد استعان به العباسيون في كثير من مهماتهم وأهمها مسألة التفضيل التي لم تقم على قواعد علميـــة وتأويل النصوص الواردة فى أهل البيت .

نعم هنـاك رسالة تنسب الى الامام مالك تحتوي على جملة من المواعظ والسنن ، يقال : أرسلها مالك الى الرشيد أو الى يحيي البرمكي ، فلما وصلت أمر الرشيد بكتابتها بالذهب (١) .

وقد ذكرها القاضي عياض في ضمن ما ذكره من كتب مالك ، وأول من حدث عنها بالاندلس ابن حبيب .

وينحصر سند هذه الرسالة بأبي بكر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن مالك بن انس، انه كتب بهذه الرسالة الى يحيي البرمكي ، ومرة اخرى الى هارون الرشيد ، فالذي عن ابي بكر مختلف في من وجهت اليه . فمرة الى خالد ومرة الى هارون وحاولوا الجمع لذلك بتكرارها وانها وجهت لكل منهما، وهو أمر غير مستساغ من فحوى الرسالة، وبالاعراض عن مناقشة السند ، فقد أراحنا كثير من علماء المالكية عن فحصه ونقاشه منهم : القاضي اسماعيل المالكي ، والابهري ، وابو محمد بن ابي زيد ، فقد قال : انها لا تصح وان طريقهـا الى مالك ضعيف ، وفيها أحاديث لا نعرفها . وقال الابهري : فيها أحاديث لو سمع مالك من يحدث بها لأدبه ، وأحاديث منكرة تخالف اصوله ، وقالوا فيها أشياء اخرى لا تعرف

---

(١) طبعت هذه الرسالة فى مصر مستقلة فى المطبعـة الأميرية سنة ١٣١١ وطبعت بالمطبعة المحمودية سنة ١٣٤٣ وطبعت فى خاتمة كتاب سعد الشموس وهى لا تتجاوز ٢٨ صفحة .

من مذهب مالك ، وقد انكرها أصبغ بن الفرج أيضاً ، وحلف ماهي من وضع مالك .

والحقيقة ان الرسالة موضوعة ، لأنها خالية عما يخص العدل والالتزام به وترك الظلم الذين هما أخص مايخاطب به الملوك إلا قليلا ، بل الرسالة تذكر المستحبات كقوله في ص ٤ : وصلّ من النهار اثني عشر ركعة واقرأ فيهن ما أحببت إن شئت صلهن جميعاً وان شئت متفرقات وقوله : وصم ثلاثة أيام من كل شهر، ويتعرض للغسل في الحمام وسائر المستحبات ، وقوله في ص ٧ : اقلل طلب الحوائج من الناس فان في ذلك غضاضة ، وبلغني عن النبي انه قال لرجل : لا تسأل الناس . ومثل هذا كيف يخاطب به الملوك ؟ ويقول : لتكن يدك العليا على كل من خالطت ، فانه بلغني عن النبي (ص) انه قال : اليدالعليا خير من اليد السفلى . ثم يتعرض الى سنن الاكل والشرب واستحباب الجلوس في المسجد، الى غير ذلك من الامور التي تدل بكل وضوح على ان الرسالة منتحلة ولا أصل لها ، ويقرأها الوعاظ والمرشدون .

وبهذا يظهر ان مالك لم يسجل له التاريخ موقفاً يعارض به ظلم الظالمين على ما اوتي من مكانة عندهم وحظوة لديهم . ويمكننا ان نعتبره عالم الدولة في عصره مع مطاردتهم لكثير من علماء ذلك العصر ، فقد كان الامويون في الاندلس يشيدون بذكره لمدحه إياهم ويرغبون بان يذكرهم مالك بخير في دار الهجرة كما سبق منه ذلك .

وكان العباسيون يعتمدون على ما يفتي به مالك ، حتى حملوا الناس عليه ومناديهم ينادي : ألا يفتي إلا مالك .

ولما قدم ابراهيم بن سعد الزهري العراق سنة ١٨٤ فاكرمه الرشيد وأظهر

برّه وسأله عن الغناء فافتى بحليته ، وأتاه بعض أصحاب الحديث ليسمع منـــه أحاديث الزهري فسمعه يتغنى فقال له : لقد كنت حريصاً على أن اسمع منك ، أما الآن فلا سمعت منك حديثاً واحداً . فقال الزهري : اذاً لا أفقد شخصك. عليّ وعليَّ إن حدثت ببغداد حديثاً حتى اغني قبله . وشاعت هذه الحـكاية عنه ببغداد، فبلغت الرشيد فدعى به فسأله عن حديث المخزومية التي قطعها النبي (ص) في سرقة الحلي . فدعا ابراهيم بعود . فقال الرشيد : أعود المجمر ؟ قال : لا ، ولـكن عود الطرب ، فتبسم الرشيد ففهمها ابراهيم بن سعـد فقال : لعله بلغك يا أمير المؤمنين حديث السفيه الذي آذاني بالامس والجأني الى أن حلفت . قال : نعم ، ودعا الرشيد بعود فغناه ابراهيم .

يا ام طلحة ان البين قد افدا قل الثواء لئن كان الرحيل غدا

فقال الرشيد: من كان من فقهائكم يكره السماع ؟ قال : من ربطه الله قال: فهل بلغك عن مالك بن أنس فى هذا شيء ؟ قال: لا والله إلا أن ابي اخبرني انهم اجتمعوا فى مدعاة كانت فى بني يربوع وهم يومئذ جلة ومالك أقلهم في فقهه وقدره ، ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون ، ومع مالك دف مربع وهو يغنيهم :

سليما اجمعت بينا فاين لقاؤها أينا

وقد قالت لأتراب لها زهرٍ تلاقينا

تعالين فقد طاب لـ نا العيش تعالينا (١)

ودخل الحسن بن حماد المدينة وغنى في الطريق :

ما بال قومك يا رباب خزراً كأنهم غضاب

(١) تاريخ بغداد ج ٦ ص٨٤ .

قال : فبدا من كوة شيخ له لحية حمراء ، فقال: يافاسق أسأت التأديب فغن الصوت غناءً لم أسمع بمثله ، فسألته من أين لك هـذا ؟ قال : نشأت وانا غلام فاعجبني الأخذ عن المغنين فقالت امي: يابني إن المغني اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه فدع الغناء واطلب الفقـه ، فتركت المغنين وتبعت الفقهاء فبلغ الله بي الى ماترى ، فقلت : اعد الصوت جعلت فداك . فقال : لا ، ولا كرامة تريد أن تقول أخذته عن مالك بن أنس . واذا به مالك رضي الله تعالى عنه (١) .

والغرض ان العباسيين وجهوا عنايتهم لمالك بن أنس لما لمسوه فيـــه من موافقتهم فيما يهدفون اليه في سياستهم وكانوا يوجهون الأسئلة اليـه فيـكون الجواب طبق مايريدونه .

لما قدم الرشيد المدينة ارسل الى مالك فاتاه وهو واقف امام قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما قام بين يديه وسلم عليه بالخلافـة قال : يامالك صف لي مكان أبي بكر وعمر من رسول الله (ص) في الحياة الدنيا ، فقال مالك : مكانهما منه كمـكان قبريهما من قبره فقال: شفيتني يامالك (٢) .

تنبيهات :

١ — تركتنا التعرض لآراء مالك واقواله فان له آراء في السياسة والعقائد وأقوال في امور مختلفة ، لأن ذلك يستدعي الاطالة والتوسع في البحث ، ولـكن رأيا واحداً من تلك الآراء لا يمكننا أن نتجاوزه بدون بيان وتفصيل ، وهو رأيه فى التفضيل ، فهو يكاد يتفرد به عن سائر علماء الامة ، فرأينا التعرض

(١) سرح العيون لجمال الدين محمد بن نباتة ص ١٤٥ ط ١ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٦٥ .

لذلك مما يلزمنا فى هذا الكتاب وقد افردناه في فصل مستقل سيأتي عن قريب إن شاء الله .

٢ — لم نتعرض للموازنة بين مالك وغيره من أئمة المذاهب ، لأنا لانتعرض لها إلا بعد الانتهاء من دراسة حياة الأئمة الأربعة .

٣ — أشرنا لموطأ مالك اشارة موجزة ، وسيأتي ذكره فى بحثنا حول تدوين العلم ومن هو الأسبق ، فهل كان أبو حنيفة كما يقوله الحنفية ؟ أم مالك كما يقوله المالكية ، أم غيرهما ؟ وما هو نصيب الشيعة فى تدوين العلوم أسبقهم أحد لذلك أم هم السابقون الاولون ؟ كل ذلك سيتضح إن شاء الله .

٤ — بقيت أشياء تتعلق بحياة مالك من جهة مهنته ومعيشته وسياسته وسيرته وانتشار مذهبه وشهرته ، أعرضنا عنها لضيق المجال واكتفينا بما ذكرناه فى الجزء الأول من الاشارة للبعض . وبهذا ينتهي بحثنا عن حياة الامام مالك . ونحن نأمل أن نوفق لاعادة القول في البحث عن حياته العلميـة وآرائه الفقهية فى الأجزاء القادمة ان شاء الله .

تدوين العلم

هذا تمهيد لابحاث تأتي فيما بعد حول علم الحديث وسائر العلوم ، فان لعلم الحديث أهمية كبرى ، فهو المدار لتفصيل الاحكام وتبيين الحلال من الحرام ، وقد اعتنى رجال الامة فى معرفة الأحاديث النبوية ، وسنتعرض لبيان اقسامه وصفات رواته بماله تمام الصلة بموضوعنا . والكلام هنا يقع حول امرين :

١ — فى أي عصر ظهر التدوين ، هل هو فى الصدر الأول ، أم فى العهد الاموي ، أم في العهد العباسي ؟ .

٢ — فى تعيين أول من دوّن في الاسلام .

اختلفت أقوال المؤرخين فى ذلك ، فمن قائل : ان التدوين ظهر في عهد الصحابة ، ومنهم من يقول : انه في آخر العهد الأموي وأن عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ أمر بجمع السنن فكتب دفاتر فبعث بها الى كل بلد ، أو أنه امر ابن شهاب الزهري بالتدوين ، الى غير ذلك من الاختلاف في الأقوال .

وها نحن ذا ندرس الموضوع لنقف على حقيقة الأمر والواقع ، ولا مشاحة فان حركة التأليف كانت فى العصر العباسي قوية والنزعة الى ذلك شديدة ، لتشجيعهم الحركة العلمية ، وانتعاش العلوم في ظل سلطانهم ، لأنهم يحاولون الالتساق الوثيق بين الدين والدولة ، لصبغها بصبغة دينية وجعل امورها على منهاج شرعي ، كما اقتضت سياستهم لذلك ، وقد مر بيانه .

والخلاف إنما يقع فى عهد من تقدمهم ، اذاً لابد ان نتعرض للاقوال

لاستكشاف الحقائق ومعرفة السابق الى التدوين في الاسلام .

قال السيوطي فى شرح الموطأ : أخرج الهروي فى ذم الكلام من طريق الزهري : ان عمر بن الخطاب أراد ان يكتب السنن واستشار فيه أصحاب رسول الله . فاشار عليهم عامتهم في ذلك ، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شا كافيه ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : اني ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فاذا اناس من أهل الكتاب من قبلكم كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فاكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، واني والله لا البس كتاب الله بشيء فترك كتابة السنن (١) .

وكان كثير من الصحابة والتابعين يكره كتابة العلم وتخليده فى الصحف كعمر ، وابن عباس ، والشعبي ، وقتادة ومن ذهب مذهبهم .

قال فى مختصر جامع بيان العلم : « من كره كتابة العلم إنما كرهه لوجهين : أحدهما ـ أن يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به ، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب ، فلا يحفظ فيقل الحفظ » .

وهذا هو رأي عمر وما أدى اليه اجتهاده فى ذلك . وقال ابن عبد البر أيضاً : كان اعتماد الصحابة أولا على الحفظ والضبط فى القلوب غير ملتفتين الى التدوين ، فلما انتشر الاسلام وتفرقت الصحابة ومات معظمهم مست الحاجة الى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة . (٢)

وبهذا يظهر أن التدوين عندهم متأخر عن الصدر الأول ، كما مر من رأي عمر فى ذلك ، ويذهب الغزالي الى أن حدوث التدوين كان في سنة ١٢٠

(١) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ص ٣٥ .

(٢) جامع بيان العلم ص ٣٤ .

وبعضهم يرى انه قبل ذلك في عهد عمر بن عبد العزيز .

جاء فى الموطأ ان عمر بن عبد العزيز كتب الى ابي بكر بن محمد بن عمر ابن حزم : ان انظر ما كان من حديث رسول الله أو سنته فاكتبه ، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، وأوصاه أن يكتب له ماعند عمرة بنت عبد الرحمن الانصارية والقاسم بن محمد بن ابي بكر . واخرج ابو نعيم فى تاريخ اصفهان عن عمر بن عبد العزيز انه كتب الى الآفاق : « انظروا الى حديث رسول الله فاجمعوه » .

وابو بكر بن محمد بن عمر هذا كان أنصاريا مدنيا ولي القضاء على المدينة لسليمان بن عبد الملك ولعمر بن عبد العزيز ، وتوفي سنة ١٢٠ ، وكانت ولاية عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ الى سنة ١٠١ ، فعلى هذه الرواية قد يكون أمر ابو بكر بالجمع حول سنة ١٠٠ . يقول الدكتور احمد امين : ولكن هل نفذ هذا الامر ؟ كل ما نعلمه انه لم تصل الينا هذه المجموعة ولم يشر اليها ـ فيما نعلم ـ جامعو الحديث بعد . ومن أجل هذا شك بعض الباحثين من المستشرقين فى هذا الخبر ، إذ لو جمع شيء من هذا القبيل لكان من أهم المراجع لجامعي الحديث ، ولكن لاداعي الى هذا الشك فالخبر يروي لنا ان عمر أمر ، ولم يرو لنا أن الجمع تم . فلعل موت عمر سريعاً عدل بابي بكر عن ان ينفذ ما أمر به (١) فلما جاء العصر العباسي وانتصف القرن الثاني بدأ التأليف فى الحديث ، كما بدأ في العلوم الاخرى ، ووجدت هذه النزعة الى تدوين الحديث في امصار مختلفة وفى عصور متقاربة ، ففي مكة جمع الحديث ابن جريج المتوفى نحو سنة ١٥٠ (الرومي الاصل) ولم يوثقه البخاري ، وقال : « انه لا يتابع في حديثه » وفي المدينة محمد بن اسحاق المتوفى سنة ١٥١ ،

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٠٦ — ٦٠٧ .

ومالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ، وبالبصرة الربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٠ ، وسعيد بن ابي عروبة المتوفى سنة ١٥٦ ، وحماد بن سلمة المتوفى ١٧٦ ، وبالكوفة سفيان الثوري المتوفى ١٦١ ، وبالشام الاوزاعي المتوفى سنة ١٥٦ ، وباليمن معمر المتوفى سنة ١٥٣ ، وبخراسان ابن المبارك المتوفى سنة ١٨١ ، وبمصر الليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ .

قال في كشف الظنون : واعلم انه اختلف في أول من صنف في الاسلام فقيل الامام عبد العزيز بن جريج البصري المتوفى سنة ١٥٥ ، وقيل ابو النضر سعيد بن عروبة المتوفى سنة ١٥٦ ، ذكرهما الخطيب البغدادي . وقيل ربيع ابن صبيح المتوفى سنة ١٦٠ ثم صنف سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ ومالك بن انس بالمدينة ، وعبد الله بن وهب المتوفى سنة ١٩٨ بمصر ، وعبد الرزاق باليمن ومحمد بن فضيل بن عزوان بالكوفة وحماد بن سلمة وروح بن عبادة بالبصرة ، وهيثم المتوفى سنة ١٨٣ بواسط ، وعبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨٢ بخراسان .

قال الغزالي في الاحياء : بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين ، وإنما حدثت بعد سنة ١٢٠ من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجل التابعين ، وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين ، بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر ، وقالوا : احفظوا كما كنا نحفظ . . . وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك تصنيف الموطأ ، ويقول : ابتدع مالم تفعله الصحابة ، وقيل أول كتاب صنف فى الاسلام كتاب ابن جريج فى الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة ، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني المتوفى سنة ١٥٤ باليمن جمع فيه سننا

مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك ، ثم جامع سفيان الثوري ، ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام ، وكثر الخوض في الجدال ، والغوص في ابطال المقالات (١) .

وقال ابن عبد البر عن عبد العزيز الدار وردي قال : أول من دوّن العلم وكتبه ابن شهاب . وعن عبد الرحمن بن ابي الزناد عن أبيه قال : كنا نكتب الحلال والحرام . وكان ابن شهاب يكتب كل ماسمع .

وقال السيوطي : أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه سليم بن عز : قضى في ميراث وأشهد فيه ، وكتب كتابا بالقضاء وأشهد فيه شيوخ الجند ، فكان أول القضاة تسجيلا ، وكانت ولايته من سنة ٤٠ الى موت معاوية، فترى من هذا أن الجمع بدأ في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني — غالباً — وأن الفكرة فشت في الامصار المختلفة ، ومن الصعب تحديد أي مصر كان له السبق ، إلا اذا اعتبرنا أن ابن جريج في مكة كان أسبق هؤلاء العلماء موتا ، فيكون اسبقهم تأليفاً ، وربما قلد في ذلك ، وعمت الفكرة في الأمصار من طريق الحج ، فالعلماء الذين رحلوا الى مكة أخذوا فكرة جمع الحديث منها أثناء حجهم ، ونشروها في بلادهم ، وجمعوا مافي مصرهم من الحديث ، كما جمع ابن جريج أحاديث مصره .

* * *

هذا ملخص ما في الباب من الاختلاف وكثرة الأقوال . ومن المؤسف له أن اكثرهم أهمل ناحية سبق أهل البيت واتباعهم الى التدوين في جميع العلوم الاسلامية . ولا يستغرب فالظروف قد اقتضت ذلك ، نظراً لسياسة الوقت ،

(١) الاحياء ج ٢ ص ١٤٣ — ١٤٤ .

فعدم تعرضهم لذلك لا لجهة العدم ، وانما هي امور لا تخفى على المتتبع . والحق الذي لا غبار عليه : أن اهل بيت النبي هم الحائزون على قصب السبق ، وقد وجهوا عنايتهم التامة في تدوين العلوم ، واحتفظ تلامذتهم والمختصون بهم فى ذلك. فسجلوا ما تلقوا عنهم ، وحفظوا ما أخذوه منهم .

يقول العلامة مصطفى عبدالرزاق — عند ذكره لأول من دون الفقه — :

وعلى كل حال فان ذلك لا يخلو من دلالة على أن النزوع الى تدوين الفقه كان أسرع الى الشيعة ، لأن اعتقادهم العصمة فى أئمتهم أو ما يشبه العصمة كان حريا أن يسوقهم الى الحث على تدوين أقضيتهم وفتاواهم (١) .

وان اسبق كتاب فى الفقه هو كتاب قضاء الامام علي بن ابي طالب الذي كان عند ابن عباس منه نسخة يعتمد عليها .

أهل البيت :

رأينا كيف اختلفت الأقوال فى تعيين السابق الى تدوين العلم فى الاسلام، والمحاولة التي تقضي بظاهرها صرف الحق في ذلك عن اهله ، كغيرها من المحاولات التي اتخذت ضدهم من قبل المناوئين لهم ، وخصومهم الذين كان يزعجهم ذكر آل محمد بخير ، لأن ذلك يدخل على خصومهم القلق ، وعدم الاستقرار ، والتنعم فى ملاذ الحياة . ولكن اكثر المسلمين احتفظوا بالولاء رغم كل محاولة .

وإن لأهل البيت قدماً راسخاً فى العلم ، وآثاراً خالدة فى الاسلام . وفى الواقع ان اول من دوّن العلم هو سيد الأوصياء وامام البلغاء علي بن ابي طالب

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٠٢ .

عليه السلام ، وإن اسبق كتاب في الفقـه هو كتاب قضاء الامام علي (ع) وأحكامه، فقد كانت عند ابن عباس منه نسخة ينظر فيها لأخذ أهم القضايا في القضاء عنه. وعند أولاده صحف بمختلف الفنون والعلوم يتوارثونها عنه واحداً بعد واحد . ودوّن تلاميذه في عصره ما سمعوه منـــه وتلقوه عنه من الأحكام في الدين . كعبد الله بن ابي رافع ، والأصبغ بن نباتة ، وغيرهم الذين يأتي ذكرهم .

عهد مالك :

إن اعظم أثر خالد — دونه الامام علي بن أبي طالب — هو عهده لمالك الأشتر الذي يحتوي على أهم القواعد والاصول التي تتعلق بالقضاء والقضاة ، وادارة الحكم فى الاسلام ، وقرر فيه قواعد مهمة فى التضامن الاجتماعي ، بل التعاون الانساني فى إقامـة العدل ، وحسن الادارة ، والسياسة وبيان صلاح الهيئة الاجتماعيـة ، وتنظيم الجيش ، وبيان الخراج وأهميته ، وكيف يجب أن تكون المعاملة فيه ، والنظر في عمارة الأرض وما يتعلق بذلك من اصول العمران ، وما فيه صلاح البلاد ومنابع ثروته ، وما للتجارة والصناعة من الأثر فى حياة الامة الى غير ذلك من القواعد الهامة التي تهدف الى اسمى هدف فى العدل الاسلامي وهو لا يعد فى عداد الرسائل أو العهود القصيرة الموجزة ، بل هو يعتبر فى الواقع كتابا مستقلا له أهميته فى التشريع الاسلامي ، حتى أصبح موضع العناية من رجال الفكر ، وأعطوه كبير عناية بالشرح والافاضة ، واعتنى به علماء القانون وساسة الامم ، فهو أثر خالد ومفخرة للاسلام على ممر الدهور . إذاً فليس من الصحيح إهماله وجعله جزء من كتاب ، بل هو كتاب برأسه وقانون للتشريع الاداري بذاته .

ولهذا العهد شروح عديدة ، منها :

١ — شرح العلامة المصلح مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ الموسوم « مقتبس السياسة » المطبوع سنة ١٣١٧ .

٢ — شرح السيد الماجد البحراني ، وسماه « التحفة السليمانية » شرحه في ستين فصلا ، طبع في طهران .

٣ — شرح المولى محمد صالح الروغني القزويني من علماء القرن الحادي عشر .

٤ — شرح المولى محمد باقر ، وقد يظن أنه المجلسي المتوفى سنة ١١١١ .

٥ — شرح سلطان محمد المتوفى سنة ١٣٥٤ الموسوم اساس السياسة في تأسيس الرياسة .

٦ — شرح العلامة الهادي البرجندي المطبوع سنة ١٣٥٥ .

٧ — شرح الحسين الهمداني الموسوم « هدية الحسام لهداية الحكام » .

٨ — ترجمة الفاضل محمد جمال الدين لهذا العهد الشريف . الى اللغة التركية منظوماً نظماً لطيفاً (١) .

٩ — شرح العلامة الشيخ عبد الواحد المظفر ، مخطوط .

١٠ — وشرحه شراح نهج البلاغة بشروح وافية ، كابن ابي الحديد، والشيخ ميثم ، وغيرهما من العلماء الاعلام .

١١ — شرح القانوني الكبير الاستاذ توفيق الفكيكي الموسوم بـ« الراعي والرعية » وهو شرح يمتاز عن غيره بكثير من النواحي ، أهمها تطبيقه تلك القواعد على نظم العصر الحاضر من القوانين الحديثة . وقد طبع في النجف سنة ١٣٥٨ ويقع في مجلدين .

(١) انظر مقدمة كتاب الراعي والرعية للحجة المصلح السيد هبة الدين الشهرستاني .

كما أن لهذا العهد شروح كثيرة لا يمكن الاحاطة بها . ذكرها شيخنا الحجة الشيخ محسن الطهراني في كتابه « الذريعة » .

فكتاب عهد الامام علي بن ابي طالب هو المثل الأعلى للحكم الدمقراطي في الاسلام ، لما فيه من أهم القواعد السياسية ، والادارية ، والقضائية ، والمالية ، والنظريات الدستورية .

فجدير اذا اعتنى به علماء الامة ، ورجال الحكم ، وارباب السياسة والتشريع والقضاء واعطوه اهمية كبرى وعناية عظيمة .

وسار أولاده واحفاده في تشجيع حركة التدوين ، واحتفظ التاريخ بكثير من تلك الآثار الخالدة .

رسالة الحقوق :

ويجب ان لا يغيب عن بالنا ما لرسالة الحقوق التي كتبها الامام زين العابدين عليه السلام ، فهي في الواقع من اعظم الكتب التي دونت فى القرن الاول ، وهي تحتوي على خمسين فصلا في بيان أهم الحقوق التي يلزم على الانسان القيام بها ، لما فى ذلك من صلاح الهيئة الاجتماعية فى سياسة الانسان نفسه ، وسيرته مع أبناء جنسه ، وما يلزم على الحكام فى سيرتهم مع الرعية ، وما يجب على الرعية للحكام ، وما يجب على العبد من العبودية لله وشكره ، والقيام بما يجب عليه الى غير ذلك من بيان أهم الحقوق والواجبات كحق الصلاة ، وحق السلطان ، وحق الرعية ، وحق الرحم ، وحق الوالد ، وحق الولد وحق الجليس والصاحب ، وحق الخصم ، وحق الغريب الى آخر فصولها القيمة . وهي كبيرة . وقد طبعت في طهران فى ضمن كتاب تحف العقول .

مسند زيد ومدونته :

ولزيد بن علي بن الحسين بن ابي طالب مسند كبير ، جمع فيه الحديث عن آبائه وأخيه الباقر عليهم السلام ، وهو لا يزال محل اعتماد المحدثين . ونقلوا عنه في كتب الحديث ، ويرمزون له بـ (ز) . وعده فى كتاب مفاتيح كنوز السنة من الكتب المعتمدة المنقول عنها ، وأحصى عدد أحاديثه . وكذلك لمحمد ابن الحنفية مسند فى الحديث ، له ذكر مشهور .

ولزيد بن علي مدونة فقهية اكتشفت بين المخطوطات القديمة فى المكتبة الامبروزية بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبية .

وهذا المخطوط يعد أقدم مجموعة فى الفقه الاسلامي . وعلى كل حال ينبغي أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف في الفقه الاسلامي (١) .

ولا مشاحة في أن سبق أهل البيت الى تدوين الفقه وسائر العلوم الاسلامية أمر لا يمكن انكاره .

فقد دوّنوا العلم وامروا تلامذتهم في ذلك ، فكانوا يأمرونهم بالكتابة ، فدونوا ما تلقوه منهم في سائر العلوم . وليس من شك أن نزعة التدوين عند الشيعة كانت من عهد الامام علي عليه السلام .

فهذا علي بن ابي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله كان من تلامذة امير المؤمنين وخواصه ، ذكره النجاشي في الطبقة الاولى من مصنفي الشيعة ، وجمع كتابا في فنون الفقه تلقى ذلك عن أمير المؤمنين (ع) وكانوا يعظمون

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٠٠ .

هذا الكتاب. وله كتاب السنن والاحكام .

وعبيد الله بن ابي رافع كاتب امير المؤمنين (ع) له كتاب قضايا امير المؤمنين (ع) برويه الشيخ الطوسي ، وله كتاب تسمية من شهد مع أمير المؤمنين (ع) الجمل وصفين والنهروان ، وهو أول مصنف في الرجال ذكره الشيخ محسن الطهراني في مصفى المقال في علم الرجال .

وسليم بن قيس من اصحاب أمير المؤمنين (ع) له كتاب يرويه عنه أبان بن عياش ، وسيأتي الحديث حول هذا الكتاب .

وغير هؤلاء من أصحاب أمير المؤمنين ممن سبقوا الى التدوين. ولما نشطت الحركة العلمية في عهد الامام الباقر وولده الامام الصادق ، كثر تدوين الفقه والحديث وسائر العلوم عنهم ، واتجه تلامذتهما الى التأليف ، ولا بد من الاشارة الى ذلك بموجز من البيان .

عصر الامام الباقر :

كان لا نتعاش العلم في ذلك العصر اثر في اتجاه الناس الى الأخذ عن أهل البيت، وقدمت الاشارة الى اتساع مدرسة الامام الباقر ، فكان (ع) قد وحّد جهوده الى نشر العلم، فاتجهت اليه طلاب الحقيقة ، لأنه خير رائد وأعظم مرشد .

وهو أول من أسس علم الاصول وفتح بابه وفتق مسائله ، ومن بعده ولده الامام الصادق ، وقد امليا على اصحابهما قواعده وجمعوا من ذلك مسائل دونها المتأخرون حسب ترتيب المصنفين فيه برواية مسندة اليهما من دون دخل لآرائهم فيها، ولا وضع قول الى جنب قولهما ، وتلك الكتب موجودة الى هذا الوقت .

فالامام الباقر هو واضع علم الاصول وفاتح بابه . وأول من صنف فيه

هو هشام بن الحكم : صنف كتاب الالفاظ ومباحثها، وهو أهم مباحث علم الاصول، ثم من بعده يونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين صنف كتاب اختلاف الحديث ومسائله ، وهو مبحث تعارض الحديثين ومسائل التعادل والتراجيح ، ثم أخذت حركة التأليف في الاصول من بعدهما بالتوسعة ، واشتهر منهم أئمة أعلام : منهم ابو سهل النوبختي والحسن بن موسى النوبختي،وهما من علماء القرن الثالث، ومن بعدهما ابن الجنيد وأبو منصور الصرام ، وابن داود والشيخ المفيد والسيد المرتضى وغيرهم عدد كثير .

فالقول بان الشافعي هو واضع علم الاصول ظلم للحقيقة وخروج عن حدود الانصاف ، على أن هذا القول لا يؤيده بقية العلماء من سائر المذاهب ، فللحنفية اصول وللمالكية اصول . نعم لا ينكر أن الشافعي ألف في الاصول ووسع دائرة بحثه ويعتبر عندهم أول من صنف فيه ؛ وهو متأخر عن مصنفي الشيعة الذين سبقوا للتصنيف في علم الاصول ، وقد ذكر ابن النديم كتاب مباحث الالفاظ في تعداد مؤلفات هشام بن الحكم . على انا نجد في كتاب الفهرست أيضاً في ترجمة محمد بن الحسن الشيباني صاحب ابي حنيفة ذكر كتاب له يسمى اصول الفقه . وتدعي الحنفية أيضاً ان أول من وضع الكتب في اصول الفقه على مذهب ابي حنيفة هو ابو يوسف (١) .

والغرض ان دعوى وضع الشافعي لعلم الاصول غير صحيحة ، بل يقول الاكثر : انه أول من صنف في اصول الفقه صنف فيه كتاب الرسالة وكتاب أحكام القرآن كما جاء في البحر المحيط للزركشي .

ويقول ابن خلدون : أول من كتب في علم الاصول الشافعي أملى فيه

(١) مناقب ابي حنيفة المكي ج ٢ ص ٢٤٥ .

رسالته المشهورة تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس .

وقال في كشف الظنون : أول من الف فيه الشافعي اذاً فالشافعي مؤلف لا واضع ، ونحن لا ننكر ذلك . ولكن هشام ابن الحكم كان أسبق من الشافعي لأنه الف مباحث الالفاظ من الاوامر والنواهي والبيان والنسخ ، وغير ذلك الذي تلقى معلوماتها عن استاذه الامام الصادق قبل ولادة الشافعي . وكانت وفاة هشام سنة ١٧٩ ووفاة الشافعي سنة ٢٠٤ فرسالة هشام بن الحكم - في علم الاصول التي ذكرها النجاشي والكشي وابن النديم - اقدم من رسالة الشافعي اخذاً وتأليفاً .

وقد وصف الشهرستاني صاحب الملل والنحل هشاماً بانه صاحب غور في الاصول ورسالة الشافعي نقضها ابوسهل النوبختي من علماء القرن الثالث، وهو من علماء الشيعة .

وان للامام الباقر (ع) كتاب في التفسير يرويه عنه ابو الجارود وقد مرت الاشارة اليه .

أما تلامذته الذين الفوا في عصره فعددهم كثير :

منهم - ثابت بن دينار يرويه الشيخ الطوسي بطريق واحد، وله كتاب النوادر وكتاب الزهد ، رواهما حميد بن زياد عن محمد بن عياش .

وابان بن تغلب وهو من المؤلفين بشتى العلوم، وكان من تلامذة الباقر والصادق ، ذكره ابن النديم .

وحجر بن زائدة الحضرمي له كتاب في الحديث يرويه عنه النجاشي بست وسائط .

وسلام بن ابي عمرة الخراساني له كتاب رواه عنه عبدالله بن جبلة والنجاشي باسناده الى ابن جبلة عنه ، وهو من الكتب الموجودة الباقية بالهيئة الأصلية (١) .

---

(١) الذريعة ج ٦ .

وكليب بن معاوية بن جبلة الصيداوي الاسدي له كتاب في الحديث يرويه عنه جماعة : منهم ـ عبدالرحمن بن ابي هاشم ، ويرويه النجاشي بخمس وسائط عنه . وغيرهم كثير لا يسع المقام ذكرهم .

عصر الامام الصادق :

وهو أزهر العصور في نشاط الحركة العلمية والنزوع الى التدوين . والامام الصادق هو زعيم تلك الحركة والمعلم الاول في ذلك العهد ، فقد انتمى لمدرسته عظماء الامة ورجال العلم ورؤساء المذاهب .

وكان بيته كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام ، فكان يحضر درسه في أغلب الأوقات الفان ، وفي بعض الاحيان اربعة آلاف من العلماء المشهورين ، وقد الف تلاميذه من جمع الاحاديث والدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف المذهب الشيعي أو الجعفري ، وقد بلغ عددها في ايام الامام الحادي عشر اربعمائة كتابا .

فهشام بن الحكم ، والطاقي وزرارة وابو بصير ومحمد بن مسلم من نوابغ تلاميذ الامام جعفر الصادق ، وهم في الحقيقة المرجع الاصلي لفقه المذهب الجعفري أو مذهب الشيعة وحكمته ، وكان خلفاء الامام جعفر الصادق يعدون مورداً فياضاً للاستفادة المذهبية والعلمية للشيعة (١) .

وتسابق اعيان تلامذته الى تدوين الحديث والمسائل الفقهية ، فكان مجموع

(١) انظر رسالة الاسلام العدد ٤ السنة السادسة من مقال للاستاذ السيد صادق نشأة الاستاذ بكلية الآداب بالقاهرة .

ما احصي من التأليف في عصره اربعمائة مُصنّف لاربعمائة مصنف . وذكر الشيخ آغا بزرك في الذريعة (١) من مصنفي تلامذة الامام الصادق في الحديث فقط اكثر من مائتي رجل مع تراجمهم عدا المؤلفين من سائر اصحاب الأئمة عليهم السلام ومجموع ما ذكره ٧٣٩ كتابا ، ماسوى الكتب التي ذكرها بعنوان الاصول . وقال في خاتمة البحث :

« هذا آخر ما ظفرنا به من فهرس كتب قدماء الاصحاب التي لم تسم إلا باسم الكتاب وعبّرنا عنها بكتاب الحديث لاشتمالها على أحاديثهم التي يروونها عن الأئمة (ع) قد أودعت تلك الروايات بعين الفاظها في المجاميع الاربعة التي الفها المحمدون الثلاثة القدماء : الكافي ، والتهذيب ، والاستبصار والفقيه ، والمحامدة المتأخرة أي : الوافي ، والبحار ، والوسائل ومستدركه ، وغيرها من المجاميع المخطوطة الموجودة في خزائن الكتب في العالم مثل جامع المعارف والاحكام وجوامع الكلم ودرر البحار ، والشفا في اخبار آل المصطفى ومستدرك الوافي ومستدرك البحار وغير ذلك من الكتب ... الخ » .

الخلاصة :

وخلاصة القول ان أهل بيت الرسول هم أسبق الناس الى التدوين وتشجيع الحركة العلمية ، فهم أهل الفضل في كل علم حفظوا على الامة أحكام الرسول واخبروا عن أنباء التنزيل . فكانوا معدن العلم وخزان الوحي وورثة الرسول الاعظم ، وهم عدل القرآن وتراجمه .

ومن الظلم وعدم انصاف الحق الاعراض عن ذكرهم في السبق الى تدوين

(١) الذريعة ج ٦ ص ٣٠١ — ٣٧٤ .

العلم وتعليم الامة فذاك هو الجود على أقوال سلف خضعوا للسلطان خلافا لحرية الرأي .

ومما لاشك فيه ان حركة التدوين عند الشيعة كانت أسبق من غيرهم . واثبات ذلك لا يستدعي كثير مشقة ومزيد عناء ، ولكن الشيء الذي أدى الى أن يتأخر ذكرهم في السبق : هو أن فقههم وحديثهم مأخوذ عن أهل البيت الذين أمر الرسول (ص) باتباعهم ، ولا يخفى على المتتبع المنصف معارضة الامويين والعباسيين لاظهار ذكر آل محمد ونشر مآثرهم، فانهم يرون اظهار ذلك معارضاً لسياستهم ، وقد منع الأمويون جميع المحدثين أن لا يذكروا علياً وأهل بيته بخير ولا يروون حديثهم ، فكان العلماء إذا أرادوا أن يحدثوا عن علي كنوه بابي زينب، ولما جاء الدور العباسي ونشطت الحركة العلمية وظهرت النزعة الى التدوين وقاموا في تشجيعها ، كانت الشيعة في طليعة السابقين لذلك ، ولكن سياسة الدولة وتطور الزمن أدى الى أن يكون المتتبع لآثار آل محمد فى الأحكام بل المعروف بحبهم يصبح متهماً بجرم لا يغفر حتى امتحن كثير من العلماء . فهذا الامام الشافعي على ماهو فيه من اتضاح الحالة والنزعة اتهم في التشيع وحوسب على ذلك ، لأنه كان يظهر حب علي ويعتمد على أحكامه فى احكام البغاة ، وكذلك الحاكم صاحب المستدرك لأنه كان يطعن على معاوية وروى فى كتابه حديث الموالاة وغيره . والحافظ الدارقطني اتهم فى التشيع لأنه كان يحفظ ديوان السيد الحميري . والحافظ النسائي عُذب بل مات من أثر ذلك لأنه حدّث بفضائل علي ولم يحدث بفضائل معاوية ، الى عدد كثير من العلماء المعذبين باتهامهم فى التشيع ، وليسوا كذلك . وانما الشيء الذي أوجب اتهامهم هو : اما رواية مناقب أهل البيت ، أواستنباط مسألة من الاحكام من طريقتهم وتلك حقيقة ملموسة ، أبرزها التأريخ فى مرآته باجلى

صورة وأوضح بيان . فلقي اكثر المحدثين محناً ، وواجهوا مصاعب . أما الذين ارادوا أن يؤكدوا للسلطة القائمة فى زمانهم بأنهم منحرفين عن أهل البيت ، فتجنبوا الرواية عنهم ، ولم يخرجوا فضائلهم ، فكانوا موضع عناية السلطة ومحلا لثقتها التامة .

هذا ما أردنا بيانه من حركة التأليف عند الشيعة فى الصدر الأول .

أما نشاط الحركة العلمية العامة فقد بدأت فى القرن الثاني ، واشهر الكتب التي الفت فى ذلك : مصنف شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ ، ومصنف سفيان ابن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ ، ومصنف الليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ ، وموطأ مالك ابن انس المتوفى سنة ١٧٩ ، ومسند الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ ، ومختلف الحديث له ، والجامع للامام عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، ومجموعات من عاصرهم من حفاظ الحديث كالاوزاعي والحميدي .

موطأ مالك :

لا بد وأن نذكر نبذة يسيرة عن موطأ مالك وفاءً بالوعد وإتماماً للغرض .

وقد تقدم أن المنصور لقي مالكاً من قابل في موسم الحج ، وفاتحه فى كثير من المسائل ، واعتذر اليه عما لقي من عامله على المدينة ، وأمره أن يدوّن كتاباً يحمل الناس عليه ، ليوحد بذلك نظام التشريع ويحمل الناس على الجمود على قول مفتٍ واحد ، الى آخر ماهنالك من أقوال حول تأليف الموطأ ، وقد اشترط المنصور عليه أن لايروي عن علي فوفى مالك بالشرط ، إذ لم يرو عن علي عليه السلام فى موطأه فموطأ مالك من أشهر المؤلفات فى القرن الثاني .

حديث الموطأ :

قال الحافظ ابن حجر : إن كتاب مالك صحيح عنده وعند من يقلده ، على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع (*) وغيرهما .

وجملة ما في الوطأ ١٧٢٠ حديث ، المسند منها ٦٠٠ ، والمرسل ٢٢٨ ، والموقوف ٦١٣ ، ومن قول التابعين ٢٨٥ . وقد وصلت مراسيله من طرق اخرى بواسطة اصحابه ، وقال ابن حزم : فى الوطأ سبعون حديثاً قد ترك مالك نفسه العمل بها ، وفيه احاديث ضعيفة قد رواها جمهور العلماء (١) .

وهكذا ترى العلماء يختلفون فى صحة كل ما اشتمل عليه الموطأ ، لاختلافهم في قبول المرسل ونحوه ، فالمالكية إذ يقبلونه يحكمون بأن كل ما في الوطأ صحيح ، وغيرهم إذ لا يقبل المرسل إلا بقيود لا يقبلون مرسلاته ، ولكن بعض المالكية ندب نفسه لوصل ما ليس متصل السند .

وعلى كل حال فكتاب الموطأ يعد من أوائل الكتب التي الفت في الحديث لا أولها . وقد نشره الآخذون عن مالك فى الامصار : كمحمد بن الحسن الشيباني في العراق ، ويحيى بن يحيى الليثي في الاندلس ، وعبد الله بن وهب ، وعبدالرحمن ابن القاسم ، وأشهب فى مصر ، وأسد بن الفرات فى القيروان .

هذه هي أهم الكتب المدونة فى القرن الثاني عند السنة . وأما حركة التدوين عند الشيعة في ذلك القرن ، فنشاطها مستمر - كما تقدم - من جميع الوجوه وفي جميع العلوم .

(*) المرسل من الحديث ما سقط من مسنده الصحابي بان يرويه التابعي عن الرسول مباشرة . والمنقطع ما سقط من أثناء سنده راو أو اكثر مع عدم التوالى فان كان مع التوالى فذلك المعضل .

(١) مفتاح السنة للخولى ص ٢٤ .

القرن الثالث :

وفيه اتجه الناس الى التدوين بنشاط ملموس ، وحركة قوية ، واتجه رواة الحديث في جمعه الى طريقة الافراد إذ كان قبل ذلك ممزوجاً باقوال الصحابة ، وفتاوى التابعين . وأشهر الكتب المؤلفة لأهل السنة هي : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن ابي داود ، وسنن النسائي ، وصحيح الترمذي ، وسنن ابن ماجة . وهذه هي التي يطلق عليها الصحاح الست ، وأقدمها وأهمها صحيح مسلم والبخاري ، ويطلق عليهما الصحيحان ، وعلى مؤلفيهما الشيخان . وقد وقع الاختلاف في تفضيل أحدهما على الآخر وأيهما أصح وأشد قبولاً . وقد أشرنا لهذا فى الجزء الاول . ولنعط عن كل واحد من الصحاح نظرة اجمالية .

الصحاح الست :

١ — البخاري : محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة (بردزبة) ولد سنة ١٩٤ ومات سنة ٢٥٦ .

كانت أجداده فرساً على دين المجوس . وأول من اسلم من أجداده المغيرة أسلم على يد اليمان الجعفي ، فهو مولى الجعفيين لذلك يقال للبخاري : الجعفي ، لأنه مولى لهم ،

وقد نشأ يتيماً فى حجر امه ، ورحل الى البلدان فى طلب الحديث . ووضع كتابه وخطا فيه خطوة جديدة في جميع الحديث ، إذ لم يقتصر على رواية بلد واحد كغيره من علماء الحديث . والذي يظهر أن تلك الخطوة أخذها عن علي بن المديني ، وذلك ان ابن المديني أ ّلف كتاب العلل ، وكان ظنيناً به ،

فغاب يوماً في بعض ضياعه ، فجاء البخاري الى بعض بني علي بن المديني ، وراغبه بالمال على أن يرى الكتاب يوماً واحداً ، فاعطاه له ، فدفعه البخاري الى النساخ فكتبوه له وردوه اليه ، ولما علم ابن المديني اغتم لذلك حتى مات بعد يسير ، واستغنى البخاري عنه بذلك الكتاب ، وخرج الى خراسان ، ووضع كتابه الصحيح (١) .

وبهذا يتضح أنه سلك طريقة ابن المديني وأخذ كتابه واستغنى فيه ، ولا حاجة الى اطالة القول حول البخاري وصحيحه . فقد اشرنا لذلك فى الجزء الأول ، وذكرنا المؤاخذات من قبل المفكرين عليه كانتقادهم عليه فى ١٢٠ حديثاً . وفى الواقع انها اكثر ، وفى تقطيع الأحاديث وغير ذلك . وعدة ما في البخاري من الأحاديث بالمكرر ٧٣٩٧ ، سوى المعلقات والمتابعات والموقوفات (٢) وبغير المكرر من المتون الموصولة ٢٦٠٢ ومن المتون المعلقة المرفوعة التي لم يصلها فى موضع آخر منه ١٥٩ .

٢ — صحيح مسلم :

وهو يعد فى الدرجة كصحيح البخاري . والناس يختلفون في تقديم صحيح البخاري أو مسلم . وكان مسلم من تلامذة البخاري وشاركه في مشايخه .

(١) تهذيب التهذيب ج ٩ س ٥٤ .

(٢) المعلق من الحديث : ما كان في سنده سقط من أوله . كأن يقول البخاري عن ابن عمر عن النبي (ص) : كذا ، والموقوف : ما انتهى سنده الى الصحابي فلم يذكر فيه قولا لنبي ، ولا فعلا ، ولا وصفاً ، ولا تقريراً . والمقطوع : ما انتهى سنده الى من دون الصحابي كالتابعي . وقد يطلق على المقطوع (موقوف على فلان) أي الذى انتهى اليه السند .

ومسلم هو ابن الحجاج القشيري النيسابوري ولد سنة ٢٠٤ وتوفي سنة ٢٦١، وكان مخلصاً للبخاري ، وحصل بينهما فتور آخر أيامه ، دعاه لأن ينتقد من طريقة البخاري في مقدمة صحيحه .

وقد انتقده الحفاظ بكثرة روايته عن الضعفاء ، وقد طعنوا في مائة وستين رجلا من رواة مسلم .

ومع ذلك فضلوا كتاب مسلم على كتاب البخاري من وجوه :

١ — أن مسلماً ألّف كتابه في بلده بحضور اصوله في حياة شيوخه ، فكان يتحرز في الالفاظ ، ويتحرى في السياق .

٢ — أن مسلماً لا يقطع الحديث كما يفعل البخاري ، لأنه يروي جزءً من الحديث بسند ، وقد يروي جزءً آخر بسند آخر في مكان آخر ، فيصعب على المحدث معرفة الحديث كاملا بأسانيده المختلفة .

٣ — أن البخاري قد يقع له الغلط في أهل الشام وذلك أنه أخذ كتبهم، فربما ذكر الواحد منهم بكنيته . ويذكره في موضع آخر باسمه ، ويتوهم أنهما اثنان . أما مسلم فقلما يقع له الغلط (١) وقال الطيبي : كان من شيوخي من يفضل كتاب مسلم على كتاب البخاري (٢) .

وقال ابو علي النيسابوري : ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم ابن الحجاج في علم الحديث .

وعدد أحاديثه ٧٣٧٥ بالمكرر ، ومن غير المكرر نحو اربعة آلاف ، وقد اجمع الحفاظ على أن البخاري ومسلم لم يستوعبا تخريج الاحاديث الصحاح .

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٠٢ في ترجمة مسلم .
(٢) شرح الفية العراقي ج ١ ص ١٦ .

٣ — صحيح الترمذي :

والترمذي هو : ابو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتولد سنة ٢٠٠ والمتوفى سنة ٢٧١ في أواخر رجب .

سمع الحديث من البخاري ، وغيره من علماء بخارى ، وكان ضريراً والف الصحيح ، وعرضه على علماء الحجاز ، والعراق ، وخراسان ، وسلك طريقة فى تأليفه لم يسلكها من قبله ، وهو بيانه حول درجة الحديث ، وبين الصحيح منه والمعلول ، كما ميز المعمول به من المتروك ، وساق اختلاف العلماء ، وكتابه جليل القدر كثير الفائدة قليل التكرار . وقد فضله بعض الحفاظ على صحيح البخاري .

والترمذي لم يتجنب الرواية عن النواصب والخوارج ، كغيره من اصحاب الصحاح ، وقد احصينا عليه جملة منهم ، كما ان في رجاله كثير من الضعفاء والكذابين منهم :

سيف بن عمر البرجمي ، ويقال السعدي ، ويقال الضبيعي صاحب كتاب الردة والفتوح ، كان يروي الموضوعات عن الاثبات ، وأنه يضع الحديث واتهم بالزندقة . والشيء الذي يلفت النظر ان هذا الرجل وهو سيف بن عمر ، قد اعتمد عليه ابن جرير في تاريخه ، فروى عنه بواسطة مكاتبات السري عن شعيب عنه فى الحوادث الواقعة من سنة ١١ الى سنة ٣٧ . وقد ضبط تلك الموضوعات والاكاذيب — التي توالت عليها السنين ، ولم تنلها يد التنقيب — نابغة القرن العشرين فقيه التاريخ العلامة الأميني (١) . فقد ذكر الطبري فى ج٢

(١) انظر الغدير ج ٨ ص ٣٣٦ .

من تاريخه فى حوادث سنة ١١ ، ٦٧ حديثاً عن سيف بن عمر واخرج في ج ٤ فى حوادث سنة ١٢ . ٤٢٧ حديثاً عن سيف بن عمر واورد فى ج ٤ في حوادث سنة ٢٣ . ٢٠٧ احاديث المجموع ٧٠١ .

وهذه القائمة العظيمة ـ التي ذكرها الطبرى عن هؤلاء المجاهيل والكذابين ـ لها تمام الأثر الفعال فى تمويه الحقيقة ، ومخالفة الحق ، وإثارة نار البغضاء بين المسلمين . ولو وسع المجال لأعطينا أنموذجا منها . وقد سار على ذلك المؤرخون من بعد الطبري ، كابن الأثير ، وابن كثير ، وابن خلدون بدون تحقيق ، بل تقليداً للطبرى .

٤ — صحيح ابى داود :

ابو داود هو : سليمان بن الأشعث بن اسحق بن بشير الأزدي المتولد سنة ٢٠٢ والمتوفى سنة ٢٧٥ كان من الحفاظ ، وعده الشيرازي في الطبقات من تلامذة احمد وصحيحه المعروف بسنن ابي داود . قال فيه الخطابي: كتاب السنن لابي داود كتاب شريف لم يصنف في علم الدين مثله ، وقد رزق القبول من كافة الناس ، فصار حكما بين فرق الناس ، وعليه معول أهل العراق ، وأهل مصر ، وبلاد الشام وكثير من أقطار الارض .

٥ — صحيح النسائى :

النسائي هو : أحمد بن شعيب بن علي ابو عبد الرحمن النسائي المتولد سنة ٢١٥ والمتوفى ٣٠٣ ، كان من أئمة الحديث ، وقد برع في علم الحديث وتفرد بالمعرفة وعلو الاسناد ، وكان أحفظ من مسلم بن الحجاج ، وسننه أقل

السنن ضعيفاً . قاله : الذهبي .

ولما دخل دمشق فسئل عن معاوية وفضائله ، فقال : أما يرضى معاوية ان يخرج رأساً برأس ، حتى يفضل . وفي رواية ما اعرف له فضيلة إلا « لا اشبع الله بطنك » ـ وهو دعاء النبي (ص) عليه فصار يأكل ولا يشبع ـ فما زالوا يدافعونه في خصيتيه ، وداسوه ، ثم حمل الى مكة فتوفي بها ، وهو مدفون بين الصفا والمروة . وقال الحافظ ابو نعيم : لما داسوه بدمشق ، مات بسبب ذلك الدوس فهو مقتول (١) .

وكان قد صنف كتاب الخصائص في فضل علي بن ابي طالب واهل البيت (ع) ، واكثر روايته فيه عن الامام احمد بن حنبل ، وكذلك صنف كتاب مسند الامام علي عليه السلام ، ويرمزون له في التخريج بـ (عس) ولخصائص علي (ص) .

٦ — صحيح ابن ماجة :

ابن ماجة هو: محمد بن يزيد بن ماجة ابو عبدالله القزويني المتولد سنة ٢٠٩ والمتوفى سنة ٢٧٣ ارتحل الى العراق ، والكوفة ، ومكة والشام وألف كتابه في الحديث ، وهو احد الصحاح الست . وقدموا كتابه على موطأ مالك .

هذه هي الصحاح الست التي يخصها اهل السنة بالثقة على اختلاف في درجاتها في الصحة . على ان هناك كتب توصف بالصحة ، لأن الصحيحين لم يستوعبا جميع الأخبار الصحيحة ، فالفت كتب توصف بالصحاح : كصحيح اسحاق بن خزيمة وصحيح ابي حاتم المتوفى ٣٥٤ ، وصحيح ابي عوانة ، وغيرها .

(١) الشذرات ج ١ ص ٢٤٠ .

وقد استدرك الحاكم النيسابوري على الصحيحين احاديث خرجها على شرطهما (*) .

عود على بدء :

ذكرنا سبق أهل البيت عليهم السلام الى تدوين العلم ، واهتمام الشيعة في حفظ آثارهم ، والانتهال من عذب غديرهم ، إذ وجدوا سنداً قويا ومرعى خصيباً تتصل سلسلة أحاديثهم بصاحب الرسالة ، وهي السلسلة المعروفة بالذهبية ، أو هي الترياق المجرب ، فكان الامام الصادق (ع) عندما يحدّث باسناده ، يقول : حدثني ابي محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن ابي طالب (ع) عن النبي (ص) . وهناك تتصل هذه السلسلة بالوحي الإلهي ، وكذا كل واحد من الأئمة عليهم السلام .

وكان الامام الصادق (ع) اذا أرسل حديثه ، فهو اتصال بهذه السلسلة ، لأنه كان يقول : حديثي حديث أبي ، وحديث أبي حديث جدي ، وحديث جدي حديث أبيه ، وحديث أبيه حديث اميرالمؤمنين (ع) ، وحديث امير المؤمنين حديث رسول الله (ص) (١) .

ولكن بمزيد الأسف أن البخاري قد تحرج وتضايق عن تخريج حديث الامام الصادق (ع) ، وتوسع وتساهل لقبول رواية عمران بن حطان وداود

(*) اصطلح الرجاليون أن يشيروا لمن خرج له البخارى بـ (خ) ومسلم (م) والترمذى (ت) والنسائى (س) وابو داود (د) وابن ماجة (ق) ولمن خرج حديثه أصحاب الصحاح الست (ع) وإذا اجتمع الأربعة (٤) فاذا وجدت العلامة فى أول الترجمة ، عرف أنه حديث صاحب الترجمة رواه من اشير اليه .

(١) الروضة للحافظ ابي علي النيسابورى . وروى فى ص ١٧٥ عن الامام الباقر (ع) كذلك عندما سئل عن ارساله الحديث فقال : حديثى حديث ابى . . . الخ .

ابن الحصين ، واضرابهم من الفسقة الذين عرفوا بالعداء لله ولرسوله ، أنه لم يخرج حديث الامام الصادق ﴿ ع ﴾ ، لأن ظروفه اقتضت ذلك ونزعته ضربت بسلطانها عليه .

وقد عظم على خصوم الشيعة اختصاصهم بذلك التراث العظيم . ولم يستطع أحد أن يطعن فى حديث أهل البيت ﴿ ع ﴾ فالتجأوا الى الطعن على حملة آثارهم ورواة حديثهم ، كما لا ينكر تدخل عملاء السلطة والدخلاء فى الاسلام أن يدخلوا على أهل البيت ﴿ ع ﴾ مما لم يحدثوا به ويتقولوا عليهم مالم يقولوه ، يقصدون بذلك تنفير الناس واشمئزاز النفوس من تلك الروايات المدسوسة ، لذلك كانت الشيعة اشد تنقية للرجال وتصحيحاً للاحاديث ، فألفوا بذلك كتباً ، وتشددوا فى قبول الرواية ، وهذا بحث واسع لا يمكننا أن نخوضه الآن .

وخلاصة القول : أن الشيعة احتفظت بآثار أهل البيت ﴿ ع ﴾ وسبقت جميع الامة الى تدوين علومهم ، فكانت حركة التدوين عندهم قوية على ممر العصور في جميع العلوم والفنون .

أما مايختص بالفقه والحديث ، فكانت اصولهم اربعمائة اصل ، وهي التي سمعها تلامذة الأئمة منهم وجمعت هذه الاصول في الكتب الأربعة وهي :

١ — الكافي :

للشيخ المجدد محمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة ٣٢٩ وقد الفه في عشرين سنة ، وقد دخل الى الاقطار الاسلامية فى طلب الحديث ، وجمع فيه من الأحاديث ستة عشر الفاً ومائة وتسعين حديثاً ، وهو اكثر من مجموع مافي الصحاح الست . وليس هذا محل التوسع فى البحث عن الكافي ومكانته وترجمة مؤلفه .

٢ — من لا يحضره الفقيه :

للشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي الشهير بالصدوق المتوفى سنة ٣٨١ بالري ورد بغداد سنة ٣٥٥ وحدث بها ، وكان جليلا حافظاً للاحاديث بصيراً بالرجال ناقداً للاخبار كثير التأليف ، وقد احصيت مؤلفاته فكانت ٣٠٠ كتابا على اختلاف العلوم ، وأهمها كتابه الجليل وهو « كتاب من لا يحضره الفقيه » الذي هو من أهم كتب الحديث عند الشيعة وعدد أحاديثه ٥٩٦٣ حديثاً .

٣و٤ — التهذيب والاستبصار :

لشيخ الطائفة ابي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي المولود سنة ٣٨٥ والمتوفى سنة ٤٦٠ في النجف الأشرف .

هاجر الى بغداد سنة ٤٠٨ في ايام علم الشيعة ورئيسها محمد بن محمد ابن النعمان الشهير بالشيخ المفيد فاتصل به واستفاد منه ، ولما توفي سنة ٤١٣ اتصل من بعده بعلم الهدى السيد المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ ، وبعد وفاة السيد استقل الشيخ بالزعامة ، وكانت داره كمدرسة جامعة تأوي اليها طلاب العلوم ، فكان عدد تلامذته ثلثمائة من الشيعة وكثير من سائر المذاهب ، لذلك ترجم له السبكي في طبقات الشافعية (١) وغيره ، لأنه كان يملي على أهل المذاهب ويجيبهم عن مسائلهم لغزارة علمه وسعة اطلاعه ، فكان يفيد الامة بعلومه ، واملى كتابه

---

(١) انظر طبقات الشافعية للسبكي ج ٣ ص ٥١ وترجمه في الشذرات وفي البداية والنهاية لابن كثير وابن الجوزي في المنتظم وغيرهم .

المعروف بالأمالي على تلامذته ، يقع في مجلدين وكانت له منزلة علميـة عظيمة في بغداد ، وقد جعل له خليفة عصره ـ القائم بامر الله ـ عبدالله بن القادر كرسي الـكلام والافادة ، لأنه فاق أقرانه فتعين هو لتلك المنزلة ، ولما هبت عواصف الطائفية واشتد النزاع بين المذاهب وبين السنة والشيعة بالأخص ، وكان الموقف في الوقت على أشد ما يكون من الخصام، ولم تزل الدولة تنضم لجانب السنة فاحرقت كتب الشيخ بأمر طغرلبك أول ملوك السلاجقة . قال السبكي : وقد احرقت كتبه — أي الشيخ الطوسي — عـدة نوب بمحضر من الناس . وكذلك أمر الساجوقي باحراق مكتبة الشيعة في محلة الـكرخ ، وكانت تحتوي على اكثر من عشرة آلاف مجلداً من أهم الـكتب كلها بخطوط الأئمة المعتبرة واصولهم المحررة كما ذكر ذلك ياقوت الحموي وغيره . وفي سنة ٤٤٨ نهبت داره وكبست واخذت كتبه والـكرسي الذى كان يجلس عليه للـكلام فاحرقت (١) ، وهاجر الشيخ الى النجف فقصده طلاب العلم ، فاصبحت دار هجرة لانتهال العلم ولم تزل حركتها بنشاط من ذلك العهد تقصدها وفود العالم الاسلامي لأخذ العلم والانتماء لمعهدها على ممر الدهور .

فالشيخ الطوسي يعـد فى الواقع هو واضع الحجر الاساسي لمعهد النجف وقبره فيها قريباً من المرقد المطهر .

وله مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسين مؤلفاً فى شتى العلوم . وأهمها التهذيب والاستبصار في الحديث .

والحديث عن حياة شيخ الطائفة واسع، وناحية البحث عنها لا يمكننا الالمام بها في هذا العرض الموجز .

---

(١) انظر المنتظم لابن الجوزى ج ٨ س ١٧٣ و ١٧٩ .

أما التهذيب : فهو أحد الكتب الأربعة والجاميع القديمة المعوّل عليها ، وقد انهيت ابوابه الى ٣٩٠ باباً وأحصيت أحاديثه فى ١٣٥٩٠ ، وتوجد منه نسخة بخط المؤلف .

وأما الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار فهو أحد الكتب الأربعة التي عليها مدار استنباط الاحكام الشرعية عند فقهاء الشيعة ، وقد احصيت أحاديثه فكانت ٥٥١١ حديثاً .

والغرض ان تلك الاصول والكتب التي الفت فى زمن الأئمة قد جمعت فى هذه الكتب الأربعة وفي غيرها كالوافي للمحقق الكاشاني ، والبحار للعلامة المجلسي ، والوسائل المحدث محمد بن الحسن الحر العاملي ، ومستدركات الوسائل للشيخ النوري . وعلى هذا سارت حركة التدوين عندالشيعة باتباع آثار أهل البيت نزولا على حكم الأدلة والبراهين وتعبداً بسنة النبي (ص) .

وقد احتفظت الشيعة باستقلالها الروحي ولم ترتبط يوماً ما بسلطة لتشجيع حركتها العلمية أو تأييد مبدأها ، بل كان ولاة الامر يحاولون اكتساح ما لهذه الطائفة من أثر ، ولكن الشيعة وقفوا أمام ذلك السيل الجارف ، واستطاعوا تركيز مبادئهم بقوائم الروحية ، ونبغ منهم المحدّثون والمفسرون واللغويون والنسابون والشعراء والأدباء مما يطول ذكره ، وكان لهم الأثر العظيم فى جميع فنون الاسلام وعلومه ، وقد أحصينا من علماء الحديث الذين خرّج حديثهم اصحاب الصحاح عدداً لا يقل عن مائتين وخمسين رجلا أكثرهم حفاظ ، وقد اعترف الكل لهم بذلك . إذاً فالتدوين على ماقررناه لم يكن السبق لأحد سوى أهل البيت وشيعتهم ، وليس لمالك ولا لغيره .

مشكلة التفضيل

سبقت الاشارة الى رأي مالك في تفضيل الامام علي (ع) وانه يذهب الى مساواة علي لسائر الناس ، وان أفضل الامة الخلفاء الثلاثة ، ثم يقف ويقول : هنا يتساوى الناس . فهو لا يرى لعلي ميزة عن سائر الصحابة كما يروى عنه ، ومن الغريب ذلك ، فهو يكاد ينفرد بهذا الرأي ، ويمتاز عن سائر علماء الامة بهذه النزعة ، كما انه لم يرو عن علي في موطأه .

وقد رأينا من اللازم التعرض لمسألة التفضيل وجعلها موضوعاً مستقلا في البحث عن حياة مالك ، ولا يمكننا الاحاطة بجميع اطراف الوضوع ، ونكتفي بموجز من البيان عن ذلك .

لم تكن مسألة التفضيل من الامور الاعتيادية التي يمر عليها المؤرخ أو الكاتب فلا يعطيها مزيد بيان وعظيم اهتمام ، فان لها تمام الأثر في تطور الحوادث وإثارة نار البغضاء بين المسلمين ، لتدخل السياسة فيها ، وما تدخلت السياسة فى أمر إلا وجعلته عرضة للاضطراب والتقلب ، ولو انفردت القضية عن ذلك لما كان من ورائها ما كان ، ولسارت على ضوء العلم والواقع ، وتجردت عن الظنون والاتهامات ، وانتهت بالدليل والاقناع ، ولكنها فى الواقع كانت بالارهاب والقهر والعسف ، أو الاغراء والخداع السياسي .

وقد حاولنا بقدر الامكان أن لا نتعرض للامور التي أثارتها أغراض

المتعطشين على السيادة ، لتفريق كلمة الامة ، وايجاد مشاكل يحلون من وراء إيجادها حل مشاكلهم السياسية ، لأنهم يريدون أن يرغموا الامة على اتباع آرائهم، وتصديق أقوالهم ، ولا يكون هناك رأي إلا ما تراه الدولة ، فاذا وقف المفكرون الى جانب غير جانبها فهناك الخطر العظيم من الاضطهاد والاتهام بالعقائد الفاسدة ، لأن الاستقلال فى الرأي لم يكن من صالح الدولة ، وهم يحاولون توجيه الناس الى حيث اتجهوا . فالمخالف لذلك يتهم بالخروج على الدولة مرة ، وعن الدين اخرى . وإن من اهم المشاكل في تاريخ الاسلام هي مسألة التفضيل ، فقد جعلوا عنوان الرفض هو : محبة علي (ع) وتفضيله على الصحابة . يقول ابن حجر فى مقدمة فتح الباري : والتشيع محبة علي وتقديمه على الصحابة فمن قدّمه على ابي بكر وعمر فهو غال في تشيعه ويطلق عليه رافضي ، وإلا فشيعي .

فالشيعي فى عرفهم هو محبة علي . اما اذا فضله على ابي بكر وعمر فهو الرافضي . وناهيك ما وراء كلمة الرافضي من خطر عظيم ، فقد اتخذته السلطة ذريعة للقضاء على كثير من رجال الامة الذين لم ينحازوا اليها ، ولم يقفوا الى جانبها ، واتخذت هناك الخدع والمكائد حتى ادى الى السيف وسفك الدماء ، وقام المتمرغون على اعتاب الظلمة ، والمتنعمون في خيرات الدولة بما يجلب قلوب ولاة الأمر اليهم بالصاق العيوب بالشيعة وذمهم والطعن في عقائدهم ، حتى قال بعضهم : آكل ذبيحة اليهودي ولا آكل ذبيحة الرافضي (١) وقد عرفت أن الرافضي هو الذي يفضل علياً على ابي بكر وعمر فقط .

ولم تكن المسألة مسألة تفضيل أو قضية الحب لأبي بكر وعمر بل القضية إنما تحوم حول نقطة سياسية لا غير وهي العداء لأهل البيت الذين لا زالوا يرشحون

(١) انظر الصارم المسلول لابن تيمية ص ٥٧٥ .

لمنصب الخلافة ، وانهم أحق بالأمر من جميع الناس ، لأن الامة أعطتهم الثقة التامة للمؤهلات التي اتصفوا بها ، وستقف على بيان ذلك ، وليس فى وسعنا التفصيل الآن لمسألة التفضيل وما نجم من ورائها فى تاريخ الامة الاسلامية .

والغرض ان الامة اختلفت فى مسألة التفضيل على ثلاثة أقوال :

١ — تفضيل علي بن ابي طالب على جميع الصحابة ، وهو رأي أهل البيت وجميع الصحابة والتابعين ، إلا القليل النادر ، وجميع الهاشميين ، وأهل الحجاز وأهل الكوفة ، ووافقهم كثير من المتأخرين من علماء السنة تصريحاً أو تلميحاً ، نظراً للظروف التي قضت على المفكرين من رجال الامة بمجاراتها .

٢ — إن علي بن ابي طالب أفضل الامة بعد الشيخين .

٣ — إنه افضلهم بعد الثلاثة وعليه رأي الجمهور من السنة .

قال القرطبي : والمسألة اجتهادية ومستندها ، ان هؤلاء الاربعة اختارهم الله لخلافة نبيه وإقامة دينه ، فمنزلتهم عنده بحسب ترتيبهم بالخلافة ، ونحن هنا لا نريد أن نتعرض للاقوال ونقضها ، ولا نريد أن نتساءل عن صحة الدليل ، ولا نناقش رواية ابن عمر التي اصبحت هي دليل الاجماع ومستند التفضيل .

فلنترك ابن عمر ورأيه أو روايته ولننظر الى رأي مالك بن انس فى جعل علي عليه السلام كسائر الناس ، لا يمتاز عنهم بصفة ولا بفضيلة ، فليس لنا غرض إلا البحث عن الحقيقة، وذلك عند وقوفنا على رأي مالك بن انس، ونحن فى معرض الحديث عن حياته ، لذلك التزمنا بهذه الدراسة الموجزة ولا نناقش مالكاً فى رأيه ، ولا نتعدى حدود الواقع بل ندرس الموضوع على ضوء العلم بصورة مجردة عن الميل والهوى طلباً للحقيقة ونصرة للحق .

روى مصعب وهو تلميذ مالك انه سأل مالكاً : من أفضل الناس بعد رسول الله (ص) ؟ فقال مالك : ابو بكر . قال : ثم من ؟ قال : عمر . قال : ثم من ؟ قال : عثمان . قال : ثم من ؟ قال : هنا وقف الناس .

ودخل مالك على المنصور فسأله المنصور : من أفضل الناس بعد رسول الله (ص) ؟ فقال مالك : ابو بكر وعمر . فقال المنصور : أصبت وهذا رأي أمير المؤمنين - يعني نفسه - .

وفي رواية ابن وهب : انه قال - أي مالك - : أفضل الناس ابو بكر وعمر . ثم أمسك . فقال له ابن وهب : ثم من ؟ فامسك فقال له : إني امرؤ اقتدي بك في ديني فقال مالك : عثمان. فهوفي‌هذا يتردد في ضم عثمان الى الشيخين ولذلك أمسك ولم يذكر علياً بعدهم . وسأله احد العلويين في مجلس درسه : من خير الناس بعد رسول الله (ص) ؟ قال مالك : ابو بكر . قال : ثم من؟ قال : عمر . قال : ثم من ؟ قال : عثمان . فقال العلوي: لا جالستك أبداً .

والغرض إن رأي مالك في علي انه كسائر الصحابة لا يمتاز عنهم بصفة تجعله أعلى درجة منهم وليس له من المؤهلات التي تلحقه بالشيخين أو بعثمان أيضاً ، فهو إذاً بعده كأبي هريرة ،أو كمعاوية أو عمر بن العاص، أو سائر الذين وسموا بالصحبة مهما كانت منزلتهم ومراتبهم من حيث العلم والجهاد والسبق الى الاسلام ، فهو في درجتهم من الفضيلة . هذا هو رأي مالك ، وكذا ينقل عنه كما يقال ، ولان صح ذلك فانها عثرة لا تقال . فهل كان مالك مصيباً في رأيه ؟ وهل استند الى دليل علمي ؟ ليكون مبرراً له في ذلك :

يقول الاستاذ محمد ابو زهرة : إن مالكا رضي الله عنه يخالف بذلك امامين آخرين عاصراه : أحدهما اسن منه ومات قبله ، وثانيهما اصغر منه

وهو تلميذه الشافعي ، فان ابا حنيفة لا يعد علياً كسائر الناس بل يرفعه الى مرتبة الراشدين من الخلفاء ، ويقدّمه في الترتيب على عثمان رضي الله عنه ، والشافعي يعلن محبته لعلي ويحكم على خصومه بانهم بغاة ، ويعتمد في استنباط احكام البغاة على ما كان يفعله علي رضي الله عنه مع الخارجين عليه والذين بغوا على حكمه ، حتى لقد اتهم بانه شيعي وحوسب على ذلك وتعرض للسلف ، ولكنه كان يذكر مناقب ابي بكر ويفضله على علي ، ولذلك لم يكن رافضياً (*) .

ولماذا رأى مالك عدم ذكر علي في مقام المفضلين ، بل كان يقف بعد عثمان ويقول : هنا يتساوى الناس . فما كان علي كسائر الناس ، فهل جهل ذلك الامام الجليل مناقبه وسابقته في الاسلام وجهاده وحسن بلائه ومقامه من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ .

لا نظنه انه جهل شيئاً من ذلك او انكره ، إنما هو يعرف علياً رضي الله عنه ويعرف مقامه ، ولكنه عندما يجيب عن المسألة كان يجيب فيما يتعلق بالخلافة والخلفاء ، ولعل لجوابه بعض المبررات وان كنا لا نوافقه في جوابه . . . (ثم يذكر المبررات لقول مالك) .

الى أن يقول : وهو في هذا القول يضرب على نغمة معاوية والامويين . ومهما تكن المبررات التي تدفع الى ذلك الحكم على سيف الاسلام أخي

(*) هذه نقطة يجب الالتفات اليها وهي ان حب علي عليه السلام والاعتماد على قوله في استنباط الاحكام من علامات التشيع ويوجب الاتهام واجراء الحساب وقد افتخر الشافعي بهذه التهمة .

وقد بسطنا القول في ذلك بكتابنا (الشيعة في قفص الاتهام) وهناك نقطة اخرى وهي ان من يفضل علياً على ابي بكر فهو رافضي وناهيك ما الرافضي من صفات أقلها الخروج عن الدين .

رسول الله وزوج ابنته ومن كانت منه الذرية الطيبة النبوية عليها السلام ، فان ذلك الحكم يدل على نزعة اموية (١) .

ونحن نقول إنها نزعة عباسية أيضاً ، وذلك لأن العباسيين سرت اليهم نزعة العداء لآل محمد، بصورة أشد مما كانت عند الامويين ، فانهم بعد أن كانوا يتفقون مع العلويين في الرأي ويتحدون معهم في الغضب على أعمال امية ، وينتصرون للعلويين ويخلصون لهم الود ، ويذهبون لأحقية علي بالخلافة ، وافضليته على جميع الامة ، وكان المنصور نفسه يحدّث بفضائل علي ،وهو أحد رواة حديث الغدير (٢) ، وكانوا يأمرون الدعاة باول ما يظهرونه للناس هو فضل علي وأولاده ، فلما استجابت الامصار لهم ، وتم زوال الدولة الاموية ، وتربعوا على دست الحكم حصل ذلك التبدل السريع ، والتحول الغريب ، فاظهروا العداء لأهل البيت ، وساموهم الخسف والهوان ، واصبح العلويون يُطاردون من قبل الدولة ولا ذنب لهم إلا انهم المرشحون للخلافة واليهم تتجه الانظار ، وعليهم تحوم الآمال ، فهم أهل الزعامة الدينية والحق الشرعي ، وقد سبق الاعتراف من العباسيين لهم بذلك . حقاً انه تحول غريب ، ولكنه الملك ، والملك عقيم .

لقد كان العباسيون يعلنون الملأ فضل علي واولاده ، ويعرضون على الامة صوراً مؤلمة مما نالهم من جور الامويين وظلمهم ، وينتقصون الامويين ويلعنونهم ، واذا بهم بعد فترة من الزمن يمثلون الامويين في جورهم ويرتكبون من الجرائم ما لا يرتكبه الامويون ، ويعاقبون من يحدّث بفضل أهل البيت ،

(١) انظر مالك س ٦٩ — ٧١ .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٢ س ٣٤٤ .

أو يذهب لأحقية علي بالخلافة أو ينتقص الامويين .

دخل المهدي على ابي عون بن عبد الملك يعوده وطلب اليه أن يعرض عليه حوائجه ، فقال ابو عون : يا امير المؤمنين حاجتي أن ترضى عن عبد الله ابن ابي عون ، وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه . ـ وكان عبد الله يرى رأي الشيعة في الخلافة وان علياً افضل الخلق بعد رسول الله ـ فقال المهدي : يا أبا عون انه على غير الطريق ، وعلى خلاف رأينا . فقال ابو عون : هو والله يا امير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ودعونا اليه ، فان كان قد بدا لكم فمرونا حتى نطيعكم .

وعرضت على المهدي وصية القاسم بن مجاشع التميمي وقد جعل المهدى وصيه وكان قد كتب فيها :

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الاسلام . ثم كتب : والقاسم بن مجاشع يشهد بذلك ويشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن علي بن أبي طالب وصي رسول الله صلى الله عليه وآله ووارث الامامة من بعده . فلما بلغ المهدي الى هذا الموضع رمى بالوصية ولم ينظر فيها (١) وعظم عليه ذلك ، لأنه مخالف لرأي الدولة الجديد . ومن هنا نعرف الفرق بين الماضي والحاضر بذلك التحول السريع والتطور الغريب كل ذلك بغضاً للعلويين وكراهة لموافقتهم فى الرأي ، حتى أصبحوا يعظمون الامويين ويعاقبون من ينتقصهم .

فقد عذب يحيى بن كثير — وهو أحد الأعلام — وضرب وحلق

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٩٧ حوادث ١٦٩ .

رأسه لأنه انتقص الامويين (١) وكثير من أمثال ابن كثير ، كما عظم على العباسيين ثبوت الخلافة لعلي بغضاً للعلويين .

قال أبو معاوية : دخلت على هارون الرشيد ، فقال لي : لقد هممت أن من يثبت خلافة علي فعلت به وفعلت . قال : فسكت فقال لي : تكلم ، قلت : إن أذنت لي تكلمت . قال : تكلم .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، قالت تيم : منا خليفة رسول الله . وقالت عدي : منا خليفة خليفة رسول الله . وقالت بنو امية : منا خليفة الخلفاء . فأين حظكم فيها يا بني هاشم ؟ والله ما حظكم فيها إلا ابن أبي طالب (٢) .

ثم تطورت الحالة واشتد الأمر من قبل العباسيين حتى أدى الأمر الى قتل من عرف بحب علي وأهل بيته ، واتخذوا لذلك شتى الطرق ومختلف الأساليب ، وأقرب طريق سلكوه للوصول الى إيقاع الفتك بمن عرف بحب أهل البيت هو مسألة تفضيل علي عليه السلام على الخلفاء ، وجعلوا قاعدة مطردة عندهم وهي : أن من فضل علياً فقد طعن على الصحابة ، ومن طعن على الصحابة طعن على رسول الله ، ومن طعن على رسول الله صلى الله عليه وآله فهو زنديق .

وجعلوا مدح علي وذكره بما خصه الله ورسوله من الفضائل التي امتاز بها على غيره طعناً على الصحابة ، وموهوا على السذج بذلك ، وانخدع أكثر الناس واستجاب آخرون تحت ذلك الضغط ، وراح المنحازون للدولة يضربون على وترها ، وهم مسخرون لذلك ليس لهم قابلية على الخروج عن تلك الدائرة المحدودة ، إذ حرموا حرية الرأي وصواب التفكير ، ولقي المفكرون من الأمة

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٢١ .

(٢) تاريخ الخطيب ٥ ص٣٤٤ج .

عناءً ، وواجهوا مشاكل عند محاولاتهم الوقوف أمام تيار ذلك السيل الجارف ، فساير أكثرهم تلك الأوضاع ، وجارى تلك الظروف دفاعاً عن النفس وطمعاً فى الحياة ، فخضعوا لرأي الدولة وتجنبوا الحديث عن أهل البيت وفضائلهم ودرج الناس على ذلك ، وتلقنوا بغض أهل البيت ونظروا الى الشيعة بعيون مزورة وقلوب تتقد بنار العداء ، فكانوا لا يصبرون على سماع منقبة لأهل البيت ، وإذا رأوا أحداً يذكرهم بخير رموه بالرفض واتهموه بالزندقة . وقد أعطانا الامام الشافعي صورة عن تلك الأوضاع بقوله :

إذا فى مجلس ذكروا علياً ... وسبطيه وفاطمة الزكية
يقال تجاوزوا يا قوم عنه ... فهذا من حديث الرافضية
برئت الى المهيمن من اناس ... يرون الرفض حب الفاطمية

ويصف لنا ابن قتيبة أوضاع عصره ونصبهم العداء لأهل البيت وبغضهم للشيعة فى تفضيلهم علياً عليه السلام على جميع الامة بقوله (١) :

وقد رأيت هؤلاء أيضاً رأوا غلو الرافضة فى حب علي وتقديمه على من قدمه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصحابته عليه الى أن يقول : قابلوا ذلك أيضاً بالغلو فى تأخير علي كرم الله وجهه ، وبخسه حقه ، ولحنوا فى القول وإن لم يصرحوا الى ظلمه ، ولم يوجبوا له اسم الخلافة لاختلاف الناس عليه ، واوجبوها ليزيد بن معاوية لاجماع الناس عليه ، واتهموا من ذكره بغير خير م وتحامى كثير من المحدثين أن يحدثوا بفضائله كرم الله وجهه ، أو يظهروا ما يجب له وكل تلك الأحاديث لها مخارج صحاح ... وساووا بينه فى الفضل وبين أهل الشورى ، لأن عمر لو تبين له فضله لقدمه عليهم وأهملوا من ذكره أورووي

(١) انظر كتاب الاختلاف فى اللفظ لابن قتيبة ص ٤٧ — ٤٩ .

حديثاً من فضائله حتى تحامى كثير من المحدثين أن يتحدثوا بها وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ومعاوية كأنهم لا يريدونها وإنما يريدونه ، فان قال قائل : « أخو رسول الله صلى الله عليه وآله علي وأبو سبطيه الحسن والحسين وأصحاب الكساء علي وفاطمة والحسن والحسين » تمعرت الوجوه ، وتنكرت العيون ، وظهرت حسائك الصدور . وإن ذكر ذاكر قول النبي صلى الله عليه وآله : « من كنت مولاه فعلي مولاه » و : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » وأشباه هذا التمسوا لتلك الاحاديث المخارج لينتقصوه ويبخسوه حقه بغضاً منهم للرافضة ، وإلزاماً لعلي عليه السلام ما لا يلزمه . وهذا هو الجهل بعينه ، والسلامة من ذلك أن لا تهلك بمحبته ولا تهلك ببغضه وأن لا تحتمل ضغناً عليه بجناية غيره فان فعلت فأنت جاهل مفرط في بغضه ، وإن تعرف مكانه من الرسول بالتربية والاخوة والصهر ، والصبر في مجاهدة أعدائه ، وبذل مهجته في الحروب بين يديه مع مكانه في العلم ، والدين ، والبأس ، والفضل . . . الى أن يقول :

ولو كان اكرامك لرسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي دعاك الى محبة من نازع علياً وحاربه ولعنه إذ صحب رسول الله صلى الله عليه وآله — يعني معاوية — لانت بذلك في علي أولى لسابقته وفضله وخاصيته وقرابته والدناوة التي جعلها الله بينه وبين رسوله عند المباهلة حين قال تعالى : « قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم » فدعا حسناً وحسيناً « ونساءنا ونساءكم » فدعا فاطمة عليها السلام « وأنفسنا وأنفسكم » فدعا علياً عليه السلام ، ومن أراد الله تبصيره بصره ، ومن أراد به غير ذلك حيره .

هكذا تأثر ذلك المجتمع وتكيف بمزاج الدولة ، ولم تجر الامور طبقاً للحقيقة ، مما أدى الى مخالفة الواقع والابتعاد عن الحق ، كما وصف ذلك ابن قتيبة (١) وغيره ، ولا يسع المجال لبسط القول في ذكر تلك الأوضاع السياسية التي سار عليها ولاة الأمر ، وحملوا الناس على الخضوع لها ، ولا يستغرب أن تكون نزعة الدولة نزعة عداء لأهل البيت ، ولكن الغريب ان يتأثر فيها بعض من عرف بالفهم ، ووسم بالعلم ، ولم يمنح عيناً تدرك الحقائق .

ولا نريد أن نرجع إلى الماضي ، ونقف عند تلك المحاولات التي اتخذها خصوم أهل البيت في العصر الاموي ليمحوا بذلك ذكرهم ، فقد مر كثير من الاشارة اليها ، كما انا لا نريد أن نحاسب ابن عمر على روايته في التفضيل التي كانت سبباً لايجاد تلك المشاكل ، ولا نريد أن ندرس نفسيته لنعرف الأسباب التي حملته على ذلك القول ، وادعائه امراً لم يكن له أهلية الاتصاف به ، لحداثة سنه وخمول ذكره .

أخرج البخاري من طريق ابن عمر أنه قال : كنا نخير بين الناس فنخير أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم (٢) .

وفيه ايضاً بلفظ : كنا في زمن النبي لا نعدل بابي بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان (٣) .

وهذه الرواية هي عمدة ما تمسك به القوم في بحث الامامة ، تقليداً

---

(١) هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة المروزي المتوفى سنة ٢٧٦ ، كان من علماء الحديث في القرن الثالث ، وله مؤلفات كثيرة . يعرف بالدينوري ، لانه أقام بالدينور قاضياً مدة من الزمن . فنسب اليها وقد وصفه ابن حجر بالانحراف عن أهل البيت .

(٢) البخاري ج ٥ ص ٢٤٢ .

(٣) البخاري ج ٥ ص ٢٦٢ .

لابن عمر ، وجرياً مع الظروف وسياسة الزمن ، فنحن لا نريد أن نطيل الوقوف على هذه الرواية ، ولا نريد أن نناقشها سنداً ودلالة ، وقد كفانا البحاثة الكبير العلامة الاميني نقاشها فى غديره . وبين نفسية ابن عمر ومؤهلاته ومقدار تحمله لذلك وقيمة ما يروى عنه فى نظر حفاظ الحديث وعلماء الامة (١) .

ولا نعود الى مسألة مالك بن أنس عن الاسباب التي حملته على رأي المساواة ، ولعلها لا تخفى على المتتبع ، فهو لا يجهل مكانة علي فى الاسلام من البداية الى النهاية ، كما أنه لا يجهل اختصاص علي بمزيد فضل وعظيم شرف لم يشاركه أحد فى ذلك . وقد امتاز على غيره من أصحاب محمد (ص) ، الذين كانوا على جانب عظيم من الصفات الفاضلة والمزايا الجليلة : من الايمان والصلاح والورع والزهد والجهاد و . و .

فقد كان أسبقهم الى الاسلام ، وأقربهم من رسول الله (ص) ، وأشدهم جهاداً فى الحرب ، وأعلمهم بالدين ، وأعظمهم منزلة ، فهو أقضى الامة ، وأعلم الصحابة ، وأول من أسلم ، وقد وازر النبي فى نشر الدعوة الى كثير من ذلك .

وامتاز عنهم بأنه أخو رسول الله ومنه الذرية الطيبة . وهو نفس محمد مطهر من الرجس ، منزه عن المعائب ، فهو يمثل النبي فى زهده وورعه وخلقه وهديه وقوله وفعله وعلمه وفضله . وهو ورسول الله ركيضا رحم ، ورضيعا لبن واحد الى غير ذلك من المميزات التي اختص بها الامام علي ، وامتاز بها على غيره ، فذاته صيغت من فضيلة . ولا يمكننا ان نعطي صورة واقعية

(١) الغدير ج ١٠ ص ٣ — ٧٣ .

عن شخصية الامام بدراسة حياته بجميع نواحي عظمتها ، فليس ذلك بمستطاع ، ولكننا نرى من الخير ان نشير الى بعض الاحاديث النبوية الصحيحة التي تعبر عن شخصية الامام علي (ع) ، وسمو مقامه . لنعرف كيف يتساوى الناس ؟ وكيف يصح ان يقال ذلك ؟

نظرة اجمالية :

رأينا كيف تدخلت السياسة في تشويه الحقائق . وحمل الناس على مخالفة الواقع وتدخلها فى ذلك بأشكال وألوان مختلفة ، مما أفسد على المجتمع ما صلح ، وقامت بسبب ذلك فتن وحروب . وليس ذلك بعجيب . ولكن الاعجب منه حمل من خالف تلك الاوضاع الشاذة . ووقف لجانب الحقيقة على الشذوذ والانحراف . وان يصبح غرضاً ترشقه سهام التهم بدون تثبت فى الحكم . وتدبر فى الأمر . وقد كانت مسألة التفضيل من أهم الأسباب التي تذرع بها ولاة الأمر للقضاء على المفكرين من الامة . وجعلتهم عرضة لخطر غضب الرأي العام الذى أغواه شيطان السياسة الفاسدة ، ليلقوا بأنفسهم في مهاوي الهلكة ، حتى اصبح الأمر بأشد ما يكون من الخطر ، والتجأ الكثير الى الدفاع عن النفس بالمجاراة للرأي العام الذي تكيف بسياسة الدولة بدون تدبر وتفكير . ولو تجردت المسألة عن ذلك التدخل لما كان اي شيء من ذلك ، لان الحقيقة فى جانب ، وما يذهبون اليه فى جانب آخر . وإنما هي اقوال يرددونها اتباعاً لقائليها بدون تحقيق من صحتها . وإذا أردنا أن نسألهم عن التطبيق العملي يصعب عليهم ذلك ، ولا يجدون — للاجابة عن طريق المنطق الصحيح — سبيلا . والأمر الذي يبعث على الاستغراب هو معرفتهم بالعوامل الاساسية التي أدت الى وجود

تلك التقولات ، وانتشار تلك الآراء التي كان مبعثها الافراط في التعصب مما أدى الى الابتعاد عن الواقع . وإذا استكشفنا حقيقة الأمر على ضوء الأحاديث النبوية والآيات القرآنية الواردة في فضل علي واختصاصه بمزايا لا يمكن لأحد أن يشاركه فيها ، لوجدنا تلك الاقوال بعيدة عن الصواب ، ولكن ما نصنع ؟ وقد سار موكب المقلدين على الطرق التي رسمها ولاة أمر يريدون تفريق صفوف الامة ، ليستروا معائبهم .

والغرض أن الاحاديث النبوية تعطينا حقائق ملموسة لا يمكن لأحد أن يحيد عنها ، فهي تقضي بوجوب اتباع علي والاعتراف بافضليته على جميع الامة .

كيف ؟ وقد ملأ سمع الدنيا نداء رسول الله (ص) يوم غدير خم : « من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » وقد رواه جمع من الصحابة يربو عددهم على المائة . وقد مرت الاشارة اليه في الجزء الأول ص ٨٦ — ٩١ فراجع .

وفي حديث الثقلين كفاية للدلالة على علو شأن علي وفضله واختصاصه دون سائر الصحابة باقترانه مع القرآن في وجوب الاتباع ، فهو مع القرآن والقرآن معه (١) .

إذاً كيف يصح لقائل أن يقول بمساواته لسائر الناس ، وعدم امتيازه عنهم بمؤهلات الفضل ؟ ولا غرابة في ذلك بعد أن وقفنا على الأسباب التي أدت الى هذا الرأي .

ألعلي يقال هذا ؟ وهو نفس محمد بنص الوحي الإلهي بقوله تعالى :

(١) جمعنا بعض طرق حديث الثقلين في الجزء الاول ص ٩٢ — ٩٦ فراجع .

« قل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » ودعا النبي علياً وفاطمة والحسن والحسين وقال : اللهم هؤلاء أهلي (١) .

فهو بنص القرآن الكريم نفس النبي (ص) ، ولو وجد (ص) نظيراً لعلي لضمه اليه ، كما صنع في الحسن والحسين ، إذاً ليس في امته من يكون نفسه غير علي.

وقد احتج علي يوم الشورى بذلك ، فقال لهم : انشدكم الله هل أحد أقرب الى رسول الله (ص) في الرحم مني . ومن جعله (ص) نفسه ، وابناه ابناءه ونساءه نساءه غيري ؟ قالوا : اللهم لا (٢) وقد أصبح ذلك من المقرر عند الصحابة والمشهور بينهم ، ولم يستطع أحد إنكاره .

قام رجل في مجلس ابن عائشة ، فقال : يا أبا عبدالرحمن من أفضل أصحاب رسول الله ؟ فقال : ابو بكر وعمر وعثمان وعبدالرحمن وطلحة والزبير.

فقال الرجل : فأين علي بن ابي طالب ؟ فقال ابن عائشة : تستفتيني عن أصحابه أم عن نفسه ؟

فقال الرجل : عن اصحابه .

قال : إن الله تبارك وتعالى يقول : « قل تعالوا ندعو ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم » فكيف يكون اصحابه مثل نفسه ؟ (٣) .

وكان النبي فى مختلف الظروف وشتى المناسبات بيّن للناس أن علياً كنفسه ، وهو منه بمنزلة رأسه من بدنه (٤) .

---

(١) صحيح مسلم ج ٥ ص١٧٦ من شرح النووى وتفسير الرازى ج ٢ ص ٤٨٨ .
(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر .
(٣) البيهقى فى المحاسن ج ١ ص ٣٩ .
(٤) انظر الخطيب البغدادي ج ٧ ص ٤١ .

وكقوله (ص) : لينتهين بنو ربيعة ، او لابعثن اليهم رجلاً كنفسي (١)

وكقوله (ص) : علي مني وأنا منه . ويحدّث ابن عباس عن ام سلمة أن النبي قال : يا ام سلمة علي مني وانا من علي لحمه من لحمي ودمه من دمي وهو مني بمنزلة هارون من موسى .

وكثير من هذا الباب الذي يدل بالبرهان القاطع انه (ع) نفس محمد ، وشريكه في مميزاته وصفاته . إلا ما علم بالضرورة استثناؤه .

وكان اصحاب النبي (ص) يعرفون علياً بتلك المنزلة . ولا يجهلون ذلك الاختصاص .

أخرج الطبري من ابن عباس : أنه مرّ بمجلس من مجالس قريش وهم يسبون علياً . فقال لقائده : أما سمعت هؤلاء ما يقولون ؟ قال : سبوا علياً . قال : فردني اليهم فرده . فقال : ايكم الساب لرسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قالوا : سبحان الله من سب رسول الله فقد كفر . فقال : أيكم الساب لعلي ؟ قالوا : اما هذا فقد كان . قال ابن عباس : فأنا أشهد بالله لسمعت رسول الله (ص) يقول : من سب علياً فقد سبني ، ومن سبني فقد سب الله ، ومن سب الله عز وجل اكبه الله على منخره (٢) .

وأخرج النسائي عن عبدالله الجدلي . قال : دخلت على ام سلمة ، فقالت لي : أيسب رسول الله فيكم ؟ قلت : سبحان الله أومعاذ الله . قالت : سمعت رسول الله (ص) يقول : من سب علياً فقد سبني (٣) .

(١) الرياض النضرة ص ٦٤ .
(٢) الرياض النضرة ج ٢ ص ٢١٩ .
(٣) الخصائص ص ٢٤ والرياض النضرة ج ٢ ص ٢١٩ .

فامتياز شخصية علي (ع) اقتضت أن يختص بامور لا يشاركه فيها أحد . لذلك كان اخاً للنبي من دون اصحابه يوم آخى النبي بينهم واخذ بيد علي فقال : هذا اخي (١) .

وقد أراد الله إظهار فضل علي . وأراد أن يعرف الناس منزلته وشخصيته . فخصه بتلك المزايا التي لا يمكن حصرها وكيف تجهل مكانة علي وعظيم منزلته فيساوى مع سائر الناس ؟ وقد جعل النبي (ص) حب علي علامة الايمان . وبغضه علامة النفاق بقوله صلى الله عليه وآله : « يا علي لا يحبك إلا مؤمن . ولا يبغضك إلا منافق » وقال علي عليه السلام : « انه لعهد النبي الامي (ص) إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن . ولا يبغضني إلا منافق » (٢) .

وكان أصحاب النبي (ص) يعرفون إيمان الانسان بحبه لعلي . ونفاقه ببغضه له متخذين من قوله قاعـــدة مطردة على الدوام في معرفة الناس ، وتمييز الاشخاص . قال ابو سعيد الخدري : كنا نحن معشر الانصار نعرف المنافقين ببغضهم علي بن ابي طالب (٣) وقال جابر بن عبدالله الانصاري : ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغضهم علياً (٤) .

فبنص هذا الحديث الشريف أن محب علي مؤمن . ومبغضه منافق .

---

(١) انظر مصابيح السنة ج ٢ ص ٢٠٣ والفتاوى الحديثة لابن حجر .

(٢) انظر هذا الحديث ف ج ١ ص ٦٤ صحيح مسلم من شرح النووي . وص ٢٧ خصائص النسائي وص ٩١ من ذخائر العقبى . وج ٣ ص ٣٧ من الاستيعاب بهامش الاصابة وج٣ ص ٤٥٧ من شرح الشفاء للخفاجي .

(٣) انظر صحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٤) الذخائر ص ٩١ والاستيعاب ج ٣ ص ٤٦ .

والمنافق هو المؤمن بلسانه والكافر بجنانه و « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » .

وقد امتاز علي (ع) على جميع اصحاب محمد (ص) بانه نظيره في الاداء والتبليغ بقوله (ص) : لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني . وذلك لما ارسل أبا بكر ليقرأ براءة على أهل مكة . أوحى الله اليه أن يرجعه . ويرسل علياً ليقوم مقام النبي فى الاداء . فانصرف ابو بكر كئيباً . فقال لرسول الله (ص): انزل فيَّ شيء ؟؟ قال :لا ، إلا أني امرت أن ابلغه أنا أو رجل من أهل بيتي . وفي رواية سعد : لا يؤدي عني إلا انا أو رجل مني . وفى رواية ابي هريرة : لا يبلغ غيري أو رجل مني (١) .

فالارسال كان بوحي من الله تعالى . وقد رشحه لمقام التبليغ ، ووسمه النبي بذلك الوسام ، وميزه بتلك الصفة . كما ميزه (ص) بأنه باب مدينة علمه لما بينهما من المشاركة والمجانسة بقوله : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » (٢) .

قال الهيثمي : رواه جماعة وصححه الحاكم ، وحسنه الحافظان العلائي وابن حجر . وقال ابن حجر في شرح الهمزية في تعداد فضائل علي (ع) : ومنها العلوم التي أشار اليها النبي (ص) بقوله : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وفى روايه من أراد العلم فليأت الباب . وفي اخرى عند الترمذي : « أنا دار الحكمة وعلي بابها » . وفى اخرى عند ابن عدي : « علي باب علمي » (٣) . وقال ايضاً : مما يدل على ان الله سبحانه وتعالى اختص علياً من العلوم ما تقصر

---

(١) انظر الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٢٨ والخصائص ص ٢٠ .

(٢) لهذا الحديث طرق معتبرة صحيحة . وقد أفرد له الشيخ احمد بن محمد بن الصديق المغربي مؤلفاً يقع فى ١٠٢ ذكر فيه طرق الحديث وتعرض لجميع الاقوال فيه .

(٣) انظر شرح الهمزية ص ٣٠٢ .

عنه العبارات كقوله (ص) : « أقضاكم علي » وهو حديث لا نزاع فيه . وقوله (ص) : « أنا دار الحكمة وعلي بابها » وقوله (ص) : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » (١) .

واختص علي (ع) بانه أحب الخلق اليه (ص) وأقربهم منه . ووجوب محبته ولزوم اتباعه ،وانه مع الحق والحق معه ،وكان يحل له ما يحل لرسول الله(ص) يوم أمر النبي (ص) بسد أبواب أصحابه إلا باب علي . أخرج النسائي من طريق زيد بن أرقم : كان لنفر من اصحاب رسول الله(ص) ابواب شارعة في المسجد ، فقال رسول الله (ص) : سدوا الابواب إلا باب علي (ع) فتكلم بذلك الناس ، فقام رسول الله (ص) فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فاني أمرت بسد هذه الابواب غير باب علي . وقال فيه قائلكم والله ما سددته ولا فتحته ، ولكني امرت ، فاتبعته (٢) اخرجه أحمد والطبري . وما ذلك إلا لميزة في شخص علي اقتضت هذا التخصيص . وقد أكبر عمر بن الخطاب هذه الخصلة ، وكانت من أهم الخصال التي كان يتمناها ، فكان يقول : لقد أوتي ابن ابي طالب ثلاث خصال لئن يكون لي واحدة منهن أحب الي من حمر النعم : زوّجه رسول الله ابنته ، وسد الابواب إلا بابه في المسجد ، وأعطاه الراية يوم حنين (٣) .

وكم تمنى عمر بن الخطاب بعض ما اختص به علي ، كما يحدثنا عن نفسه في عدة موارد : كيوم خيبر ، يوم قال رسول الله (ص) : لاعطين الراية غداً

---

(١) انظر ص ٣٠٣ .

(٢) الخصائص ص ١٣ .

(٣) ذخائر العقبى ص ٧٧ وأخرجه أحمد وغيره .

رجلا يفتح الله عليه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله .

قال عمر بن الخطاب : ما أحببت الامارة إلا يومئذ (١) .

ولم يشهد المسلمون شخصية برزت في ذلك العصر في مؤهلات الفضل والكمال كشخصية الامام علي بن ابي طالب ، فلا يستطيع أي أحد أن يتطاول اليها في الشرف . وقد بذل النبي عنايته في تربيته ، ويغمره بالحب ويأمر بحبه ، ويوجه الناس الى معرفة مميزاته . وصفات الكمال التي اجتمعت فيه ، فكان يعلن للملأ بقوله (ص) : (أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي) (علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي) أخرجه الترمذي في صحيحه (٢) والنسائي في خصائصه (٣) وغيرهما .

« ما تريدون من علي إن علياً مني وأنا من علي » (٤) .

« من أحب علياً فقد احبني ، ومن ابغض علياً فقد ابغضني ، ومن آذى علياً فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله » (٥) .

يا علي طوبى لمن أحبك وصدق فيك ، وويل لمن ابغضك وكذب فيك (٦).

وروى عمار بن ياسر قال قال رسول الله (ص) : اوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن ابي طالب ، فمن تولاه فقد تولاني ، ومن تولاني فقد تولى الله ، ومن أحبه فقد أحبني ، ومن أحبني فقد أحب الله ، ومن أبغضه

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، والترمذي في الصحيح ، والنسائي في الخصائص ، وغيرهم .

(٢) انظر ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٣) انظر ص ٢٠ .

(٤) انظر الاصابة لابن حجر ج ٢ ص ٥٠٩ .

(٥) انظر الاستيعاب ج ٣ ص ٣٧ بهامش الاصابة .

(٦) الرياض النضرة ج٢ ص ٢٨٥ .

فقد أبغضني ، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل . أخرجه الطبراني في الكبير وابن عساكر في تاريخه (١) .

ونكتفي بهذا البيان الذي لم نقصد به التوسع والاحاطة لتعذر ذلك ، ولكنها إشارة موجزة من حيث الارتباط في الموضوع ، كما وأننا لم نتعرض لذكر الآيات الواردة في فضل علي (ع) مما أجمع المفسرون على أنها نزلت فيه . وقد أفرد علماء الاسلام ـ في فضائله ومناقبه التي اختص بها وامتاز عن سائر الصحابة ـ مؤلفات كثيرة ، عدا ما أودع في مضامين الكتب التي لا تحصى . وأفرد الحافظ ابو نعيم الاصفهاني كتاباً في بيان ما نزل من القرآن في علي ، وله كتاب الخصائص ايضاً . والف النسائي وعبدالرحمن السكري وغير هؤلاء كتباً في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام التي اختص بها دون سائر الصحابة ، وعسى أن تتاح لي الفرصة الى العودة في البحث عن حياة الامام علي بن ابي طالب ، لنقتبس من حياته نظرة واسعة .

ونكتفي هنا بهذه النظرة الخاطفة عن بقية مميزاته وصفاته التي يعجز أي أحد عن الاحاطة بها ، واعطائها حقها من البيان ، فان لشخصيته منزلة مرموقة ، وما رسمت ريشة التاريخ في صفحة الوجود كصورته بعد صاحب الرسالة .

أقوال الصحابة :

ولا بد لنا ـ ونحن في معرض البحث عن مسألة التفضيل أو مشكلته ـ من الرجوع لأقوال الصحابة ولمعرفة ما لمسوه من الحقائق في شخصية الامام علي (ع)

(١) انظر كنز العمال ص ١٤٥ ج ٦ .

وامتيازه بتلك الصفات التي اختص بها من بين الامة . ولنا بذكر أقوال البعض كفاية عن الاحاطة باقوال الجميع .

لما بويع علي وعادت الخلافة اليه ـ بعد ان تخطته ـ زماناً قام خطباء الصحابة في مجلس البيعة ، وتكلموا بما يحق لهم أن يتكلموا فيه : منهم ـ ثابت ابن قيس قال (١) :

والله يا أمير المؤمنين لئن تقدموك في الولاية فما تقدموك في الدين ، ولئن كانوا سبقوك امس لقد لحقتهم اليوم ، وكنت لا يخفى موضعك ، ولا تجهل مكانتك ، يحتاجون اليك فيما لا يعلمون ، وما احتجت الى أحد مع علمك .

وقام خزيمة ذو الشهادتين فقال : يا امير المؤمنين ما اصبنا لأمرنا هذا غيرك ، ولا كان المنقلب إلا اليك ، ولو صدقنا انفسنا فيك لأنت اقدم الناس إيماناً ، واعلم الناس بالله ، واولى المؤمنين برسول الله . لك ما لهم وليس لهم ما لك .

وقام صعصعة بن صوحان فقال : والله يا امير المؤمنين لقد زينت الخلافة وما زانتك ، ورفعتها وما رفعتك ، ولهي اليك أحوج منك اليها .

وقام مالك بن الحرث فقال : أيها الناس هذا وصي الاوصياء . ووارث علم الانبياء . العظيم البلاء . الحسن العناء . الذي شهد له كتاب الله بالايمان . ورسوله بجنة الرضوان . من كملت فيه الفضائل . ولم يشك في سابقته وعلمه وفضله الاوائل ولا الأواخر .

(١) ثابت بن قيس بن الحطيم بن عدي الانصاري . توفي في خلافة معاوية شهد مع النبي وقعة احد وما بعده من المشاهد ، واستعمله علي (ع) على المدائن وشهد معه حروبه ، وقد نسب بعض المؤرخين هذه الكلمة لثابت بن قيس بن شماس الانصاري خطيب الانصار ، وهو اشتباه ، لأن ابن الشماس قتل يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة في خلافة ابي بكر .

وقام عقبة بن عمر فقال : من له يوم كيوم العقبة ، وبيعة كبيعة الرضوان والامام الأهدى الذي لا يخاف جوره ، والعالم الذي لا يخاف جهله (١) .

وتتابع الخطباء والشعراء فى ذلك اليوم ، بما لا يتسع المجال لذكره ولا يمكن الاحاطة بجميع أقوالهم فى علي بشتى المناسبات ، ومختلف المقامات ، وعلى الاجمال ، فان اصحاب محمد (ص) كانوا يعترفون لعلي بالفضل الذي لا يتطاول اليه أحـــد ، ويرجعون اليه في مهماتهم ، ويحدثون بفضله ، وعلو منزلته .

فهذا ابو بكر كان يكثر النظر الى وجه علي ، فقالت له عائشة : يا ابة إنك لتديم النظر الى وجه علي ، فقال : يا بني سمعت رسول الله (ص) يقول : النظر الى وجه علي عبادة . أخرجه ابن السمان فى الموافقة . وأخرج ابو الحسن الحربي مثله عن عبدالله بن مسعود ، والابهري عن عمر بن العاص مثله . واشتهرت عن أبي بكر احاديث كثيرة فى فضله كما اشتهر عنه رجوعه اليـــه فى أهم المسائل .

وهذا الخليفة الثاني كان يعترف بعلم علي وافضليته ، وجاءت عنه أقوال كثيرة في ذلك . (منها) أنه قال لرجل : لا تذكر علياً إلا بخير (٢) فانك ان تنقصه آذيت صاحب هذا القبر في قبره ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ـ خرّجه أحمد في المناقب وابن السمان فى الموافقة (٣) .

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٥ .
(٢) الرياض النضرة ٢٢٠ ج ٢
(٣) نفس المصدر

وقال : أقضانا على . أخرجه الحافظ السافي (١) وفى لفظ ابن عبدالبر أنه قال : علي أقضانا . أخرجه عن ابن عباس (٢) .

وقال سعيد بن المسيب : كان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها ابو الحسن .

وقال في المجنونة التي أمر عمر برجمها ، وفى التي وضعت لستة أشهر فاراد عمر رجمها فقال له علي : « إن الله تعالى يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ...) الحديث » .

وقال في المجنونة : « رفع القلم عن المجنون ... الحديث » فكان عمر يقول : لولا علي لهلك عمر .

وقال اذينة العبدي : أتيت عمر بن الخطاب ، فسألته من اين اعتمر ؟ فقال : إئت علي بن ابي طالب فاسأله . وقال له : ما أجد لك إلا ما قال علي (ع) (٣) وأقواله فى علي كثيرة (منها) :—

قوله : لا يفتين أحد فى المسجد وعلي حاضر .

وقوله : اللهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن ابي طالب .

وقوله : اللهم لا تنزل بى شديدة ، الا وابو الحسن الى جنبي .

وقوله : كاد يهلك ابن الخطاب ، لولا علي بن ابي طالب .

وقوله : عجزت النساء أن تلدن مثل علي بن ابى طالب .

وقوله : ردوا قول عمر الى علي ، لولا علي لهلك عمر .

وقوله : يا ابن ابي طالب ، فما زلت كاشف كل شبهة ، وموضع كل علم .

قال : ابن الاثير فى أسد الغابة : ولو ذكرنا ما سأله الصحابة به مثل عمر

---

(١) الذخائر ص ٨٣ .

(٢) الاستيعاب ج ٣ ص ٣٩ .

(٣) انظر الاستيعاب ج ٣ ص ٤٣ .

وغيره رضي الله عنهم لأطلنا (١) .

وجاء رجل الى معاوية بن ابي سفيان فسأله عن مسألة ، فقال : سل عنها علي بن ابي طالب ، فهو أعلم . قال : يا امير المؤمنين جوابك فيها أحب إلي من جواب علي . قال بئس ما قلت . لقد كرهت رجلاً كان رسول الله (ص) يغزره بالعلم غزاراً ولقد قال له : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي . وكان عمر ان أشكل عليه شيء أخذه منه . أخرجه أحمد بن حنبل فى المناقب (٢) .

وقال ابن عباس : لعلي اربع خصال ليست لاحد غيره : هو اول عربي وعجمي ، صلى مع رسول الله (ص) وهو الذي كان لواؤه معه فى كل زحف . وهو الذي صبر معه يوم فرّ غيره . وهو الذي غسله وأدخله قبره . أخرجه أبو عمر .

ولما حضرته الوفاة . قال : اللهم إني اتقرب اليك بولاية علي بن ابى طالب خرجه احمد في المناقب (٣) .

وقيل له : اين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط (٤) .

وقال ابن مسعود : اقضى اهل المدينة علي بن ابى طالب (٥) .

(١) انظر الاستيعاب لابن عبدالبر وشرح الهمزية لابن حجر . والفتح لاحمد بن محمد الصديق . والغدير للاميني تجد هذه الاقوال الواردة عن عمر .

(٢) الرياض النضرة ج ٢ ص٢٥٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ص ٢٢٧ .

(٤) شرح النهج ج ١ ص ٦ .

(٥) الاستيعاب ج ٣ ص ٤١ .

وقال سعد بن ابي وقاص – عند ما طلب منه معاوية ان يسب علياً – : اما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله (ص) فلن اسبه ، لئن تكون لي واحدة منهن احب إلي من حمر النعم : سمعت رسول الله (ص) يقول له : « اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى . . . الخ .

وكانت عائشة تقول : علي اعلم الناس بالسنة (١) .

ودخل عليها جابر بن عبدالله الانصاري ، فقال لها : ما تقولين في علي فاطرقت رأسها ثم رفعته فقالت :

إذا ما التبر حك على محك   تبين غشه من غير شك
وفينا الغش والذهب المصفى   علي بيننا شبه المحك (٢)

وقال معاوية بن ابي سفيان : لما بلغه قتل الامام علي (ع) : لقد ذهب العلم والفقه بموت ابن ابي طالب (٣) .

وسئل عطاء : أكان في أصحاب محمد (ص) أحد أعلم من علي ؟ قال : والله ما أعلمه (٤) .

الى كثير من ذلك مما لا يصعب على المتتبع الوقوف عليه لاستجلاء الحقائق منه .

وعلى اي حال ، فان مسألة التفضيل لم تقم على سند من العلم أو البحث أو التفكير السليم ، ولم يكن هناك دليل اقناعي أو برهان قاطع ، بل المسألة

---

(١) الاستيعاب ج٣ ص ٤٠ هامش الاصابة .
(٢) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ١٩٣ .
(٣) انظر كتاب الف باء للبلوي ج ١ ص ٢٢٢ .
(٤) نفس المصدر .

تعود لآراء ذوي السلطه كما تقدم بيانه . وان الاجماع المدعى لم يحصل إلا في زمن احمد بن حنبل فى عهد المتوكل (١) وقد كانت بشكل حتمي لا ترجع للواقع من حيث هو ، وإذا رجعنا لذلك بدون تحيز وتعصب ، بل يترك الأمر وحرية الرأي ، ويجري على ضوء الادلة والدراسات الصحيحة ، الخالية من نزعة التعصب والهوى ، وتدخل السياسة لما كان أي شيء ، ولم يحصل الاختلاف فى أفضلية علي (ع) على جميع الامة ، كما عليه السلف واكثر علماء الاسلام ، ولكن التدخل – في الآراء والمعتقدات من قبل ولاة الأمر – أوجد تلك المشاكل ، وسلب الناس حرية الرأي ، لذلك أصبح الكثير منهم يتكتم في ابداء رأيه لما وراء ذلك من الخطر ، كما تحامى اكثر المحدثين ذكر فضائل علي وأهل بيته ، وتركوا الرواية عنهم .

يحدثنا الخطيب البغدادي . أن نصر الجهضمي – المتوفى سنة ٢٥٠ – حدث عن النبي (ص) أنه : أخذ بيد حسن وحسين فقال : (من أحبني وأحب هذين وأباهما وامهما كان معي فى درجتي يوم القيامة) فلما حدث بهذا الحديث أمر المتوكل بضربه الف سوط ، فكلمه جعفر بن عبدالواحد وجعل يقول للمتوكل : هذا رجل من أهل السنة ولم يزل به حتى تركه .

قال الخطيب البغدادي : إنما أمر المتوكل بضربه لانه ظنه رافضياً ، فلما علم أنه من أهل السنة تركه (٢) ومن هذا نعرف عظيم الخطر الذي تلاقيه الشيعة أو الروافض – كما يقولون – فقد أصبح فى عرف أهل ذلك العصر ان من روى منقبة لعلي واهل بيته يعد رافضياً ، وكم اتهم بذلك من العلماء فاصبحوا عرضة

---

(١) الاستيعاب ج ٣ ص ٥٤ .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٨٧ .

للبلاء ، ومحلا للنقمة ، وما أكثر الشواهد على تأثر المجتمع بتلك النزعة السياسية فلا نستغرب تلك الأقوال التي كان يتخذها ـ اصحابها ضد أهل البيت وشيعتهم ـ وسيلة للنجاة وطريقاً لاستمالة قلوب ولاة الأمر إرضاءً لهم ، وان غضب الله عليهم بما يفترون .

خلاصة البحث :

هذا ما تعلق الغرض ببيانه حول مسألة التفضيل . بعد أن وقفنا على رأي مالك بن أنس وانفراده برأي يبعث على الاستغراب ، فلا حاجة لنا في مناقشته بعد معرفة الأسباب التي دعت لذلك ، وإلا كيف يتساوى علي مع سائر الناس ؟ بعد اختصاصه بمزيد فضل وعلو منزلة لا يدانيه أحد . فقد رباه النبي في حجره ونشأ في ظله ، وتغذى تعاليمه منه ، ونمت مواهبه في تربيته ، فتأدب بآدابه ، وتخلق باخلاقه ، واهتدى بهداه ، ولازمه طول حياته ، وسبق الى تصديقه في الرسالة قبل كل أحد ، ولبى دعوته في مؤازرته يوم نزلت : (وانذر عشيرتك الاقربين) وفداه بنفسه يوم ازمع كفار قريش على قتله وأمره الله بالهجرة (١) واختص النبي بمؤاخاته من بين أصحابه يوم آخى بينهم : فأخذ بيد علي وقال : هذا أخي (٢) وذلك على سبيل المشاكلة والمجانسة . وعلي نفس محمد بنص القرآن الكريم ، وهو منه بمنزلة رأسه من بدنه . وهو أعلم الامة وافضاهم وأقربهم وأشدهم جهاداً .

قال أبان بن عياش : سألت الحسن البصري عن علي (ع) فقال : ما اقول فيه ؟ كانت له السابقة والفضل والعمل والحكمة والفقه والرأي والصحبة

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) انظر كنز العمال والرياض النضرة وتذكرة الخواص وغيرها .

والنجدة والبلاء والزهد والقضاء والقربة الى أن قال - : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة عليها السلام : زوجتك خير امتي ، فلو كان في امته خيراً منه لاستثناه . ولقد آخى رسول الله بين أصحابه . فآخى بين علي ونفسه فرسول الله خير الناس نفساً وخيرهم أخاً (١) .

وسأله رجل عن علي ايضاً ، وكان يظن بالانحراف عنه . فقال : ما أقول فى من جمع الخصال الاربع ؟ إئتمانه على براءة ، وما قاله له فى غزوة تبوك ، فلو كان غير النبوة شيء يفوته لاستثناه ، وقول النبي (ص) : الثقلان كتاب الله وعترتي ، وانه لم يؤمر عليه امير قط . وقد امرت الامراء على غيره.

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل : اجتمعت جماعة عند ابي ، فخاضوا في الخلافة ، فرفع ابي رأسه ، وقال : يا هؤلاء قد اكثرتم القول فى علي والخلافة . إن الخلافة لم تزين علياً ، بل علي زانها .

وسأله ابنه عبدالله فقال له : يا ابت ما تقول فى التفضيل ؟ قال في الخلافة ابو بكر وعمر وعثمان . قال : فعلي ابن ابي طالب ؟ قال : يا بني ، علي بن ابى طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد .

وعن عبدالله ايضاً ، قال : سمعت أبي يقول : ما ورد لاحد من الصحابة من الفضائل بالاسانيد الصحاح مثل ما ورد لعلي (٢) .

ولسنا بحاجة الى ذكر اقوال التابعين وغيرهم من العلماء فى مدح علي وفضله . ونكتفي بهذه النظرة الخاطفة ولا يمكن التوسع في ذلك .

وقصارى القول فى مسألة التفضيل : أنها أهم مسألة واعظم مشكلة . وقد

---

(١) ابن ابى الحديد ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢) انظر مناقب احمد لابن الجوزي ص ١٦٣ .

اتخذها ـ خصوم الشيعة فى عصر احتدام النزاع بين الطوائف ـ ذريعة للوقوع فيهم ، والطعن في عقائدهم ، وأصبحوا بتقديمهم علياً (ع) مبتدعة لا تحل الرواية عنهم ، وهم ـ فى نظر طائفة من السلف ـ كفار لا يجوز الاخذ عنهم (١) .

وقالوا : إن من يقدم علياً على عثمان فهو من أهل البدع . الى غير ذلك من العبارات والاقوال التي نجمت من إثارة النزاع بين طوائف المسلمين ، مما كدر صفو الاخوة الاسلامية ، وفسح المجال لتدخل ذوي العقائد الفاسدة والآراء الهدامة بين صفوف المسلمين . لبث روح الفرقة وايقاد نار العداء والخصومة .

ونحن نأمل ـ كما يأمل كثير من الناس ـ أن يجيء يوم ـ وهو قريب انشاء الله ـ نقضي به على دسائس الدخلاء . واعداء الاسلام . ويتقارب المسلمون ويزول ما بينهم من تفاوت وتباعد باستجلاء الحقائق على ضوء العلم والواقع ، ليصبح الجميع اهنأ حالاً واسرع خطى في ميدان التقدم .

هذا ما لزم عرضه فى مسألة التفضيل . ولا حاجة بنا الى زيادة فى البيان وتوسع فى البحث .

ولمناسبة الموضوع ننتقل الى البحث عن رأي الشيعة فى الصحابة ، ولنعرف أسباب التهم التي وجهت اليهم فى تكفير الصحابة ، فقد وعدنا قراءنا فى خاتمة الجزء الاول بان نلتقي في البحث عن ذلك . وهنا نلتقي ومن الله نستمد التوفيق .

---

(١) انظر الكفاية للخطيب البغدادي ص ٤٨ .

موعد اللقاء
او
الشيعة والصحابة

تمهيد :

أشرنا فى خاتمة الجزء الأول من هذا الكتاب بان تهمة الشيعة بتكفير الصحابة قد كانت من قبل ولاة الأمر فلذلك أخذت نصيبها من التهويل، وحظها من الشيوع فى عصر أتخذ خصوم الاسلام شتى الاساليب ومختلف الطرق لتفريق الكلمة . وبث روح الفرقة فى صفوف الامة ، عند ما لمسوا فى السلطة رغبة لتحقيق تلك الامنية الوصول الى غاياتهم . ولم يتسع المجال الى التوسع فى البحث هناك ، لذلك أرجأنا البحث لهذا الجزء . وهنا نلتقي وفاءً بالوعد .

لعل موضوع الحديث عن الصحابة هو أهم موضوع نريد أن نتحدث عنه . وكم بودنا التجنب عن ذلك ولكن من شرط هذا الكتاب هو التعرض لكل ما له علاقة بمذهب أهل البيت . وسائر المذاهب . فان هذه المسألة من أهم المسائل التي كانت سبباً الى معارضة مذهب أهل البيت وانتشاره ، لما اتخذه خصومهم في ذلك من الوقيعة فى المنتسبين اليه .

فقد اندفع خصوم مذهب أهل البيت لمعارضته بمقدار ما يمكنهم ان تقتضيه مصلحتهم الحاضرة ، إذ لا عهد لهم بالعواقب فكانوا بعيدين من الاكتراث

بمستقبل بعيد ، واجيال تأتي من بعدهم يحاسبونهم على تلك المغالطات التي استعملوها في اخفاء حقيقة لا يمكن اخفاءها ، من ارتكاب امور ظلموا بها جيلهم الحاضر ، وحاولوا بذلك بناء سلطان يمتد نفوذه على الاجيال القادمة . فكان ذلك البناء ينهار يوماً بعد يوم ، وجيلا بعد جيل ، لانه يقوم على اساس كاذب ، فلم تؤثر تلك المحاولات ، وكان نصيبها الفشل ، ونصيبه النجاح .

وقصارى القول انهم بعد أن بان عجزهم عن مؤاخذة مذهب أهل البيت بأي شيء ، اتجهوا الى نبز الشيعة بتهم كثيرة هي بعيدة عن الواقع ، وإنما لفقتها اغراض ذوي المطامع وافتعال عملاء السلطة وعبيد المادة ، وأهم تلك التهم هي أن الشيعة يكفرون جميع الصحابة .

فلندرس هذا الموضوع بدقة ، ورجاؤنا معقود على إيلاء هذه الدراسة جل عنايتها ، واعطائها وجهة النظر بصورة خاصة ، لان اتهام الشيعة بسب الصحابة ، وتكفيرهم أمر عظيم ، ومعضلة شديدة اتخذها خصوم أهل البيت وسيلة للقضاء على مبادئهم وانتشار مذهبهم ، عند ما بان عجزهم عن اللحوق بهم ، وقد تدخل الدخلاء واعداء الاسلام في اتساع شقة الخلاف بين صفوف الامة ، ليجدوا طريقاً لبث آرائهم الفاسدة حتى أصبح من المقرر في تلك العصور تكفير الشيعة وابعادهم عن ذلك المجتمع ، كل ذلك مبعثه آراء السلطة واغراضها التي قضت على الامة بكبت الشعور ، وكم الأفواه وسلب الافراد حرية الرأي ، عندما حاولت ربط العقائد بالدولة ، وإناطة الآراء بما تراه لا غير وفرضوا ربط التعليم بهم . وضربوا سلطانهم على بعض العلماء . ووجهوهم حيث شاءت إرادتهم . إلى غير ذلك من المحاولات التي كانوا يقصدون بها القضاء على أهل

البيت ومعارضة مذهبهم ، ولكن شاء الله أن تذهب تلك المحاولات إدراج الرياح ، ويبقى ذكر أهل البيت على ممر الدهور والأعوام، ولم تقف تلك الدعايات الكاذبة والتهم المفتعلة امام إنتشاره ، وان اتهام الشيعة بسب الصحابه وتكفيرهم أمر عظيم حاول خصومهم فيه تشويه سمعتهم ، لانهم خصوم الدولة وأنصار أهل البيت ، ونحن لا نريد أن نرغم خصوم الشيعة على الاعتراف بالاخطاء التي ارتكبوها في تعبيرهم عنهم بعبارات التهجم التي تشمئز منها النفوس ، وتنفر منها الطباع .

ولا نريد منهم أن يغالطوا انفسهم في مجاراتهم للاوضاع الحاضرة .

ولا نريد منهم أن يتركوا الخطأ الذي وقفوا عليه في زاوية الاهمال ، ولا اسدال الستر على العيوب التي عثروا عليها في المجتمع الشيعي ، والنقص الذي لمسوه .

ولكنا نريد منهم أن لا يكذبوا أو يتقولوا .

ونريد منهم أن يتحرروا من تقليد أقوام اعمتهم المادة واخضعتهم السلطة . فحملتهم على الافتعال والاكاذيب .

ونريد منهم أن يصرحوا لنا بلغة العلم والمنطق الصحيح عن الامور التي استوجبت ان يرتكبوا من الشيعة ما ارتكبوه . وليحاسبوا انفسهم قبل يوم الحساب . إن اهملوا محاسبة الوجدان والضمير الحر .

ونريد منهم أن يصرحوا لنا عن نقاط الضعف التي وقفوا عليها فيما تدعيه الشيعة فأباحت لهم ذلك . وليقولوا بكل صراحة فانا نتقبل قول الحق . ولا يهم الشيعة أقوال أهل التهريج والهوس . ولا يعبأون باقلام المستأجرين من قبل

اعداء الاسلام الذين عظم عليهم انتشاره واخضعهم بقوة برهانه ، واعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . فالتجأوا الى لغة الدس والخيانة .

ونريد منهم أن يتنبهوا رويداً الى التباين بينما يدعونه أو يفتعلونه على الشيعة وبين الواقع .

ونريد من الباحث أن يتحرى ببحثه الدقة والتمحيص وان يتثبت قبل الحكم . وان يعرف الخطر الذي ينجم من وراء ذلك فقد بلغ الأمر الى أشد ما يكون من الخطورة .

الشيعة والصحابة :

تولع كثير من المؤرخين بذم الشيعة . ونسبت أشياء اليهم بدون تثبت ، فهم يكتبون بدون قيد وشرط . ويتقولون بدون وازع ديني . أو حاجز وجداني . وقد اتسعت صدور الشيعة لتحمل أفواههم . بل تقولاتهم . كما اتسعت سلة المهملات لقبر شخصياتهم . وترفعوا عن المقابلة بالمثل . وان أهم تلك التهم هي مسألة الصحابة وتكفيرهم (والعياذ بالله) مما أوجب أن يحكم عليهم بالكفر والخروج عن الاسلام كما يأتي بيانه .

قال سيدنا شرف الدين : « إن من وقف على رأينا في الصحابة علم انه أوسط الآراء إذ لم نفرط فيه تفريط الغلاة الذين كفروهم جميعاً . ولا افرطنا افراط الجمهور الذين وثقوهم جميعاً ، فان الكاملية ومن كان في الغلو على شاكلتهم قالوا : بكفر الصحابة كافة وقال أهل السنة : بعدالة كل فرد ممن سمع النبي اوراه من المسلمين مطلقاً واحتجوا بحديث (كل من دب أو درج منهم اجمعين اكتعين) أما نحن فان الصحبة بمجردها وإن كانت عندنا فضيلة جليلة لكنها بما هي

من حيث هي غير عاصمة . فالصحابة كغيرهم من الرجال . فيهم العدول وهم عظماؤهم وعلماؤهم ، وفيهم البغاة وفيهم أهل الجرائم من المنافقين . وفيهم مجهول الحال . فنحن نحتج بعدولهم ونتولاهم في الدنيا والآخرة . اما البغاة على الوصي واخي النبي (ص) وسائر أهل الجرائم كابن هند وابن النابغة وابن الزرقاء وابن عقبة وابن ارطاة وامثالهم فلا كرامة لهم ولا وزن لحديثهم . ومجهول الحال نتوقف فيه حتى نتبين امره . هذا رأينا فى حملة الحديث من الصحابة والكتاب والسنة بيننا على هذا الرأي كما هو مفصل فى مظانه من اصول الفقه . لكن الجمهور بالغوا في تقديس كل من يسمونه صحابياً حتى خرجوا عن الاعتدال فاحتجوا بالغث منهم والسمين ، واقتدوا بكل مسلم - سمع من النبي (ص) أو رآه - اقتداءً أعمى ، وانكروا على من يخالفهم فى هذا الغلو ، وخرجوا فى الانكار على كل حد من الحدود . وما أشد إنكارهم علينا حين يروننا نرد حديث كثير من الصحابة مصرّحين بجرحهم أو بكونهم مجهولي الحال عملاً بالواجب الشرعي فى تمحيص الحقائق الدينية والبحث عن الصحيح من الآثار النبوية . وبهذا ظنوا بنا الظنون فاتهمونا بما اتهمونا رجماً بالغيب وتهافتاً على الجهل . ولو ثابت اليهم أحلامهم ورجعوا الى قواعد العلم لعلموا أن اصالة العدالة فى الصحابة مما لا دليل عليها ولو تدبروا القرآن الحكيم لوجدوه مشحوناً بذكر المنافقين منهم . وحسبك منه سورة التوبة والاحزاب ... الخ .

* * *

هذا وإن المتتبع المنصف يجد أن شيعة أهل البيت يحترمون صحابة محمد (ص) ولا يحطون بكرامتهم قط ، ولكنهم يتبعون آثار النبي (ص) ويهتدون بهديه ، ويرون شمول الاحكام لهم ولغيرهم ، والقول بعدم الشمول طعن على الاسلام وأهله

فمن أين يأتي القطع بالعدالة ؟ وما كان الصحابة يعرفون ذلك من أنفسهم ، فانهم ملزمون بصيانة نظام الدين والمحافظة على تعاليمه ، لان قوانين الاسلام وتعاليمه تعاقب المجرم لمخالفته إياها ، ولم يفرق الاسلام في تطبيقها بين افراد الامة ، فهي بعمومها شاملة لهم ولغيرهم ، فهل يصح لأحد أن يصبح فوق القانون ؟ ما كانت هذه المنزلة لمحمد نفسه ولا لاهل بيته من بعده .

وإن مسألة اجتهاد الصحابة هي فى الحقيقة طرح للاحكام ونبذ لتعاليم القرآن وراء الظهور ، وإنها نظرية مغلوطة وان فرضت نفسها على الامة بلا دليل، فاصبح من العسير الصراحة بان هذه الفكرة غير صحيحة وهذه النظرية مغلوطة ومن أراد أن يجهر بالحق يرمى بالزندقة والالحاد وسوء العقيدة والفساد .

ولا نشذ عن الواقع بعدم القول بأن كل صحابي عادل . ولكننا نزنهم بميزان الاعمال ، فنعطي كل ذي حق حقه ، وننزل كل رجل منهم منزلته ، والصحبة بعمومها شاملة للمؤمن والمنافق ، والبر والفاجر ، كما صرح به (ص): يحدثنا الماوردي : أن النبي (ص) عطش فى غزوة تبوك ، فقال المنافقون : إن محمداً يخبر باخبار السماء ، ولا يعلم الطريق الى الماء ، فاخبره جبرئيل باسمائهم فشكى صلى الله عليه وآله الى سعد بن عبادة فقال له سعد : إن شئت ضربت اعناقهم . قال (ص) : لا يتحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه ، ولكن نحسن صحبتهم ما أقاموا معنا . وقد ترك النبي (ص) الصلاة على رجل توفي بخيبر وهو في جيش المسلمين فقال (ص) : إنه غلّ فى سبيل الله . ففتشوا متاعه ، فوجدوا فيه خرزاً من خرز اليهود .

فالصحبة لم تكن بمجردها عاصمة . وتلبس صاحبها ابراد العدالة . وانما

ذلك بالعمل كما اختلفت مراتبهم فيه . ولو كانت الصحبة بمجردها عاصمة ، لعصم الذين مردوا على النفاق والذين ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لرسول الله الامور واظهروا الغدر حتى جاء الحق . وظهر أمر الله وهم كارهون .

ليت شعري ما هذه العصمة . أكانت فى حياة النبي أم بعده ؟ فان كانت فى حياته فما اكثر الشواهد على نفي ذلك :

١ — كان رجل يكتب للنبي ، وقد قرأ البقرة وآل عمران . فكان رسول الله (ص) يملي عليه غفوراً رحيما . فيكتب عليما حكيما فيقول له النبي : اكتب كذا وكذا . فيقول : اكتب كيف شئت . ويملي عليه عليما حكيما فيكتب سميعاً بصيراً وقال : أنا اعلمكم بمحمد فمات ذلك الرجل فقال النبي (ص) : الأرض لا تقبله . قال أنس : فحدثني ابو طلحة . انه اتي الارض الذي مات فيها الرجل . فوجده منبوذاً فقال ابوطلحة : ما شأن هذا الرجل قالوا : دفناه مراراً فلم تقبله الارض قال ابن كثير : وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه(١)

٢ — واخرج البيهقي بسنده عن ابي عبدالله الاشعري عن ابي الدرداء قال : قلت يا رسول الله بلغني انك تقول : ليرتدن اقوام بعد ايمانهم . قال « ص » : أجل ولست منهم (٢) .

ومن الغريب ان البعض علل ذلك بان المراد من هؤلاء المرتدين ، هم الذين قتلوا عثمان . وان ابا الدرداء مات قبل قتل عثمان . وبهذا التوجيه يتوجه الطعن على اكثر الصحابة ، فانهم اشتركوا بقتل عثمان ، والمتخلفون عن ذلك

(١) تاريخ ابن كثير ج ٦ ص ١٧٠ .

(٢) تاريخ ابن كثير ج ٦ ص ٢٠٧ .

عدد لا يتجاوزون اصابع الكف . وبمقتضى هذا التأويل يدخل فى قائمة الحساب عدد كثير هو اضعاف ما فى قائمة الشيعة من المؤاخذات .

٣ — وهذا الوليد بن عقبة بن ابي معيط الذي سماه الله فاسقاً حينما ارسله النبي (ص) على صدقات بني المصطلق فعاد واخبر النبي (ص) : انهم خرجوا لقتاله فاراد أن يجهز لهم جيشاً فانزل الله فيه : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة . . . الآية » . فقد كان في عداد الصحابة. فاين العدالة من الفاسق (١) ؟!

٤ — وهذا الجد بن قيس أحد بني سلمة نزلت فيه : « ومنهم من يقول أذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين » (٢).

٥ — وهذا مسجد ضرار وما أدراك ما مسجد ضرار قد بناه قوم ، وسموا بالصحبة يتظاهرون فيه باداء الصلاة في أوقات لا يسعهم الوصول الى النبي، ولكن فضح الله سرهم وأبان أمرهم فهم منافقون .

وانزل ا . فيهم : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون » (٣) وكانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين منهم خذام بن خالد بن عبيد ومن داره أخرج المسجد ، ومعتب بن قشير وابو حبيبة ابن ابي الازعر وغيرهم ، ذكرهم ابن كثير فى ج ٢ ص ٣٨٨ من تفسيره وغيره من التفاسير (٤) .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢١٢ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢ ص ٣٣٢ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٧.
(٤) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤١.

٦ — وهذا ثعلبة بن حاطب بن عمر بن امية ممن شهد بدراً و أُحداً ، فقد منع زكاة ماله ، فانزل الله فيه : « ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما اتاهم الله من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون » (١) .

وكان ثعلبة هذا من الصحابة ملازماً لاداء الصلاة فى أوقاتها ، وكان فقيراً معدماً ، فقال لرسول الله (ص) : ادع لي أن يرزقني مالاً فقال (ص) : ويحك يا ثعلبة قليل تشكره خير من كثير لا تطيقه فقال ثعلبة : والذي بعثك في الحق نبياً لان دعوت الله فرزقني مالاً لاعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله (ص) : اللهم ارزق ثعلبة مالاً ، فزاد وفره وكثر ماله وامتنع من اداء زكاته فاعقبه الله نفاقاً الى يوم يلقاه بما أخلف وعده وكان من الكاذبين.

٧ — وهذا ذو الثدية كان فى عداد الصحابة متنسكا عابداً ، وكان يعجبهم تعبده واجتهاده فامر النبي بقتله وكان (ص) يقول : انه لرجل في وجهه لسفعة من الشيطان ، وارسل أبا بكر ليقتله فلما رآه يصلي رجع وارسل عمراً فلم يقتله ثم أرسل علياً فلم يدركه (٢) وهو الذي ترأس الخوارج وقتله علي (ع) يوم النهروان .

٨ — وهؤلاء قوم وسموا بالصحبة كانوا يجتمعون فى بيت سويلم يثبطون الناس عن رسول الله (ص) فامر من احرق عليهم بيت سويلم (٣) .

٩ — وهذا قزمان بن الحرث شهد أُحداً وقاتل مع النبي (ص) قتالا

(١) انظر الاستيعاب بهامش الاصابة ج ١ ص ٢٠١ .
(٢) الاصابة ج ١ ص ٤٢٩ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ٦ ص ٣٣٢ .

شديداً ، فقال أصحاب النبي (ص) : ما اجزأ عنا أحد كما اجزأ عنا فلان فقال النبي (ص) : أما إنه من أهل النار ، ولما اصابته الجراحة وسقط فقيل له : هنيئاً لك بالجنة يا أبا الغيداق . قال : جنة من حرمل والله ما قاتلنا إلا على الاحساب (١) .

١٠ — وهذا الحكم بن ابي العاص بن امية بن عبدشمس طريد رسول الله ولعينه وهو والد مروان وعم عثمان .

حدث الفاكهي بسند عن الزهري وعطاء الخراساني ان اصحاب محمد (ص) دخلوا عليه وهو يلعن الحكم فقالوا : يا رسول الله ما باله ؟ فقال : دخل علي شق الجدار وأنا مع زوجتي فلانة .

ومر النبي بالحكم فجعل الحكم يغمز النبي باصبعه فالتفت فرآه فقال : اللهم اجعله وزغا فزحف مكانه (٢) وكان يسمى خيط الباطل وقال (ص) فيه : ويل لامتي مما في صلب هذا .

ومن حديث عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم : اشهد ان رسول الله لعن أباك وانت في صلبه .

١١ — وهذه ام المؤمنين عائشة لم يثبت لها (ص) الايمان كما حدث كثير ابن مرة عنها : ان النبي (ص) قال : اطعمينا يا عائشة قالت : ما عندنا شيء ، فقال ابو بكر : إن المرأة المؤمنة لا تحلف انه ليس عندها شيء وهو عندها . فقال النبي (ص) : ما يدريك انها مؤمنة ؟ إن المرأة المؤمنة في النساء كالغراب الأبقع في الغربان (٣) .

(١) الاصابة ج ٣ س ٢٢٥ .
(٢) نفس المصدر ج ١ س ٣٤٦ .
(٣) علل الحديث لابن ابي حاتم ج ١ س ٤٣٩ .

وهذا انكار من النبي (ص) على القطع بالعدالة والايمان . ولو كان كما يدعى لقال مؤيداً لقول ابي بكر . نعم انها مؤمنة وزوجة نبي ومن اهل الجنة. ولكنه (ص) لم يرض بذلك الاعتقاد وانما الامور منوطة بالعمل وحسن الخاتمة .

ويدل على ذلك انه (ص) عاد كعباً في مرضه فقالت ام كعب : هنيئاً لك الجنة يا كعب ، فقال (ص) : من هذه المتالية على الله عز وجل . قال كعب: هي امي يا رسول الله .

فقال (ص) : وما يدريك يا ام كعب ؟ لعل كعباً قال ما لا يعنيه ومنع مالا يغنيه (١) .

١٢ — واخرج النسائي في صحيحه عن ابن عباس - في نزوله تعالى « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » - انه قال : قال كانت امرأة تصلي خلف رسول الله (ص) حسناء من أحسن الناس ، وكان بعض القوم يتقدم لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر ، فاذا ركع نظر من تحت ابطه ليراها . فانزل الله فيهم ذلك .

١٣ — وأخرج ابن حنبل من طريق ابن عباس وابن عمر انهما سمعا النبي (ص) على منبره يقول : لينتهين اقوام عن ودعهم الجماعات او ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكتبن من الغافلين (٢) .

١٤ — اخرج أحمد فى مسنده : عن عبدالله بن مسعود عن النبي (ص) انه قال لاصحابه: انا فرطكم على الحوض ولأنازعن أقواما ثم لاغلبن عليهم فاقول :

(١) انظر تاريخ البغداد ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) مسند احمد ج ٥ ص ٤٠ ط ٢ .

يا ربي اصحابي .فيقول: إنك لا تدري ما احدثوا بعدك (١) . واخرج في ج ٦ ص ٥١ عن ابن مسعود ايضاً بلفظ : واني ممسك بحجورك ان تهافتوا في النار كتهافت الفراش .

واخرج الترمذي عن النبي (ص) : ويؤخذ من اصحابي برجال ذات اليمين وذات الشمال فاقول : يا ربي أصحابي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فانهم لن يزالوا مرتدين على اعقابهم منذ فارقتهم ، فاقول كما قال العبد الصالح : إن تعذبهم فانهم عبادك (٢) .

وأخرج مسلم من طريق عائشة بلفظ : إني على الحوض انتظر من يرد علي منكم فوالله لينقطعن رجال فلاقولن أي ربي . . . الحديث (٣) .

وأخرج ايضاً من طريق أم سلمة مثله في ج ٤ ص ٦٧ .

* * *

ولعل الاستمرار بذكر الشواهد ـ وما اكثرها ـ يوجب الاطالة ، والاطالة توجب الملل ، فلهذا نكتفي بالقليل من البيان حول الشواهد على نفي العدالة المزعومة : « لكل من دب ودرج » .

والحق ان الصحبة بما هي فضيلة جليلة لكنها غير عاصمة ، فان فيهم العدول والاولياء والصديقون ، وهم علماء الامة وحملة الحديث ، وفيهم مجهول الحال وفيهم المنافقون واهل الجرائم ، كما اخبر تعالى بقوله « وممن حولك من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم

(١) مسند احمد ج ٥ ص ٢٣١ .
(٢) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٦٨
(٣) صحيح مسلم ج ٤ ص ٦٥ .

سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم » (١) وفيهم من كان يؤذي رسول الله « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم » (٢) ، فالى الله نبرأ من هؤلاء ومن « اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل ا . انهم ساء ما كانوا يعملون » و « الذين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » . والكتاب العزيز يعلن بصراحة عن وجود طائفة تستمع الى رسول الله (ص) ولكن طبع الله على قلوبهم لانهم اتبعوا الهوى فقال تعالى : « ومنهم من يستمع اليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم » (٣) كما اعلن تعالى لعن طائفة منهم وهم الذين في قلوبهم مرض والذين يفسدون في الارض ويقطعون ارحامهم « اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » (٤) .

وليتني ادري أين ذهب اولئك بعد رسول الله (ص) ؟ وقد جرعوه الغصص في حياته ، ودحرجوا الدباب ، فهل انقلبت حالهم بعد موته (ص) من النفاق الى الايمان ؟ ومن الفساد الى الصلاح ، ومن الشك الى اليقين ، فاصبحوا في عداد ذوي العدالة من الصحابة الذين طبعت نفوسهم على التقى والورع وعفة النفس والعلم والحلم والتضحية في سبيل الله وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله:

---

(١) التوبة ، ١٠١ .

(٢) التوبة ، ٦١ .

(٣) سورة محمد (ص) ، ١٦ .

(٤) سورة محمد (ص) ، ٢٣ و ٢٤ .

« اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلامن ا ورضوانا سيماهم فى وجوههم من اثر السجود » (١) . وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون » (٢) وقد امرالله تعالى باتباعهم والاقتداء بهم بقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

فنحن لا نرتاب في ديننا ولا نخالف قول الحق فى تميز منازل الصحابة ، ودرجاتهم فنتبع الصادقين منهم . ونوالي من اتصف بتلك الصفات التي ذكرها الله ورسوله كما انا لا نأتمن اهل الخيانة لله ورسوله ، ففي ذلك جناية على الدين وخيانة لامانة الاسلام ولا نركن لمن ظلم منهم ، ولا نود من حاد الله ورسوله ، هذا هوقول الحق . والحق احق أن يتبع .

عتب جميل

للنزعات دخل فى اقوال المرء وافعاله ، ولا يكاد من ابتلى بها ان يتمتع بحرية الرأي وسلامة التفكير ، فليس له قابلية على التحرر من تلك القيود التي ضربتها النزعات .

ولا نزاع ان انحراف اكثر الناس عن اهل البيت انما كان من قبل تصرف النزعات والعصبية . فمنهم من جاهر بالباطل وهو يعلم الحق . وذلك على سبيل المغالطات كما هي عادة المنحرفين عن امر لا يروقهم ظهوره . ومنهم اناس سيطرت عليهم الايحاءات الكاذبة والاوهام الخداعة . واتبعوا الظروف من حيث هي

---

(١) الفتح ، ٢٩ .

(٢) الحجرات ١٥ .

ومنهم بين بين . ولكن يتأول ويجادل ولن يغني ذلك من الحق شيئاً .

ولا نزاع بان السلطات التي قامت فى تلك العصور كانت تحارب اهل البيت وتقاوم انصارهم ، وتخادع الناس باساليب مختلفة لتحملهم على مناوءتهم ، كل ذلك امر لا يحتاج الى مزيد بيان ، والتأريخ شاهد على ما كانوا يعملونه من اثارة البغضاء . وايقاد نار العداء بين المسلمين ، فاغتنم الدخلاء واعداء الاسلام ذلك فوسعوا شقة الخلاف ، واستعملوا لغة الدس والخيانة ، عندما عجزوا عن مقاومته بالقوة وجهاً لوجه . فنشأ ذلك التطور الغريب . وحدثت تلك المنازعات .

ومن المعهود ان رجال الفرق واهل العصبيات كانوا ينقلون عن مخالفيهم آراءً قد لا يعرفها هؤلاء ، وقد يعرفونها على صورة اخرى تختلف اختلافا قريباً او بعيداً عن الصورة المنقولة ، ومن هذا الباب ما كان ينقل عن الشيعة في كثير من الامور مع الافتراآت . والتقول بالباطل ، او مؤاخذة الامة بالفرد حتى أدت الحالة الى وجوب التظاهر ببغض الشيعة وذمهم بالقول شعراً ونثراً وتأليفاً لينالوا قرب السلطان وجائزته ، كما مر كثير من الاشارة لذلك (١) كما وانهم اندفعوا — حباً للسلامة وخوفا من الاتهام بالزندقه او الكفر — الى البراءة من الشيعة واخذ تمام الحيطة عن تطرق الاحتمال بالميل الى التشيع ، لان الشيعة كانوا خصوم الدولة . والحزب المعارض لسياسة الاستبداد . فهم الشجى المعترض فى حلق اولئك الجبارين ، ولم تستطع عوامل السلطة اخضاعهم ، او تبديل ما هم عليه من العقيدة الراسخة . باحقية اهل البيت ، فكانوا يلاقون المحن ويخوضون غمار الحرب في سبيل الدعوة الى الحق . واتباع سياسة اهل البيت

(١) أنظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ١١٥ — ١١٩ .

في مقاطعة الظالمين ، وعدم الركون اليهم كما اتضح ذلك من رأي الامام الصادق (ع) وجميع اهل البيت (ع) .

وصفوة القول ان عصور التلاعب بالمبادىء والتطاحن حول بغيـة ذوي الاطماع قد ولت ، ونحن في عصرنا الحاضر عصر انطلاق الفكر — من عقاله — والتقدم والرقي ، أيصح لنا أن نستمر على ضرب وتر العصبية ؟ ونطرب لنغمات النزعة الطائفية ، ونكرع بكأس الشـذوذ عن الواقع . ونهمل ما يجب علينا من مكافحة خصوم الاسلام واعدائه ، فقد وجهوا الينا سيلا جارفا من الآراء الهدامة والمبادىء الفاسدة .

أليس من الذوق السليم الترفع عن التعبير بتلك العبارات التي اتخذها ضعفاء العقول ، واهل الجمود الفكري عندما يكتبون عن الشيعة فينبزون بكل عظيمة ، أليس من الحق ان يتبينوا من صحة ما يقولون ؟ .

وإن اتهام الشيعة بسب الصحابة وتكفيرهم اجمع إنما هـو اتهام بالباطل ورجماً بالغيب ، وخضوعا للعصبية وتسليما لنزعة الطائفية .

والآن وقد مرت العصور التي اقتضت أن تحكم عليهم بهذا الحكم القاسي ، وتتهمهم بتلك العظائم وهم برآء من ذلك كما يأتي بيانه ، وقد اتضح لدى كل عارف نوايا سلطة تلك العصور بسلبها الافراد حرية الرأي ، وتدخلهم في العقائد ، فلا رأي إلا ما تراه الحكومة ، ولا عقيدة الا ما تقرره الدولة . كل ذلك انما كان لامور سياسية . وقد اتصفت الشيعة بحرية الفكر . وعدم الاعتناء بتلك القيود التي فرضتها السلطة لاغراضها الخاصة . فقد الزموا الناس بالسكوت عما شجر بين الصحابة ومنعوا الحديث في ذلك ، واعطوا كل من وسم بالصحبة حصانة

غير معهودة . وقرروا معاقبة المخالف بالحكم عليه بالزندقة والالحاد وفساد العقيدة ، وغرضهم بذلك القضاء على رجال الفكر من الامة . وكم ذهب ضحية ذلك الاتهام من رجال العلم وحملة الحديث ؟ .

وهل تجاوزت الشيعة فى نقد اعمال بعض الصحابة حدود الكتاب والسنة ؟ إذ وجدوا في اعمالهم مخالفة ظاهرة ، لا يمكن لها التأويل والتسامح ، لان عموم الصحبة لا تمنحهم سلطة التصرف بالاحكام ، ولا تسوّغ لهم مخالفة تلك الحدود . وان الاجتهاد في مقابلة النص هو في الحقيقة طرح للاحكام ، ونبذ للقرآن وراء الظهور ، وإن كثيراً منهم حديثوا عهد في الاسلام . قد الفت نفوسهم اشياء وطبعت عليها . ومن الصعب عليها أن تتحلل منه بسرعة ، وان الطبيعة البشرية أمّارة بالسوء ، والخطأ من طبيعة الانسان ، والبحث عن اعمالهم الصادرة منهم وتمحيصها على ضوء العلم لتفهم الحقيقة الغامضة لا يوجب طعناً على الجميع . لانا لانحاول إلا فهم الحقائق وامتيازهم بما ميزهم العلم والواقع .

وليس من الانصاف أن يكونوا هؤلاء بمنزلة اهل السبق ، ومن رسخ الايمان فى قلوبهم فنشروا الاسلام وحملوا ألوية العدل . ونشروا العقيدة الاسلامية ، وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم وانفسهم عن نية صادقة ، وهاجروا عن ايمان خالص .

وقد قال النبي (ص) : « إنما الاعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » (١) .

وسأله ناس من اصحابه فقالوا : يا رسول الله أنؤآخذ بما عملنا في الجاهلية

(١) صحيح مسلم ج ٦ ص ٤٨ .

فقال (ص) : « اما من احسن منكم فى الاسلام فلا يؤاخذ به . ومن اساء اخذ فى الجاهلية والاسلام » (١) . وعن صهيب مرفوعا : « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه (٢) وعنه (ص) بلفظ : من احسن فى الاسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ومن اساء في الاسلام اخذ فى الاول والآخر » (٣) .

وعن ابن عمر قال : صعد رسول الله (ص) المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : « يا معشر من اسلم بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم . من تتبع عورة اخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله (٤) .

* * *

وهكذا يتضح لنا على ضوء الاحاديث النبوية وآي القرآن الكريم مساواة الناس وشمول الاحكام لهم . وأن ثبوت العدالة بالعمل ولا اثر لها بدونه والصحابة اولى بتنفيذها . والقول فى اجتهادهم مطلقاً يحتاج الى مشقة فى الاثبات . والنتيجة عقيمه لا تثمر كثير فائدة . والتأويل في مقابلة النص معناه طرحا للاحكام . فلا يصح أن يتأولوها على خلاف ظاهرها ثم يستبيحوا لانفسهم مخالفة الظاهر منها ، بل الاحكام شرعة واحدة بين الناس لتشملهم عدالتها .

ولا يتسع صدر هذا الكتاب لبيان الشواهد على نفي العدالة المزعومة فى عهد الصحابة فانهم لم يعترفوا بذلك بل لم يعرفوا عنه شيئاً .

---

(١) صحيح مسلم ج ١ س ٧٧ .

(٢) صحيح الترمذي ج ٢ س ١٥١ .

(٣) صحيح مسلم ج ١ س ٧٧ .

(٤) صحيح الترمذى ج ١ س ٣٦٥ .

ولنا فى سياسة الامام علي بن ابي طالب وسيرته في عصر الخلفاء وفى عصره لاكبر دليل على ما نقول ، فقد كان يقيم الحد على من تعدى حدود الله ، ويعامل كل واحد بما يقتضيه عمله ، وبقدر منزلته عند الله تعظم منزلته عنده . كما انا رأيناه فى عصر خلافته يحرص على تطبيق القانون الاسلامي وتقرير حقوق الانسان المستمدة من شريعة القرآن . فهو يسير على اساس المساواة في الاسلام الذي محى كل فضل يمكن ان يدعى باصالة المحتد او الانتساب الى قبيلة او غير ذلك — إن اكرمكم عند الله اتقاكم — وكان علي لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يهمه تفرق الناس عنه ما دام محقاً . لذلك صعب على ذوي النفوس الشريرة التي تريد التمتع في ملاذ الدنيا وفوائن الحياة إذ وجدوا علياً اماماً لا يمكنهم تحقيق أي غاية فى ظل سلطانه فالتجأوا الى رحب فسيح وحرية مطلقة وذلك فى ظل سلطان معاوية الذي لا يتقيد بنظام ولا يهمه امر سوى امتداد سلطانه ونفوذ امره ، لذلك التجأ اكثرهم اليه ليمنعوا انفسهم وتدرأ عنهم الحدود . كالقعقاع بن ثور والنجاشي وغيرهما .

ومن وقف على عهوده (ع) لعماله ووصاياه لامراء جيشه ورسائله لولاة امره يعرف هناك عدم الالتزام بما الزمت الامة به من القيود التي فرضتها ظروف خاصة .

والتحدث عن سيره علي لا يتسع له مجال هذا الموضوع الذي خضناه بهذه العجالة والغرض ان اصحاب محمد (ص) لابد ان يلتزموا باجتناب ما حرم الله تعالى ويهتدوا بهدى رسوله (ص) ولم يفتحوا المجال لمتأول فى مقابلة النص ، وللاجتهاد شروط ، ولعل فى قصة قدامة اكبر دليل على ذلك .

قدامة بن مضعون

قدامة بن مضعون بن حبيب المتوفى سنة ٣٦ كان من السابقين الاولين . وهاجر الهجرتين واستعمله عمر بن الخطاب على البحرين فقدم الجارود سيدعبدالقيس على عمر بن الخطاب من البحرين وشهد على قدامة انه شرب الخمر فسكر . فقال : من يشهد معك ؟ فقال الجارود : ابو هريرة . فقال عمر لابي هريرة : بم تشهد ؟ قال : لم اره شرب ولكنني رأيته سكران يقيء . فقال عمر : لقد تنطعت في الشهادة . ثم كتب الى قدامة : أن يقدم عليه من البحرين فقدم ، فقال الجارود : أقم على هذا حد الله . فقال عمر : أخصم انت أم شهيد ؟ فقال : شهيد . فقال : قد أديت شهادتك . ثم غدا الجارود على عمر فقال : أقم على هذا حد الله فقال عمر : ما أراك إلا خصما وما شهد معك إلا رجل واحد . فقال الجارود : أنشدك الله فقال عمر : لتمسكن لسانك أو لأسوءنك . فقال : يا عمر ما ذاك بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوءني . فقال ابو هريرة : يا امير المؤمنين إن كنت تشك في شهادتنا فارسل الى ابنة الوليد فاسألها — وهي امرأة قدامة — فارسل عمر الى هند بنت الوليد ينشدها . فاقامت الشهادة على زوجها فقال عمر لقدامة : أني حادك . فقال قدامة : لو شربت كما تقول ما كان لكم ان تحدوني . فقال عمر : لمَ ؟ قال قدامة : قال الله عز وجل : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا . . . الآية » فقال عمر : اخطأت التأويل أنت اذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله . ثم اقبل عمر على الناس فقال: ما ترون في جلد قدامة ؟ فقالوا : لا نرى ان تجلده ما دام مريضاً . فسكت على ذلك اياماً ثم اصبح وقد عزم على جلده فقال : ما ترون في جلد قدامة ؟

فقالوا : لا نرى ان تجلده ما دام وجعاً فقال عمر : لا ن يلقى الله تحت السياط احب إلي من أن القاه وهو فى عنقي إئتوني بسوط تام فامر به فجلد . (١)

هذه قصة قدامة وإقامة الحد عليه وتأويله فيما ارتكبه ولم نوردها لنحط من كرامته او نطعن عليه فى دينه ، فله شرف الهجرة والسبق . ولكننا ذكرناها ليتضح لنا عدم صحة ما يقولون بعدم مؤآخذ المتأول وان خالف الاجماع وماهو معلوم بالضرورة كقضية ابي الغادية وقتله لعمار بن ياسر مع اعترافه بان ما ارتكبه جريمة توجب دخول النار وستأتي قصته

وهناك جماعة من الصحابة تأولوا فاخطأوا فلم يدرأ تأويلهم الحد لوقوعهم فى الخطأ . منهم : أبو جندل وضرار بن الخطاب وابو الازور فقد وجدهم ابوعبيدة شربوا الخمر فانكر عليهم فقال ابو جندل : « ليس على الذين آمنوا جناح فيما طعموا . . . الآية » ولم ينفعهم ذلك وأقام عليهم الحد .

وكان عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر بمصر فأقام الحد عليه عمرو بن العاص الى كثير من ذلك .

ولعل فى سيرة عمر بن الخطاب مع عماله ومقاسمته اموالهم دليل على عدم وجود العدالة الفارعة .

فهذا ابو هريرة استعمله عمر على البحرين فقدم بعشرة آلاف فقال له عمر : استأثرت بهذه الاموال ياعدو الله وعدو كتابه . فقال ابو هريرة : لست بعدو الله ولا عدو كتابه ولكن عدو من عاداهما فقال عمر : من أين هي لك ؟ قال خيل نتجت ، وغلة ورقيق لي واعطية تتابعت (٢) .

---

(١) الاصابة ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٢) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ١١٣ .

وفي لفظ ابن عبد ربه ان عمر دعا أبا هريرة فقال له : علمت اني استعملتك على البحرين وانت بلا نعلين ثم بلغني انت ابتعت افراساً بالف دينار وستمائة دينار قال : كانت لنا افراس تناتجت وعطايا تلاحقت ، قال عمر : قد حسبت لك رزقك ومؤونتك وهذا فضل فأده ، قال ابو هريرة : ليس لك ذلك . قال : بلى والله اوجع ظهرك ، ثم قام اليه بالدرة فضربه حتى ادماه ، ثم قال : أئت بها . قال احتسبتها عند الله قال : ذلك لو اخذتها من حلال واديتها طائعاً ، أجئت من اقصى البحرين تجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين ؟ ما رجعت بك اميمة إلا لرعية الحمر — واميمة ام أبي هريرة (١) .

هكذا رأينا عمر يقابل أبا هريرة بشدة ويتهمه بخيانة اموال المسلمين وينسبه لعداء الله وعداء كتابه ولا يصدقه فيما يدعيه . ولو كان أبو هريرة عادلا في نظر عمر لصدق قوله .

ويحدثنا البلاذري أن أبا المختار يزيد بن قيس رفع الى عمر بن الخطاب كلمة يشكو بها عمال الاهواز وغيرهم يقول فيها :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... فانت أمين الله في النهي والامر
وانت أمين الله فينا ومن يكن ... أميناً لرب العرش يسلم له صدري
فارسل الى الحجاج فاعرف حسابه ... وارسل الى جزء وارسل الى بشر
ولا تنسين النافعين كليهما ... ولا ابن غلاب من سراة بني نصر (٢)

الى آخر الرسالة وذكر فيها جماعة من عماله الذين استأثروا بالاموال وجلهم من الصحابة . والحجاج الذي ذكره هو ابن عتيك كان من الصحابة الذين نزلوا

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦ .
(٢) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

البصرة ، وولاه عمر على الفرات وهو زوج ام جميل الهلالية صاحبة المغيرة بن شعبة والقصة مشهورة .

والنافعان هما ابو بكرة واسمه نفيع ونافع بن الحرث اخوه كان على بيت المال في إصبهان وهما صحابيان . وغير هؤلاء ذكرهم ابو المختار وهم من الصحابة كسمرة بن جندب ومجاشع بن مسعود والنعمان بن عدي بن نضلة وكان من مهاجرة الحبشة وبشر بن المحتفز .

قال البلاذري فقاسم عمر هؤلاء - الذين ذكرهم ابو المختار - شطر اموالهم حتى اخذ نعلا وترك نعلا وكان فيهم ابو بكرة ، فقال : اني لم آل لك شيئاً ، فقال له : اخوك على بيت المال وعشور الابلة وهو يعطيك المال تتجر به فاخذ منه عشرة آلاف ويقال قاسمه شطر ماله . ولم يقاسمهم عمر إلا بعد ثبوت جناية الخيانة لاموال المسلمين ، والخيانة لا تجتمع مع العدالة . فالعادل امين ، فلا يمكن ان يقال امين خائن ، ثم لم لم يحملهم على صحة العمل فلعلهم تأولوا فاخطأوا ولا نريد أن نتساءل عن حكم عمر بالمقاسمة وما وجه ذلك ؟ ولكن غرضنا انه عاملهم معاملة سائر الناس .

ابو الغادية الجهني

ابو الغادية الجهني اسمه يسار بن سبع كان من الصحابة وممن سمع من النبي وروى عنه . ومن رواياته انه سمع النبي (ص) يقول : إن دماءكم واموالكم حرام ،

وهو قاتل عمار بن ياسر وكان الناس يتعجبون منه انه سمع من النبي (ص) ذلك ويقتل عماراً . وقد قال النبي (ص) : « يا عمار تقتلك الفئة الباغية »

فكان ابو الغادية يدخل على معاوية فاذا استأذن عليه يقول : قاتل عمار في الباب . (١)
وقد انكر الناس عليه كما اعترف هو بذنبه وانه من اهل النار .

وذلك لما دخل على الحجاج فرحب به وقال انت : قتلت ابن سمية ؟
قال : نعم ثم وصف له كيفية قتله له . فقال الحجاج يا اهل الشام من سره ان ينظر
الى رجل طويل الباع يوم القيامة فلينظر الى هذا .

فقال ابو الغادية : اجل والله ان من ضرسه مثل احد وفخذه مثل ورقان
ومجلسه ما بين المدينة والربذة لعظيم الباع يوم القيامة . وهي صفة اهل النار كما
في الحديث الشريف . وفي اسد الغابة ج ٥ ص ٢٦٧ انه قال : والله لو أن
عماراً قتله اهل الارض لدخلوا النار .

هكذا اعترف ابو الغادية على نفسه وكثر الانكار عليه من الصحابة لارتكابه
الجريمة ولكن البعض من المحدثين حاولوا ان يرغم أبا الغادية على عدم الاكتراث
بهذه الجريمة ، ويهون عليه الخطب ولا يرى لانكار الصحابة قيمة إذ هو بريء
من قتل عمار في نظره . فيقول : والظن بالصحابة في تلك الحروب انهم كانوا
متأولين وللمجتهد المخطىء اجر . واذا ثبت هذا في حق آحاد الناس فثبوته
للصحابة بالطريق الاولى (٢) .

ولا نود أن نطيل الكلام حول هذه القاعدة ومناقشتها فبطلانها واضح ،
والاعراض عنها اولى ، إذ لا يسعنا أن نتتبع الامور التي تناقضها ، واهم شيء انها
تقضي بطرح قول النبي (ص) جانباً إذ لا معنى لقوله : يا عمار « تقتلك الفئة
الباغية » . فكيف يصح أن يكون ابو الغادية مأجوراً على جرمه ؟ وقد وصفه

(١) اسد الغابة ج ٥ ص ٢٦٧ .
(٢) الاصابة ج ٤ ص ١٥١ .

صلى الله عليه وآله بانه من الفئة الباغية .

ما ذلك إلا تحدٍ لنواميس الدين ومقدسات الشريعة . ومجادلة بالباطل لحفظ كرامة معاوية وحزبه « ها أنتم جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ام من يكون عليهم وكيلا » . (١)

رواية الصحابي

وواضح مما تقدم أن الشيعة لا يذهبون الى عدالة كل من وسم بالصحبة ، وتحقيقها لا يكون إلا بالعمل الذي يصح أن يتصف الراوي بشروط العدالة المقررة ، واصالة العدالة فى حق الصحابة لا اصل له واثبات ذلك يحتاج الى مشقة والنتيجة عقيمة لا تثبت أي ثمرة هناك .

اما السنة فقد اثبتوا العدالة لكل صحابي واستدلوا بادلة ذكرت فى محلها ومع ذلك فقد اختلفوا ، فذهب طائفة الى عدالة الصحابة اجمع بدون استثناء ، وآخرون ذهبوا الى عدالة من لم يلابس الفتنة « اي من حين مقتل عثمان » .

وذهبت المعتزلة : الى فسق من قاتل علياً منهم . وحكى ابن الصلاح اجماع الامة على تعديل من لم يلابس الفتنة .

وحكى الآمدي وابن الحاجب قولا كغيرهم فى لزوم البحث عن عدالتهم الى غير ذلك من الاقوال . (٢)

أما الشيعة فلا يذهبون لعدالة الجميع كما تقدم ، فهم يتثبتون فى قبول الرواية فلا يروون إلا عن ثقة ولهم شروط مقررة فى محلها ، إذ الحديث هو دستور

---

(١) النساء ، ١٠٩ .

(٢) انظر شرح الفية العراقي ج ٤ ص ٣٥ وكفاية الخطيب البغدادي ص ٨١ — ٨٣ .

الاسلام ومناهج حياة المسلمين الدينيـة والاجتماعية ، لذلك اجتهد المسلمون في دراسته من حيث السند والدلالة .

وقد سمعنا وسمع كل احد تلك التقولات على الشيعة : بانهم يردون أحاديث الصحابة ولا يأخذون عنهم ، وهذا طعن على اصحاب محمد .

وقد ذكر بعضهم أن الشيعة لا يعتمدون على شريعة المسلمين لانهم يردون اخبار الصحابة الى غير ذلك من الاقوال والتقولات .

وواضح ان مقتضى تلك الاقوال تهدف لشيء خلاف الواقع اتباعا لظروف قضت على الامة بذلك ، وليت شعري أمن الانصاف والواقع أن تؤاخذ الشيعة في التثبت عند قبول الرواية ، وهل جاءوا بشيء نكرا إذا لم يقبلوا رواية من اتضحت حاله لسوء عمله ومجاراة هـواه ؟؟ بل ترد اقوالهم وعـدم الاعتماد على رواياتهم ولا كرامة . هذا من جهة .

ومن جهة اخرى أن هناك أمور تقتضي الوقوف عن قبول كثير من الاحاديث من حيث السند والدلالة فان هناك سيلا جارفا يسبق الى الذهن انكاره ويقضي العقل السليم برده .

وعلى أي حال فان رواية الصحابي وقبولها عند الشيعة لم يكن كما يذهب اليه غيرهم من الاعتماد مطلقاً .

وليس من الحق أن يقال لمن احتاط لدينه وتثبت في اخذ احكامه انه طعن على اصحاب رسول الله (ص) .

فاذا اردنا ان نتثبت في قبول رواية ابي هريرة مثلا ونقف امام أحاديثه موقف التثبت لاستجلاء الواقع وظهور الحقيقة يقال هذا طعن على الصحابة .

أليس من الحق أن نقف موقف الانكار على كثرة احاديثه الهائلة ونتساءل عن اختصاصه بمنزلة لم تكن لاحد من الصحابة قط وهو حديث عهد في الاسلام لم يتجاوز سماعه من النبي اكثر من ثلاث سنين أو اقل فكيف يختص بما لم يختص به من هو اسبق اسلاما واكثر ملازمة للنبي (ص) وافرغ بالا لقبول ما يسمع؟؟ .

فقد كان أبو هريرة مشغولا بسد رمقه ويصرع من الجوع مرة بعد اخرى ، وكان يتعرض للناس يسألهم عن مسائل ، وما كان يقصد الا أن يتعطفوا عليه بشيء يسد رمقه . لماذا كانت هذه الكثرة الهائلة عند ابي هريرة دون غيره من اصحاب محمد (ص) ؟ فقد كانت كثرة احاديثه تبعث على الاستنكار والتساؤل ، فقد روى عن النبي ٥٣٧٤ حديثا وقد انكر الصحابة عليه ذلك وكذبوه ، وكان يعتذر بأن غيره من الصحابة تشغلهم التجارة .

روى الاعرج عن أبي هريرة انه قال : انكم تقولون ما بال المهاجرين لا يتحدثون عن رسول الله (ص) بهذه الاحاديث وان اصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم في الاسواق ، وان اصحابي من الانصار كانت تشغلهم اراضيهم والقيام عليها . وإني كنت امرئاً معتكفاً اكثر من مجالسة رسول الله (ص) احضر اذا غابوا واحفظ اذا نسوا (١) .

وهذا الاعتذار لا يمكن قبوله إذ لم يقبله اصحاب النبي وقد انكرت عليه عائشة وابن عمر ونهاه عمر بن الخطاب عن الحديث .

إن أبا هريرة يدعي انه كان معتكفاً لا يشغله شيء عن حفظ الحديث لانه من اهل الصفة وبالاعراض عن شغله بسد رمقه وكثرة صرعه من الجوع كما يحدث

(١) الفتوحات الوهبية ص ١٣٦ .

هو عن نفسه ، فانا نسائله عن اختصاصه بذلك ولم لم يشاركه المعتكفون معه وهم اسبق واقدم اسلاما ، فلم تكن لهم هذه الخصوصية . واليك انموذجا عن حديث اهل الصفة .

اهل الصفة

حجاج بن عمر المازني الانصاري شهد صفين مع علي له في الصحاح حديث واحد .

حازم بن حرملة الاسلمي له حديث واحد رواه ابن ماجة عن مولاه ابي زينب .

زيد بن الخطاب العدوي قتل يوم اليمامة له حديث واحد يرويه عنه ابن عمر

سفينة مولى رسول الله (ص) له اربعة عشر حـــديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد .

شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وآله ، له عند الترمذي حديث واحد

طنخفة — بكسر اوله واسكان المعجمة — ابن قيس الغفاري مختلف في اسمه له حديث واحد اخرجه اصحاب الصحاح .

عبد الله بن أنيس ابو يحيى المتوفى سنة ٨٠ بالشام له اربع وعشرون حديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد .

عبد الله بن الحرث بن جزع — بفتح الجيم — الزبيدي المتوفى سنة ٨٠ بمصر ، وهو آخر من مات بها من الصحابة . له احاديث قليلة خرجها ابو داوود والترمذي وابن ماجة .

عبد الله بن قرط الثمالي المتوفى سنة ٥٦ له عند ابي داوود والنسائي حديث واحد ، ولعله حديث المعراج .

عقبة بن عامر الجهني المتوفى سنة ٥٨ له خمس وخمسون حديثاً . انفرد البخاري بواحد ومسلم بتسعة ، وهو ممن حضر صفين مع معاوية .

عمر بن تغلب العبدي له حديثان رواهما عنه البخاري .

عمر بن عنبسة السلمي له ثمانية واربعون حديثاً انفرد مسلم بحديث واحد .

عتبة بن عبد السلمي المتوفى سنة ٨٧ له ثمانية وعشرون حديثاً .

عتبة بن الندر - بضم النون وفتح الدال المشددة - له حديثان عند ابن ماجة .

عياض بن حماد المجاشعي البصري له ثلاثون حديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد .

فضالة بن عبيد الانصاري المتوفى سنة ٥٣ شهد احداً وبيعة الرضوان ، له خمسون حديثاً انفرد له مسلم بحديثين .

فرات بن حيان العجلي له عند ابي داود حديث واحد ، وهو الذي كان عيناً لابي سفيان وخليفه . فامر النبي بقتله فمر على حلقة من الانصار وقال : إني مسلم . فقال رجل منهم : يا رسول الله يقول إني مسلم . فقال رسول الله (ص): « إن منكم رجالاً نكلهم الى ايمانهم منهم الفرات بن حيان » .

السائب بن خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمر الخزرجي المتوفى سنة ٧١ ، له خمسة أحاديث خرجها .

فهؤلاء كانوا يشاركون أبا هريرة فيما ادعاه من تلك الخصوصية التي امتاز بها على جميع أصحاب النبي ، وقد ضرب الرقم القياسي في الكثرة وهو في الدرجة الاولى من الصحابة في ذلك ، مع انه كان امياً لا يقرأ ولا يكتب وقد اعتذر عن ذلك بقوله كما أخرجه احمد في مسنده : حضرت يوماً من رسول الله (ص)

مجلساً فقال : من بسط رداءه حتى اقضي مقالتي ثم يقبضه اليه فلن ينسى شيئاً سمعه مني ، فبسطت بردة علي حتى قضى مقالته ثم قبضتها إلي فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئاً سمعته منه (١) .

ولنا أن نسائله عن إعراض من كان في المجلس عن هذه المكرمة . ولأي شيء لم يتسابقوا لهذه الفضيلة ؟ أكانوا يشكون بما قال رسول الله (ص) ؟ حاشا وكلا ، أم أنهم لم يملكوا رداءً يبسطونه كما بسط ابو هريرة رداءه ! فهل يصح لنا أن نتساءل عن ذلك. أم لا يسوغ ونرجع الى العصور الماضية فنسكت خوفاً من الوقوع فى الزندقة وليس وراءها إلا السيف والنطع ؟

حدّث الخطيب البغدادي : ذكر عند الرشيد حديث أبي هريرة : ان موسى لقي آدم فقال : أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة ؟ فقال رجل قرشي : اين لقي آدم موسى ؟ فغضب الرشيد وقال . النطع والسيف زنديق يطعن فى حديث رسول الله (ص) (٢) .

ومن هذا تعرف شدة الأمر وخطر الموقف ، فهذا رجل يسأل عن المكان الذي لقي موسى آدم ليتضح له أمر لعله كان يجهله فلاقي ما لقي وطبقت عليه مادة الفناء وهي الاتهام بالزندقة . لانه يستفسر عن غموض حصل له فى حديث أبي هريرة ، فأدت الحالة أن أتهم بالطعن على حديث رسول الله (ص).

فكيف إذا أراد الاستفسار عن حديث ابي هريرة الذي أخرجه مسلم والبخاري : (إن جهنم لا تمتلي حتى يضع الله رجله فتقول قط قط الحديث (٣).

---

(١) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ١٠٥ .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٧ .

(٣) اخرجه احمد فى ج ٢ ص ٣١٤ .

إذاً لا يصح المسلم الذي ينزه الله تعالى عن تلك الصفة أن يسأل لان في السؤال وتنزيه الله طعن على أبي هريرة .

وكيف إذا أراد أن يستفسر عن المحل الذي ينزل اليه الله جل وعلا في سماء الدنيا حين يبقى الثلث الاخير من الليل . فقد روى ذلك ابو هريرة كما أخرجه الشيخان (١) الى غير ذلك من أحاديثه التي يطول الحديث بالتحدث عنها (٢) .

وغرضنا من هذا العرض أن أحاديث أبي هريرة تحوط بها أشواك من التشكيك لحصول تلك الكثرة الهائلة ، إذ هو فى الدرجة الاولى من المكثرين وفي الدرجة الثانية عبدالله بن عمر ، وفي الثالثة ام المؤمنين عائشة . ومن بعدهم أنس بن مالك .

فالوقوف عند تلك الكثرة للتثبت لا يوجب طعناً في حديث رسول الله ، وذلك لا يستوجب أن يقال أن الشيعة لا يعتمدون على أحاديث الصحابة .

* * *

ولا نريد أن نتحدث عن حديث عبدالله بن عمر واختصاصه بما لا يكون لاحد من الصحابة . فهو فى الدرجة الثانية بعد ابي هريرة فقد روى ٢٦٣٠ حديثاً وهذا لم يكن عند من هو اكبر منه سناً واشد منه ملازمة ، فقد كان حدث السن لان عمره -يوم توفي النبي (ص)- لم يتجاوز العشرين سنة ، فهذه الكثرة

(١) اخرجه البخارى فى باب الدعاء ومسلم فى باب الترغيب فى الدعاء .

(٢) وقد جمع قسما منها سيدنا الحجة شرف الدين فى كتابه (ابو هريرة) واعطى صورة صادقة عنه ببحث علمى يتركز على حرية الفكر فكان موضع عناية المفكرين ونال القبول لما فيه من اظهار الحقائق الضائعة .

تبعث على الاستغراب . كما ان هناك امور لا تسيغ لنا قبول رواياته . والتوقف في ذلك لا يدعو الى الطعن في الصحابة . ولا نريد أن نعتذر عن رد أحاديثه عند التثبت لمعرفة حاله فاضبارة عمله كافية لكشف الحقيقة .

فلنطو صحيفة البحث عن ذلك طلباً للاختصار هنا ونتركه لمحل آخر .

* * *

أما ام المؤمنين عائشة فلا نريد أن نساير موكب حياتها من البداية الى النهاية فاستقصاء البحث يقصينا عن الموضوع (*) .

ولكنا نريد أن نتحدث عن حديثها بصورة موجزة فان لشخصيتها مكانة في المجتمع واثر في التشريع الاسلامي . وقد اختصت دون ساير أزواج النبي (ص) بكثرة الرواية عنه (ص) بما لا نسبة بين مجموع رواياتهن ورواياتها . واليك ما يلي :

حديث امهات المؤمنين :

زينب بنت جحش المتوفاة سنة ٢٠ ، لها ١١ حديثاً .

صفية بنت حي بن اخطب المتوفاة سنة ٥٠ اتفق مسلم والبخاري على حديث واحد .

سودة بنت زمعة المتوفاة في خلافة عمر انفرد البخاري لها بحديث .

هند بنت امية المخزومية وهي آخر ازواج النبي وفاة . لها ٣٧٨ حديثاً .

حفصة بنت عمر بن الخطاب المتوفاة سنة ٤١ لها ٦٠ حديثاً .

(*) ذكرنا اطوار حياتها ومنزلتها في التشريع الاسلامي في كتابنا (عائشة والتشريع الاسلامي) مخطوط .

جويرية بنت الحرث المتوفاة سنة ٥٦ لها أحاديث انفرد لها البخاري بحديثين .

رملة بنت ابي سفيان المتوفاة سنة ٤٤ لها ٦٥ حديثاً .

ميمونة بنت الحرث الهلالية المتوفاة سنة ٥١ لها ٤٠ حديثاً .

عائشة بنت ابي بكر الصديق المتوفاة سنة ٥٧ لها (٢٢١٠) أحاديث فارتفاع هذا الرقم وحصول تلك الطفرة فى الكثرة يستوجب التريث والتثبت وعدم الاسراع فى قبول ذلك ، ولا حرج على المفكر لو أعطى النظر حريته مع حصول اشياء تؤيد هذا التفكير من شغلها وشواغلها وصغر سنها ولعبها بالالعاب ومنادمة صويحباتها (١) والقيام بخدمة البيت الى كثير من ذلك . فالوقوف هنا لاستجلاء الحقيقة لا يوجب الطعن على امهات المؤمنين ليستوجب الكفر والخروج عن الدين ، على ان هناك شيئاً يدعو الى التثبت وهو أمر رواة أحاديثها ، فانهم اتخذوا الرواية سبباً للتقرب الى بني امية . وقد طعن على هشام بن عروة وغيره .

ولا نطيل نقاشنا للاحاديث الواردة عنها التي فيها من الدخل الشائن لروح الاسلام والمنافية لمقام النبي الاعظم . كما يروي البخاري عنها فى الادب المفرد : انها قالت : كنت آكل حيساً مع النبي (ص) فمر عمر فدعاه فأكل فاصابت يده اصبعي فقال عمر : حس لو أطاع فيكن ما رأتكن عين (٢) .

أليس في ذلك حط لمقام النبي (ص) ونقصه ؟ وهو الانسان الكامل والمثل الاعلى لمكارم الاخلاق . أكانت داره مطروقة للذاهب والجائي ؟

---

(١) البخاري فى الادب المفرد ص ٥٤ .

(٢) الادب المفرد ص ١٥٢ .

أم كان يأكل هو وزوجته على قارعة الطريق . أم ان عمر كان لا يحترم النبي (ص) فيدخل عليه دخول عابر سبيل ؟؟ كل هذا نسكت عنه خوفاً من القول بانه طعن على ما ترويه عائشة ، والطعن عليها خروج عن ملة المسلمين كما يقولون !

أليس لنا حق التثبت بما يروى عن عائشة ؟ ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الرجل يجامع أهله ثم يكسل هل عليهما الغسل ؟ وعائشة جالسة . فقال (ص) : اني لأفعل ذلك انا وهذه ثم نغتسل (١) .

كيف يصح هذا ؟ورسول الله مثال الغيرة ومجمع الفضائل والانسان الكامل فالعقل يتوقف عن قبوله احتراماً لمقام الرسول الاعظم ، وان كان من وراء عدم قبول ذلك اتهام بالكفر ورمي بالزندقة .

كما يحق لنا أن نناقش ما يرويه مسلم في صحيحه عن هشام بن عروة عن ابيه : ان النبي كان مسحوراً يخيل اليه أنه يفعل الشيء وما يفعله (٢) .

فسل صحيح مسلم عن صحة ذلك ، وسل عروة وابنه ان كنت رجلاً لا تخاف الاتهام بالزندقة ، وإلا فاترك مسؤولية البحث لمن لا يتقيد بالاوهام ولا يخضع لسلطان العاطفة العمياء ولا يبالي بتوجيه التهم ما دمنا محافظين على كرامة النبي (ص) وإن طعنا بألف صحابي وصحابي وكذبنا ألف صحيح وصحيح ، حاشا للنبي الأعظم ومنقذ الانسانية والانسان الكامل في كل صفاته وهو المثل الاعلى لكل مكرمة . كيف يعتريه النقص ويخيل اليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ؟ ليت شعري أيتم نظام العالم وهو مصلحه مع اتصافه بهذه الصفة ؟ كلا .

---

(١) البخاري ج ١ ص ١٦١ وصحيح مسلم ج ١ ص ١٨٧ وسنن البيهقي ج ١ ص ١٦٤

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٤ .

(ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) .

فلنترك مناقشة كثير من الاحاديث ولا نمضي في هذا الموضوع باكثر مما ذكرناه ، ونكتفي بما دعت الحاجة الى عرضه بدون استقصاء في البحث ولا تتبع شامل لنقاط الموضوع ، وغرضنا من ذلك اعطاء صورة عن تلك الاتهامات التي وجهت للشيعة رجماً بالغيب وتقولاً بالباطل . واهمها سب الصحابة .

سب الصحابة :

إن تهمة سب الصحابة قد استأصل داؤها فعز علاجه ، ونفذ حكمها فعظم نقضه ، وسرت تلك الدعاية في مجتمع تسوده عاطفة عمياء وعصبية هوجاء ، وقد وقفت الحقيقة أمام ذلك الوضع المؤلم مكتوفة اليد ، واسدلت دونها ابراد التمويه ، واحيطت بانواع الحواجز واقيمت فى طريق الوصول اليها آلاف من العقبات وسلاح القوة فوق ذلك ، إذ السلطة قررت نظام انطباق الكفر والزندقة على المعارضين لسياستها . ولم يمكنهم تحقيقه إلا باتهام سب الصحابة أو أبي بكر وعمر بصورة خاصة .

وإذا حاول المفكرون أن يقفوا على حقيقة الأمر والواقع أخذوا بتلك التهمة وشملهم ذلك النظام الجائر .

فكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم علي بل يجعل سبب العقوبة انه شتم أبا بكر وعمر . قاله فى المنتظم .

وقال ابن الاثير في حوادث سنة ٤٠٧ : وفى هذه السنة قتلت الشيعة في جميع بلاد افريقيا وجعل سبب ذلك اتهامهم بسب الشيخين (١) .

(١) الكامل ج ٩ ص ١١٠ .

وما اكثر تلك الفضائع السود والاعمال الوحشية التي وقعت طبقاً لنظام السياسة ولا علقة لها بنظام الاسلام الذي يقضي على مرتكبها بالخروج منه .

وان المسألة مكشوفة لا تحتاج الى مزيد بيان لشرح الاسباب التي أدت الى حدوث تلك الحوادث المؤلمة ، وارتكاب تلك الجرائم الفادحة ، ومعاملة شيعة أهل البيت بتلك المعاملة القاسية .

وليس هناك من شك بأن استقلال الشيعة الروحي وعدم اعترافهم بشرعية سلطان لا يحترم نواميس الدين ولا يلتزم باوامر الشرع جعلهم خصوماً للدولة ، ولم يجدوا طريقاً لاخضاعهم وتحويلهم عن عقيدتهم الراسخة ، فكانت مشكلة التشيع من أعظم المشاكل التي تواجهها الدولة ، ولم يجدوا حلاً لهذه المشكلة إلا بان يلصقوا بهم تهماً يتلقاها المجتمع بالقبول. فتوسعوا في التهم واتخذوا مرتزقة لتحقيق ذلك الغرض ، فقالوا : إن الشيعة تكفّر جميع اصحاب محمد (ص) ويطعنون عليهم . وبذلك يتوجه الطعن على النبي (ص) وانهم يرمون امهات المؤمنين وغير ذلك .

ووضعوا قاعدة قررها علماء الدولة وهي : إذا رأيت الرجل ينتقص احداً من اصحاب محمد فاعلم انه زنديق . وذلك ان رسول الله حق والقرآن حق . وإنما أدى الينا هذا القرآن والسنن اصحاب رسول الله (ص) . وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة (١) .

وحكموا على من اتهم بسب الشيخين بالكفر ، فلا يغسل ولا يصلى عليه ولا تنفعه شهادة أن لا إله إلا الله . ويدفع بالخشب حتى يوراى

(١) الكفاية للخطيب البغدادي ص ٤٩ .

فى حفرته (١) ، وأنه اذا تاب لا تقبل توبته بل يجب قتله (٢) . وقال بعضهم بحرمة ذبيحته وحرمة تزويجه . ومن هذا وذاك سرت فكرة كفر الشيعة ، لان الدولة قضت بنظامها القضاء عليهم ، وأن يسندوا ذلك الى الشرع وحاشاه من ذلك ، ولكن السياسة عمياء ، والحق لاقيمة له عند علماء السوء الذين اندفعوا لمؤازرة السلطة وإغواء العامة .

ومن الغريب أن بعض اولئك المرتزقة احتاط لدينه واستشكل فى تنفيذ ذلك النظام المخالف للشرع فجاء بحكم جديد فافتى بوجوب قتل من سب الصحابة سياسياً لدفع فسادهم وشرهم وإن كانوا لا يجوزونه شرعاً للحديث الشريف : لايحل دم امرىء مسلم يشهد أنلا إله إلا الله محمد رسول الله إلا باحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه (٣) خرجه جميع الحفاظ وصححوه هكذا أفتى هذا المأجور ، وكم حكمت السياسة على نصوص الشريعة ونسخت أحكامها المقررة لان السياسة اقتضت ذلك ، وعلماء السوء قد فتحوا باب الارتزاق بالدين واعمتهم المادة واستغواهم شيطان اللذة وحب التمتع بالحياة ، فلم يقفوا عند حدود الله ، وحكموا بغير ما أنزل الله .

وطغى طوفان الافتعالات وتلاطمت امواج الاكاذيب على الله ورسوله من اولئك القوم الذين ساروا على غير هدى ، ولم يستمعوا لمرشد ولم يقفوا عند حد ، بل الأمر منوط لرأي السلطة كيف شاءت .

ونود هنا أن نشير لنبذة من بحث للامام كاشف الغطاء حول ذكر الفروق

(١) الصارم المسلول س ٥٧٥ .

(٢) رسائل ابن عابدين ج ١ س ٣٦٤ .

(٣) رسائل ابن عابدين ج ١ س ٣٦٧ .

الجوهرية بين الطائفتين (١) .

قال رحمه الله ـ بعد ذكر الاختلاف فى الخلافة ـ : (نعم ونريد أن نكون أشد صراحة من ذلك ولا نبقي ما لعله يعتلج أو يختلج فى نفس القراء فنقول : لعل قائلا يقول : إن سبب العداء بين الطائفتين ان الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم . وقد يتجاوز البعض الى السب والقدح ، مما يسيء الفريق الآخر طبعاً ويهيج عواطفهم فيشتد العـــداء والخصومة بينهم .

والجواب ان هذا لو تبصرنا قليلاً ورجعنا الى حكم العقل بل والشرع ايضاً لم نجده مقتضياً للعداء ايضاً .

أما « أولاً » : فليس هذا من رأي جميع الشيعة وانما هو رأي فردي من بعضهم ، وربما لا يوافق عليه الاكثر ، كيف وفي اخبار أئمة الشيعة النهي عن ذلك . فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءات بعض المتطرفين منهم .

« وثانياً » : ان هذا على فرضه لا يكون موجباً للكفر والخروج عن الاسلام ، بل اقصى ما هناك ان يكون معصية وما اكثر العصاة فى الطائفتين . ومعصية المسلمين لا تستوجب قطع رابطة الاخوة الاسلامية معه قطعاً .

« وثالثاً » قد لا يدخل هذا فى المعصية ايضاً ولا يوجب فسقاً اذا كان ناشئاً عن اجتهاد واعتقاد وان كان خطأ . فان من المتسالم عليه عند الجميع في باب الاجتهاد أن للمخطيء أجراً وللمصيب أجرين . وقد صحح علماء السنة الحروب التي وقعت بين الصحابة فى الصدر الأول . كحرب الجمل وصفين

(١) انظر هذا البحث القيم الذي نشرته مجلة رسالة الاسلام تحت عنوان « بيان المسلمين » ص ٢٢٧ — ٢٢٨ السنة الثانية العدد الثالث .

وغيرهما ، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا وإن اخطأوا في اجتهادهم ، ولكن لا يقدح ذلك في عدالتهم وعظيم مكانتهم . واذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل آلاف النفوس وإراقة دمائهم فبالاولى أن يبرر ولا يستنكر معه (اي مع الاجتهاد) تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمـــة الى آخر البحث .

* * *

وليس فى وسعنا نقل كلمات علماء الشيعة حول هذه النقطة المهمة التي لها أثرها العظيم في تكدير صفو الاخوة الاسلامية . فاصبحت طريقاً لاعداء الدين يدخلون فيه لأغراضهم .

ونهاية البحث :

أن فكرة ـ اتهام الشيعة بسب الصحابة وتكفيرهم ـ كوّنتها السياسة الغاشمة ، وتعاهـــد تركيزها اناس مرتزقة باعوا ضمائرهم بثمن بخس وتمرغوا على أعتاب الظلمة يتقربون اليهم بذم الشيعة . وقد استغل اعداء الدين هذه الفرصة فوسعوا دائرة الانشقاق لينالوا أغراضهم ويشفوا صدورهم من الاسلام واهله . وراح المهرجون يتحمسون لاثارة الفتن وايقاد نار البغضاء بين المسلمين بدون تدبر وتثبت . وقد ملئت قلوبهم غيظاً .

ومن المعلوم أنهم لا يتحمسون لامور دينية أو حباً لاظهار الحقيقة ، وإنما يفعلون ذلك للترنح بخمرة الهذيان أو (الهستريا) التي اتصفت بها عقليتهم . وقد أعمت المادة أبصارهم ، ففقدوا بذلك حرية الفكر وتمييز العقل ، بل ملكة التمييز .

ووقف المفكرون ودعاة الاصلاح من رجال الامة موقف إنكار لذلك الوضع السيء . ولكن تلك الضجة الصاخبة لم تترك مجالا لمصلح ، ولم يستطع رجال الاصلاح من إفهام المندفعين — وراء السلطة والضاربين على وترها — حقيقة الأمر والواقع لان اتباع الشيعة لمذهب أهل البيت فى نظر السلطة لا يمكنهم الاغضاء عنه ، فاذا أعرضوا عن معارضة انتشاره . فمعناه أنهم يفتحون على انفسهم باباً لا يمكنهم غلقه . لان اتباع مذهب أهل البيت لا يمكن اجتماعه مع عزائمهم . ولا يتفق مع حزمهم ونشاطهم وسياستهم ، بل يؤدي الأمر الى حصول ما يحذرونه من الحيلولة بينهم وبين مآربهم .

وبهذا يتحتم عليهم أن يقفوا موقف الحزم والصرامة فى معارضة انتشار المذهب . ولا بد أن تتمخض آراؤهم عن آخر حل لهذه المشكلة .

وليس فى وسعهم أن يصرحوا بمعارضة مذهب أهل البيت بدون مبرر لذلك ، ولا يمكنهم أن يذكروهم بشائبة أو يلصقوا بهم عيباً . فقد عرف المجتمع سيرة أهل البيت وما طبعوا عليه من التقى وعفة النفس وغزارة العلم . وهم ادلاء على الخير ودعاة للصلاح وأئمة للعدل وحماة للدين . وكانوا يغذونه بدمائهم الزكية . ويغضبون للحق ويثورون على الباطل . ولا تأخذهم فى الله لومة لائم وبهذا لا يمكن لخصومهم تحقيق فكرة المعارضة ويخشون الفشل . فيعود عليهم بالندامة .

فكان آخر حل لهذه المشكلة أن يتجهوا الى انصارهم ومتبعي مذهبهم بامور يتقبلها المجتمع وتهضمها عقول السذج فحاولوا ان يجعلوا متبع أهل البيت

خارجاً عن الدين . وإذا كان كذلك . فلابد من انفصال المجتمع الذي يخضع للسلطة عنه .

وهناك مشكلة ثانية : وهي كيفية تحقيق تلك المهمة . وبأي اسلوب تكون فلا يمكنهم ان يتهموهم بالالحاد والزندقة رأساً . لأن أعمال الشيعة لم تخالف نظام الاسلام . ولا يمكنهم أن يتهموهم بسب النبي . لانهم قد انضموا لجانب أهل البيت اتباعاً لوصاياه واحبوهم لحبه .

ومن جهة ثانية أن في جهاز الدولة ـ من غير المسلمين ـ عدد كثير يتمتعون فى الوظائف ويختصون بعطف الدولة ، فهؤلاء أولى بالاتهام وبالابعاد وانزال العقاب بهم إن ظهر منهم ما يخالف شروط الذمة .

ولم يجدوا طريقاً لتحقيق ذلك الا اتهام الشيعة بتكفير الصحابة وسبهم . لأنهم عرفوا انطلاق حرية الفكر عند الشيعة ومناقشاتهم العلمية لسجل الحوادث التي بين ايدي الجميع لاحوال الصحابة ، وأنهم يقيسون درجاتهم بميزان العمل. وبهذا مكنت لهم الفرصة تحقيق تلك الغاية ، فحكموا على انمن طعن على الصحابة طعن على رسول الله . ومن طعن على رسول الله فهو زنديق .

وبحكم السياسة تحكم ذلك النظام الجائر واصبحت الشيعة يرمون بكل عظيمة ، وهوجموا بهجمات عنيفة ، واندفع ذوو الاطماع يعرضون ولاءهم للدولة فى تأييد ذلك النظام والاعتراف به ، وأنه قد أصبح جزء من حياة الامة العقلية وهم يخادعون انفسهم .

ولم يفتحوا باب النقاش العلمي وحرموا الناس حرية القول ، وارغموهم على الاعتراف بكفر الشيعة والابتعاد عن مذهب أهل البيت (ع). ولو سألهم

سائل عن الحقيقة وطلب منهم ان يوضحوا لهم ذلك . فليس له جواب إلا شمول ذلك النظام له ، ونحن نسائلهم .

١ — أين هذه الامة التي تكفر جميع الصحابة ويتبرأون منهم ؟

٢ — أين هذه الامة التي تدعي لأئمة اهل البيت منزلة الربوبية ؟

٣ — أين هذه الامة التي اخـــذت تعاليمها من المجوس ، فمزجتها في عقايدها ؟

٤ — أين هذه الامة التي حرفت القرآن وادعت نقصه ؟

٥ — أين هذه الامة التي ابتدعت مذاهب خارجة عن الاسلام ؟

إنهم لا يستطيعون الجواب على ذلك ، لان الدولة قررت هذه الاتهامات فلا يمكنهم مخالفتها .

وما اقرب الطريق الى معرفة الحقيقة لو كان هناك صبابة من تفكير وبقايا من حب الاستطلاع وخوفاً من الله وحماية للدين .

أليس التشيع مبدأ يشمل عدداً وافراً من اصحاب محمد (ص) وهم من البدريين وأهل بيعة الرضوان ؟

أليس من الشيعة علماء اعترف الكل بعلو منزلتهم وغزارة علمهم . واحتاج الناس اليهم ، وهم من شيوخ كبار العلماء ورجال الصحاح . وعددهم يربو على ثلثمائة رجل ، ولا يسع المقام لنشر اسمائهم وتركهم لفرصة اخرى (١) .

---

(١) ذكر منهم سيدنا شرف الدين في كتاب المراجعات مائة رجل . وذكر العلامة الاميني في كتاب الغدير في ج ٣ عدداً وافراً منهم . وبايدينا قائمة تقارب ثلثمائة رجل قد اعتمد رجال الصحاح عليهم .

التثبت قبل الحكم :

لم نسهب في بيان هذا الموضوع عبثاً واستطرادا ، ولم نقصد به خوض بحث لا علاقة له بموضوع الكتاب .

بل الواقع أن هذا الموضوع من أهم المواضيع التي يجب أن نتطرق لها في هذا الكتاب الذي أقدمنا عليه لبيان مذهب أهل البيت وأحقيته . وأنه لم يكن مبتدعاً كما يقال ، وأن أهم مشكلة تقف أمام الباحث هي مسألة اتهام الشيعة بسب الصحابة أو تكفيرهم . وقد بينا مراراً أن ذلك يعود الى عوامل سياسية تحاول أن تطبع في قلوب الناس طابع البغض للجانب الذي يعتقد ولاة الأمر أنه لا يؤازرهم ، ويقف موقف المعارضة لاعمالهم ، وهل من شك في معارضة الشيعة وعدم مؤازرة الدولة ، وانهم لا يعترفون بشرعيتها في تلك العصور . لانهم لا يتنازلون عن الاعتقاد بأحقية أهل البيت للخلافة . لذلك نرى أن تشريع نظام الحكم على من اتهم بسب الصحابة يهدف الى عقاب الشيعة فقط . أما غيرهم من الموالين للدولة نراهم يصرّحون بعبارات هي أعظم مما تتهم به الشيعة . فلا يؤاخذون ولا يستنكر ذلك عليهم ، لأنهم غير مشمولين لهدف ذلك النظام الذي شرّع لغاية المعارضة لمذهب أهل البيت كما مر بيانه .

وقد تسرع المخدوعون بالظواهر الى الاعتراف به . وقاموا بتنفيذه ، فحكموا على الشيعة بالفسق (مرة) وبالكفر (اخرى) . وليتهم حددوا لذلك حداً حتى يعرف الناس كيفية المؤاخذة ، ولكنهم وسعوا الدائرة واختلفت الصور ، كما وانهم قرروا عدم قبول توبة المتهم بسب الصحابة أو الشيخين بصورة خاصة ، وقرروا انطباق الآراء الفردية على مجموع الامة .

كل ذلك بدون تدبر وتثبت . وإنما هي عاصفة سياسية واغراض شخصية .

ومن المؤسف له أن المرتزقة ـ من العلماء الذين اصبحوا مصدراً للفتوى وحكاماً للسلطة التشريعية ـ قد أخذوا على عاتقهم مسؤلية إغواء العامة وحملهم على خلاف الحق . فكانوا دعاة فرقة وأئمة ظلال . فحكموا على الشيعة بالاخص ـ من دون بيان لمستند الحكم ودليل للفتوى ـ بان قتالهم جهاد اكبر ، ومن قتل في حربهم فهو شهيد . ويقول في خاتمة الفتوى : ومن شك في كفرهم ـ أي الشيعة ـ كان كافراً . وآخر يقول : ـ كما فى الخلاصة ـ الرافضي اذا كان يسب الشيخين ويلعنهما ، فهو كافر ، وإن كان يفضل علياً عليهما ، فهو مبتدع (١) .

وهكذا زينوا للناس حب الوقيعة بعضهم ببعض . واباحوا قتل المسلم بيد المسلم بدون تثبت فى الحكم ووقوف امام حرمة ذلك . وليس غرضهم إلا إرضاء السلطة وان غضب الله عليهم .

ويقول الاسفرايني : « واعلم أن جميع من ذكرنا من فرق الامامية متفقون على تكفير الصحابة ، ويدعون أن القرآن قد غير عما كان ، ووقع فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة ، ويزعمون أنه قد كان فيه النص على امامة علي فأسقطه الصحابة عنه ، ويزعمون أنه لا اعتماد على الشريعة التي في ايدي المسلمين ـ الى أن يقول : ـ ومقصودهم إسقاط كلفة تكليف الشريعة عن انفسهم حتى يتوسعوا في استحلال المحرمات الشرعية ، ويعتذرون عند العوام بما يعدونه من تحريف الشريعة ، وتغيير القرآن من عند الصحابة . ولا مزيد على هذا

(١) انظر نص هذه الفتاوى فى رسائل ابن عابدين ج ٢ ص ١٦٩ .

من الكفر ، إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين » . (١)

ثم اندفع الرجل في تشبيه الشيعة باليهود والنصارى ، واورد أحاديث فى ذم الشيعة والنص على كفرهم ووجوب قتلهم ، استناداً الى مادة سب السلف ، وهي القاعدة التي اتخذها اعداء اهل البيت في محاربة مذهبهم والقضاء على انصارهم

* * *

هذا نموذج من بين مئات النماذج من الاقوال التي تبعث على الاستغراب، وتوقف المسلم على موقف التأثر ، لعظيم تلك الجنايات التي ارتكبها قوم لتفريق كلمة المسلمين . ولا نطيل الوقوف على هذه الخرافات والاباطيل ، ولا نتأثر ممن استولى عليه التهيج العصبي ، فأفقده اتزانه .

ويحق هنا ان نلحظ نقطتين :

الاولى :

هل الطعن على مجموع الصحابة موجب لهذه الاحكام القاسية . أم أن هناك فرق وتمييز ؟؟!

فان كان هذا الحكم على كل من طعن صحابياً او وصفه بصفة لا تليق به ، فلماذا لم يحكموا على من طعن على عدد كثير من الصحابة ووصفهم بما لا يليق بهم ؟ وهم من كبار الصحابة واعيانهم . لأنهم اشتركوا فى قتل عثمان وسعوا عليه بانكارهم اوضاع بني ابيه الشاذة ومسايرته لهم .

أليس من الطعن والتنقيص وصفهم للصحابة : بانهم اجلاف اخلاط من الناس، لا شك أنهم مفسدون فى الارض بغاة على الامام . (٢)

---

(١) التبصير ص ٢٤ .

(٢) تاريخ ابن كثير ج ٧ ص ١٧٦ .

ويقول ابن تيمية : بانهم خوارج مفسدون في الارض ـ الى ان يقول ـ : ولم يقتله — أي عثمان — الا طائفة قليلة باغية ظالمة . واما الساعون في قتله فكلهم مخطئون بل ظالمون باغون معتدون . (١)

ويقول ابن حجر في وصف المعترضين عليه : ان المجتهد لا يعترض عليه في الامور الاجتهادية ، لكن اولئك الملاعين المعترضون لا فهم لهم بل ولا عقل (٢)

وقد قرروا في بحث العدالة ان الصحابة عدول الى وقوع الفتن . اما بعد ذلك فلابد من البحث عمن ليس ظاهر العدالة . هذا هو أحد الاقوال . (٣)

ولا نريد التعرض لجميع الاقوال التي وصفوا بها الصحابة الذين اشتركوا في قتل عثمان .

الثانية :

ان الشيعة لا تتكلم في بغض من عادى علياً . فان مبغض علي منافق بنص الحديث الشريف : « يا علي لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق » وان المنافقين لفي الدرك الاسفل من النار . وقد ثبت أن بعض من وسموا بالصحبة كانوا يبغضون علياً ويسبونه . وقد اشتهر ذلك عنهم :

فالله يشهد أنا لا نحبهم لله لا نختشي في ذاك من غضبا

وبدون شك أن معاوية وحزبه كانت تتجلى بهم صفة البغض لعلي واهل البيت اجمع ، وقد قابلوه بقلوب ليس فيها صبابة من الايمان . ووجوه لا تعرف الخجل ، فقد أعلن معاوية شتم علي وجعله سنة . وتتبع انصاره

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ١٩١ — ٢٠٦ .
(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ٦٨ .
(٣) شرح الفية العراقي ج ٤ ص ٣٦ .

من الصحابة والتابعين . فأذاقهم انواع الاذى والمحن ، وجرعهم الغصص وقتلهم تحت كل حجر ومدر بما لا حاجة الى بيانه .

على أن اعماله لا يمكن السكوت عنها . ولا طريق الى حملها على وجه صحيح . وليس من الانصاف ان يقال : إن معاوية مجتهد متأول ، وقد عطل الحدود . وابطل الشهود ، وقتل النفس المحترمة . وسبى نساء المسلمين . وعرضهن فى الاسواق . فيكشف عن سوقهن ، فايتهن كانت اعظم ساقا اشتريت على عظم ساقها (١) الى كثير من تلك الفضائع والفجائع .

فليس من الصحيح تصحيح هذه الاعمال وحملها على وجه من التأويل لتبرير عمله ، لانه صحابي ، والطعن عليه طعن على جميع الصحابة ، مع العلم بأن الصحابة انفسهم تبرأوا من عمله وانكروه . فنحن لا نتكتم في بغضه ، ولا نرى وجباً للسكوت عنه .

وهل يسوغ لنا السكوت عن اعمال بسر وموبقاته ؟ إذ وسم بالصحبة ايضاً ، وهو قائد جيش معاوية . وقد ارتكب اجراماً لم يشهد التاريخ مثلها فضاعة ، حتى انكرت النساء عليه عندما دخل اليمن ، وقتل الشيوخ والاطفال وسبى النساء . فقالت له امرأة من كندة : يا ابن ارطاة ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام إنه لسلطان سوء . (٢)

فكيف يسوغ لنا السكوت عن اعمال بسر ، ونصم اسماعنا عن صوت ثكلى تردد نغماتها موجات الحق ، وترفع ظلامتها الى رجال العدل ، وتدعو هائمة مذهولة ؟؟ :

---

(١) الاستيعاب ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ١٩٥ .

يا من احس بابنيّ اللذين هما | كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من احس بابني اللذين هما | سمعي وعقلي فعقلي اليوم مختطف
من دل والهة حيرى مدلهة | على صبيين ذلا اذ غدا السلف
نبئت بسراً وماصدقت ما زعموا | من إفكهم ومن الاثم الذي اقترفوا
احنى على ودجي ابني مرهفة | مشحوذة وكذاك الاثم يقترف

فهذا صوت يبعث فى القلب شجى . وفي العين قذى ، يصدر من أم والهة ـ وهي زوجة عبيدالله بن العباس ـ فقدت ولديها وهما قثم وعبدالرحمن . أخذهما بسر بن أرطاة وهما صغيرين . فذبحهما بين يدي امهما ، فهامت على وجهها مذهولة ، فكانت تأتي الموسم وتنشد هذا الشعر وتهيم على وجهها . (١)

إذاً فليس من انصاف الحق ان يؤاخذ المسلم عندما يغضب لسماع صوتها وينسب الظلم لمن قتل ولديها فيرمى بالزندقة والالحاد لانه طعن على معاوية ، إذ القتل بأمره وهو صحابي . وله فى ذلك اجتهاد مقبول أو تأويل صحيح ، إذاً ليجري معاوية في ميدان الحياة وليفعل ما شاءت له نفسه ، فقد ضربت الصحبة عليه حصانة لا يمكن مؤاخذته فليأمن من كل خطر وليسفك الدماء التي حرمها الله ، وليقتل على الظنة والتهمة ، فقد انهارت الحواجز كلها فى وجهه ، واندكت العقبات امامه فلا تشمله تلك النظم والاحكام التي قررها الشارع المقدس . وفيها سعادة البشر ونظام الحياة ، لانه صحابي وله حرية التصرف فى الاحكام .

ولو كان له ذلك لما انكر الصحابة عمله وفي طليعته الصحابي الجليل ابو ذر الغفاري ، فقد اعلن للملأ انحراف سيرة معاوية ومخالفته لنظم الدين .

كما انكر عليه الحكم بن عمر وهو من كبار الصحابة عندما ورده كتاب

(١) الاستيعاب ج ١ ص ١٥٦ والكامل لابن الاثير ج ٣ ص ١٩٥ .

من معاوية ان يصطفي من الغنيمة ما فيها من الذهب والفضة لبيت ماله فرد الكتاب وقال : كتاب الله قبل كتاب امير المؤمنين ، او لم يسمع لقوله (ص) لا طاعة لمخلوق في معصية الله . وقسّم في الناس غنائمهم ، فكان جزاء هذا الصحابي ان يحبس بمرو الى ان يموت وذلك في سنة ٥٠ (١) كما كان جزاء ابي ذر ان يبعد ويموت في الربذة .

وقد انكرت عائشة على معاوية قتله لحجر واصحابه وغضبت عليه ومنعته من الدخول عليها ولم تقبل باعذاره إذ قال : ان في قتلهم صلاحا للامة . وفي مقامهم فساداً للامة فقالت : سمعت رسول الله (ص) يقول : سيقتل بعذراء اناس يغضب الله لهم واهل السماء (٢) . وغيرهم من الصحابة لا يتسع المجال لذكرهم

* * *

فليس من الحق أن تؤاخذ الشيعة بميلها عن معاوية واعلان غضبها عليه وعلى عماله وانصاره ومن خالفوا كتاب الله فظلموا العباد وخربوا البلاد ، وحرّفوا الكلم عن مواضعه . فآذوا رسول الله « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم » .

وهل يحسن بمسلم يؤمن بالله ورسوله أن يكفر امة من المسلمين استناداً الى اتهامات باطلة وادعاءات كاذبة ولم يلتفت الى ما بذلته السلطة في نشر هاتيك الاكاذيب وارغام الامة على قبولها . لتصبح روابط الالفة والتعاون مفقودة بين طائفتين من المسلمين .

والشيء الذي يلفت النظر هو ان الدولة العباسية كانت تنقم على الامويين اموراً كثيرة ، وتخالفها في كثير من الاتجاهات . ولكنا نرى ان الدولتين

---

(١) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ٤٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٥ .

قد اصبح الانسجام بينهما محسوساً فى اتحاد النزعة ضد مذهب اهل البيت ونصب العداء لهم وتتبع انصارهم ، وامتازت الدولة العباسية بتوسيع دائرة الانتقام وتعدد جهات التهمة لمعتنق مذهب اهل البيت ، فقد استخدموا مرتزقة من الفقهاء يقومون فى كل مجتمع ويحلون فى كل ناد يتظاهرون بالغيرة على الاسلام والانتصار له.

لقد قام اولئك المستخدمون ينذرون المسلمين من خطر التشيع وقد افهموهم بانه يدعو الى مبدأ الحلول ، وعقيدة التناسخ . وادعاء الالوهية للائمة ، وابطال الشريعة وتعطيل احكام القرآن بتكفيرهم الصحابة وغير ذلك « سبحانك هذا بهتان عظيم » .

والناظر لتلك الاتهامات التي استمرت السلطة التنفيذية فى نشرها وتشجيع الناس لقبولها وجعلها من الامور المسلمة المفروغ عن مناقشتها ونقضها فانه يعتقد انها تقضي بنودها على محو مذهب اهل البيت .

ولكنها لم تنجح في تأدية الغرض المطلوب ولم تستطع الوصول الى الغاية التي برزت من اجلها لعالم الاختراع . الامر الذي جعلنا نؤمن بان مذهب اهل البيت ، — او المذهب الجعفري — كان يشق طريقه للتقدم بقوته الروحية وبعناية من الله وبما افاضه عليه اهل البيت من قدسيتهم ، وبذلك قد تخطى تلك العقبات التي وقفت في طريق تقدمه وانتشاره (*) .

وها نحن اولاء نعيد تأكيد الطلب من جيلنا المثقف أن يتثبتوا قبل الحكم وان يستعملوا لغة المنطق ولا يخضعوا للتقاليد واستعمال الاقيسة المعكوسة ومؤاخذة الامة بالفرد ، فعسى ان تقهر تلك الاشباح الهائلة التي وقفت في طريق اتحاد

(*) استقصينا البحث عن التهم الموجهة الى الشيعة فى كتابنا (الشيعة فى قفص الاتهام) وقد حالت الظروف بيننا وبين طبعه .

المسلمين بقوة العلم ، وبذلك يضيق مجال الدخلاء واعداء الوحدة وتزول عوامل الدس والخيانة .

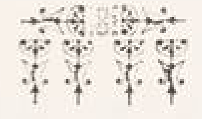
هذا ما اردنا بيانه وبه ختام هذا الجزء ونسأله تعالى ان ينصر المسلمين ويوحد كلمتهم « ولو كره الكافرون » .

والحمدلله « الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

والصلاة على محمد وآله الطيبين واصحابه المنتجبين

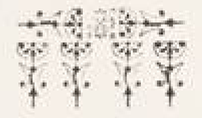
« تم الجزء الثاني »

ويليه الجزء الثالث إن شاء الله تعالى



الفهرست

الصفحة



فهرست تعليقات الكتاب



